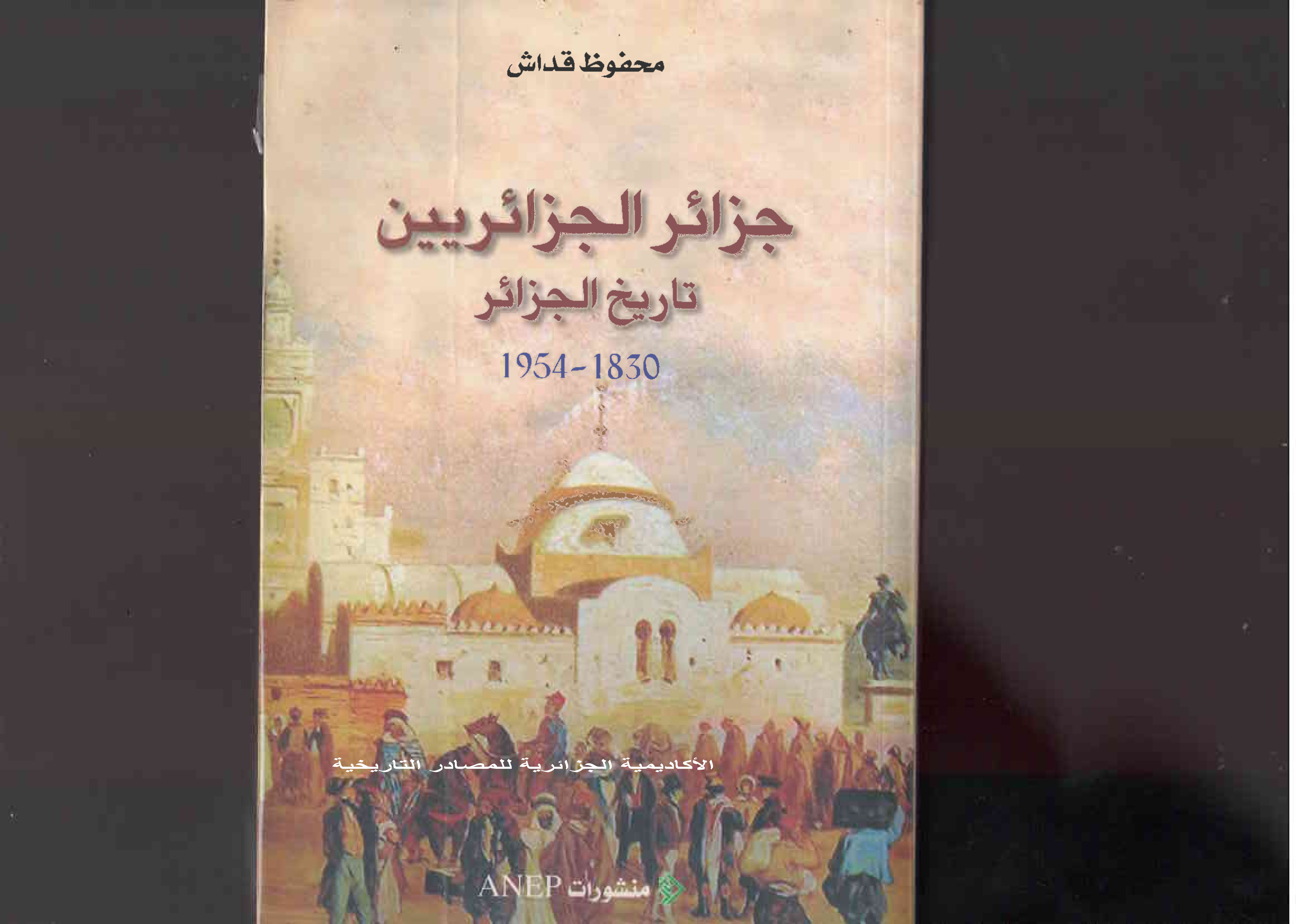

محفوظ قداش
جزائر الجزائريين
تاريخ الجزائر
1954-1830
الأكاديمية الجزائرية للمصادر التاريخية
منشورات ANEP

محفوظ قداش :

جزائــــر الجزائريــــن
تاريــــخ الجزائــــر
1830 - 1954

ترجمة : محمد المعراجي

منشورات ANEP

منشورات © ANEP
ISBN: 978-9947-21-386-5
Dépôt légal: 1289-2008

مقدمة

"جزائر الجزائريين : 1830 - 1954" يبدو هذا العنوان متناقضا بالنسبة لفترة من تاريخ الجزائر كانت دائما تقدم في الكتابة التاريخية الجزائرية تحت عنوان "الجزائر الفرنسية".

جاء هذا العنوان على هذه الشاكلة لأننا أردنا أن نبرز وضعية الجزائريين الأهالي في تلك الفترة ومصيرهم وكيف كانوا يتعاملون مع الغزو والاحتلال الاستعماري الفرنسي.

هو غزو مع كل ما فيه من عنف وبشاعات قد قاومها جيش الدولة الجزائرية كما كان موجوداً في ذلك الوقت (1830) وجيش الدولة كما أصلحها عبد القادر من جهة وصالح باي من جهة أخرى. وهي كذلك (جزائر) المقاومة الشعبية من قبل القبائل، والشرفاء والانتفاضات المتعددة التي واكبت القرن التاسع عشر وتواصلت في القرن الموالي.

إذا كان الاستعمار قد غير البلاد، فقد فعل ذلك لصالح السكان الأوروبيين، فأغلبية الجزائريين قد تألمت من الوضعية الاستعمارية الشنيعة وقبعت في الفقر الاقتصادي والفكري المدقع.

لم يستطع الجزائري البقاء حيا إلا بفضل القيم الأخلاقية والروحية والتقليدية التي كان لها شرف تسيير مجتمعه والتي أعطت العديد من الأشكال الأخرى للمقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي.

وهذا ما سمح في القرن العشرين بتكوين معارضة سياسية عصرية ومنظمة ومتنوعة وبعد البدايات المحتشمة سمحت ببروز وطنية صارمة شكلت أصل جبهة التحرير الوطني وعامل تحرير البلاد بالكفاح المسلح.

هذا هو التطور التاريخي الذي حاولنا تقديمه في هذا الكتاب والذي حثنا على اختيار العنوان "جزائر الجزائريين".

يعتبر هذا الكتاب مواصلة للكتب الثلاثة الأولى التي عالجت "الجزائر في العصر العتيق" و"جزائر القرون الوسطى" و"الجزائر في عهد العثمانيين".

ولنا الأمل في أن نَكتُبَ بقية التاريخ.

الفصـــل الأول

سقـوط مدينـــة الجزائـــر

نجد أسباب التدخل الفرنسي في تقرير وزير الدفاع، كليرمون تونير الذي كان يقترح حملة عسكرية ضد مدينة الجزائر. لقد كانت في الأول جافزا دينيا وهو "جعل ابن سان لويس ينتقم للدين وللبشرية ولشتائمه الخاصّة مع أمل تمدين الأهالي وتمسيحهم".

ويتم فيما بعد تقليص المعارضات الداخلية الشيء الذي يعطي للفرنسيين الأمجاد العسكرية ويسمح لفرنسا أن تلعب دورا في البحر الأبيض المتوسط أمام انجلترا وروسيا. كل هذا بقطع النظر عن ثروات "الريجانس" وأمل الاستيلاء على كنوزها.

تمّ التدخل الفرنسي انطلاقا من الذرائع الوهمية وسهلها ضعف الدولة الجزائرية ومصاعبها الاقتصادية. إن سقوط مدينة الجزائر تألم منه الجزائريون كثيرا ولم تعن احتلال كلّ القطر الجزائري ولكنها كانت نقطة انطلاق مقاومة مسلحة طويلة امتدت إلى نهاية القرن التاسع عشر.

الأسباب العميقة

الاستيلاء على الثروات الجزائرية وضمان انتقام الصليب من الهلال، وكذلك نشر المسيحية والحصول على مجد عسكري سهل، كل هذه الأمور شكلت الأسباب العميقة للتدخل الفرنسي

في مدينة الجزائر. لقد دفعت الأوساط الاستعمارية الحكومة الفرنسية إلى العمل العسكري. اقترح النائب المرسيلي، دو روكس ابتداء من 1827 حملة ضدّ مدينة الجزائر. لم تكن الجزائر معتبرة على أنها ستهب مجدا عسكريا لفرنسا ولكن كذلك القهوة والسكر والكاكاو...

إن المصالح التجارية، وخاصّة مصالح مرسيليا، قد وجهت نشاط الحكومة. لقد أزعجت المنافسة الانجليزية المستعمرين (إن شركة باريت قد رأت نشاطها يتقلص لصالح الانجليز) الذين أرادوا امتلاك الشاطئ العنابي وعدم دفع الجمركة وتخفيض كراء الأراضي الواقعة في الامتياز وتشييد التحصينات وإبقاء امتيازات التنازلات. لقد أرادوا فعلا انتهاز فرصة الصعوبات التي يتعرض لها الانجليز لتنصيب القوة الفرنسية في إفريقيا. وقد أكد سيسموندي، أحد منظري الرأسمالية المتوثبة أن: "مملكة الجزائر لن يكون فقط غزوا وإنما ستكون مستعمرة، ستكون بلدا جديدا سنفرغ فيه الفائض السكاني وفائض النشاط الفرنسي".

فعندما أعلن شارل العاشر عن الحملة ضدّ الجزائر، تحدث عن تكفير عن الخطأ يرضي شرف فرنسا وسيكون بعون الله القوي في صالح المسيحية". لقد كان جزء من الأوساط الكاثوليكية يحلم بالحروب الصليبية، إذ أكد الكاتب الشخصي لبيوجو: "لقد جاءت آخر أيام الإسلام".

بالإضافة إلى الأوساط البرجوازية، كانت الحكومة تبحث كذلك على جلب الجيش بإهدائه غنيمة وانتصارات سهلة،

لتستطيع استعماله في سياسة انقلابات محتملة. لقد تغاضى دو بورمون عن نهب كنز القصبة المقدر بـ 37.000 سكّة أي ما يساوي 307 مليون فرنك ذهبي أو 76 مليون سنة 1955. كانت الحكومة الرجعية لبولينياك تفكر بأنها تستطيع استعماله للقضاء على المعارضة اللبرالية: "سنقوم بمناوشات ضدّ الداي ولكن الحرب الحقيقية والجيدة ستكون عند العودة.

لقد قدمت الحكومة الفرنسية لإضفاء الشرعية على تدخلها ذريعتين.

الذرائع

كانت قضية بوشناق وبكري وقضية المروحة هما السببان الرئيسيان اللذين قدمهما الفرنسيون.

كان بكري وبوشناق يهوديين من ليفورن مقيمين في مدينة الجزائر. وكانا قد احتكرا لصالحهما الجزء الأكبر من التجارة الجزائرية وكانا يلعبان دورا سياسيا هامّا في المملكة. فبالإضافة إلى كونهما، فيما بين 1793 و1800، لم يساهما فقط في تموين جنوب فرنسا بالحبوب وكذلك جيش إيطاليا ومصر، ولكنهما قد أعطيا كذلك تسهيلات في الدفع طويلة المدى، الشيء الذي كان يسمح لهما بتضخيم ديونهما. وبالتالي فإن بكري وبوشناق قد تحصلا من الداي على سلفيات هامّة. لقد توصلا إلى إقناعه بأنهما لا يستطيعان تسديد ديونهما تجاهه إلاّ إذا ربط المسألتين (السلفيات المقدمة لهما من الداي وديونهما) في المفاوضات مع الحكومة الفرنسية.

وفي سنة 1798، طلب بكري وبوشناق 7.942.902 فرنك. فتوصلا إلى قبض تسبقة أولى قيمتها 3.175.000 ثم تسبقة ثانية قيمتها 1.200.000 ولكنهما لم يدفعا شيئا للداي. إن التاجرين اليهوديين بمساعدة طاليران قد دفعا الداي إلى مساع جديدة لدى بونابرت لطلب مستحقاتهما. وبما أن العلاقات بين المملكة (الريجانس) وفرنسا قد تدهورتا، فإن القضية لم تستأنف إلا في 1815. إن بكري وبوشناق، وهما معتمدان على دعم طاليران لهما، قدما فاتورة مبلغها 24 مليونا وبعد المناقشة خفضت إلى 7 ملايين. لقد كانت هذه اتفاقية 28 أكتوبر 1819 (إن المعارضة في فرنسا أكدت أن قيمة الدين لم ترتفع في الحقيقة إلاّ لمبلغ 6 أو 700.000 فرنك). وتم تطبيق الاتفاقية على حساب الداي. ولكن هذا الأخير الذي كان دينه حقيقيا لم يقبض شيئا. لقد تم الدفع لدائنين متميزين وهم ذوو أسماء مستعارة لليهود بصفة أولوية. ولم يتم إخبار الداي لا من طرف التّجار ولا من طرف القنصل الفرنسي دوفال عن الإجراءات التي كان عليه أن يتخذها للمحافظة على حقوقه؛ فاتهم دوفال على أنه متفق مع خصومه، وقد تم شراؤه من طرفهما.

طلب الداي حسين، إثر غضبه من موقف القنصل الفرنسي دوفال، من الحكومة الفرنسية أن تستدعيه ولكن بدون جدوى كما أنه وبخه كذلك على أنه ترك ابن أخيه، نائب القنصل في عنابة، يشيّد تحصينات عسكرية وتنصيب مدافع في مراكز عنابة والقالة (تحت ذريعة التنازل لبرج فرنسا، وهو تنازل كان

بحوزة فرنسا لصيد المرجان). فقام الداي بتدمير كل التحصينات. لم يستدع القنصل الفرنسي من طرف حكومته بل أحسن من ذلك فإنه كلف بالتدخل لصالح الدول الرومانية، وذلك خلافا للتقاليد الديبلوماسية الفرنسية.

إن مشهد ضربة المروحة وقع يوم 29 أفريل 1827. لقد استقبل دوفال عشية يوم العيد الصغير في الديوان الذي لم يستقبل فيه منذ أكتوبر 1826 فانتهز فرصة العيد الديني ليذهب إلى الحفلة التي يهديها الداي لصالح القناصلة الأجانب. وذهب الداي إلى جعله مسؤولا عن عدم جواب الحكومة الفرنسية على مراسلته الخاصّة بقضية بكري وبوشناق. وبعدما دفع دوفال الداي إلى أقصى حدوده بوقاحته في جوابه الذي يؤكد: "الملك والدولة الفرنسية لا يستطيعان الإجابة على رسائلكم" ويضيف "عبارات مهينة للديانة الإسلامية"، فضربه الداي ضربات خفيفة بالمروحة التي كانت في يده.

وضخّم الحادث "فالضربات الثلاثة العنيفة على الجسم بالمقبض" التي تحدث عنها دوفال هي من بنات خياله. فقد وجدت ذريعة، فغادر دوفال مدينة الجزائر قاطعا بذلك العلاقات الديبلوماسية. ورغم توضيح الداي أن تلك الحركة لم تكن مُوجهة ضد الحكومة الفرنسية ولكن ضد دوفال النّصاب، فإن الأسطول الفرنسي وصل أمام مدينة الجزائر يوم 11 جوان 1827 وسلّم إنذار للداي الذي طلب منه أن يقدم اعتذارات بواسطة وفد رسمي وأن يرفع العلم الفرنسي على القصبة والقلاع الرئيسية وتحيته بمائة طلقة مدفعية. ثم عليه أن يتخلى

عن ديون بكري وبوشناق. فرفض الداي ذلك الإنذار المهين.فأعلن رئيس الأسطول والقنصل عن حصار مدينة الجزائر فرد الداي على ذلك بتهديم مؤسسات فرنسا في عنابة والقالة. إن الحصار قد أتعب البحرية الفرنسية وظهر أنه غير مجد، لأن الرياس الجزائريين كانوا يخترقونه بسهولة. فتأثرت تجارة مرسيليا كثيرا بذلك الحصار. فحمل ذلك الفشل فرنسا على التفكير في التدخل العسكري.

الحملــة الفرنسيــة ونتائجهــا

كانت الحملة التي يقودها المارشال دوبرمون تعد 37000 رجل من بينها 31000 من المشاة قد تم إبحارهم من تولون على ظهر 675 سفينة مع مؤن لأربعة أشهر. وفي يوم 14 جوان 1827[1] بدأت عمليات الإنزال في سيدي فرج. فالجيش الجزائري تحت قيادة الآغا إبراهيم، صهر الداي حسين كان فيه 7000 انكشاري و40000 متطوع جاؤوا من القبائل وناحية وهران وقسنطينة. فقام إبراهيم بهجوم يوم 19 جوان انطلاقا من معسكر سطاويلي ضدّ رأس الجسر الذي وضعه الفرنسيون. ولكن هذا الهجوم قد فشل فهرب الجيش الجزائري وتم الإستيلاء على معسكر سطاويلي من طرف الفرنسيين. وحاول مصطفى بومزراق الذي خلف الآغا إبراهيم الذي تمت تنحيته من القيادة، بعض الهجومات المضادة ولكنه لم يستطع إيقاف سير دو بورمون نحو مدينة الجزائر. في 3 جويليا تم الجلاء من قلعة السلطان كلاسي (فورلامبرور) وهكذا صارت مدينة الجزائر تحت رحمة الفرنسيين.

---

1) هذا التاريخ هكذا في الأصل والصحيح أنه 14 جوان 1830 كما يثبت ذلك في السياق (حسب المترجم).

كان الجزائريون منقسمون حوْل الموقف الذي يجب اتخاذه. كانت السلطات الدينية والداي وجزء من حاشيته المباشرة مع حل المقاومة. وكان الخزناجي وبعض التجار والملاكين الكبار يميلون إلى المفاوضة مع الفرنسيين وانتهوا إلى فرض وجهة نظرهم. وفي يوم 5 جويليا 1830، تم التوقيع على المعاهدة التي تكرس سقوط مدينة الجزائر.

إن هذه المعاهدة تضمنت استسلام القصبة والقلاع، وتضمن للداي حريته وامتلاك جميع أمواله الشخصية. واستفادت المليشيا كذلك بنفس المزايا. كانت المعاهدة تؤكد : "ستكون ممارسة الدين الإسلامي حرّة كما أن السكان من كل الطبقات لا يتعرضون لأي إزعاج لا في دينهم ولا في ممتلكاتهم ولا في تجارتهم ولا في صناعتهم".

فبمجرد دخولهم في مدينة الجزائر استولى الفرنسيون على الكنز المقدر حسب دو بورمون بـ 80 مليونا من القطع الذهبية والفضية و20 مليونا من المواد. وابتداءً من 6 جويليا استولى المنتصرون، بدون مراعاة المعاهدة، على الديار والدكاكين والمساجد ونهبوا العديد من الممتلكات في الضاحية. لقد تم دك أحياء بأكملها. ونزعَ سلاح الانكشاريين وطردوا ونفي الداي إلى نابولي (في إيطاليا).

لقد كان سقوط مدينة الجزائر مدهشا خاصّة وأنها كانت مدينة محصنة قد واجهت العديد من المهاجمين. والأسباب لذلك عديدة وهي في بادئ الأمر داخلية : سوء تقدير القوات

الفرنسية، وقوة مدفعيتهم التي اعترف بها إبراهيم منذ اليوم الأول وضعف برج مولاي حسن الذي بني بمواد فاسدة وهو موضوع تحت رحمة المدفعية التي تموقعت على المرتفعات المحيطة به. ونضيف إلى كل ذلك عدم ثبات الأعيان الجزائريين الذين فضلوا المفاوضة مع الفرنسيين على التعبئة العامّة تحت إشراف المفتي والمقترحة من طرف الداي.

إن عزلة الريجانس على المستوى الدولي تشرح كذلك جزئيا سقوط مدينة الجزائر. حاولت إنجلترا، باستنكارها للتدخل الفرنسي في الريجانس، أن تمنع الحملة ولكنها، بعد سقوط الجزائر، أرادت الحصول على ضمانات مكتوبة. فتدخلت لدى إسطنبول لترسل إلى الجزائر أحد أعيان الدولة للحديث مع فرنسا. فأرسل بالفعل طاهير باشا من طرف إسطنبول ولكن الحصار الفرنسي منعه من الوصول إلى مدينة الجزائر. فاستسلمت انجلترا للأمر الواقع خاصّة وأن رأيها العام وديونها تحتم عليها سياسة سلمية. أما إسبانيا، المرتبطة بانجلترا، والتي كانت لها رغبة في المحافظة على مزايا معاهدة التجارة الموقعة مع الداي، فإنها عارضت الطلبات الفرنسية باستعمال موانيها وتأسيس مستشفى عسكري في الباليار. أمّا روسيا فإنها صرحت "أنها ترى بكل سرور أن تحافظ فرنسا في الجزائر على مؤسسة قوية لتضمن بذلك إلى الأبد أمن الملاحة في المتوسط. وفيما يخص بروسيا فإنها نصحت فرنسا بطلب تعويض ترابي والبقاء بصفة نهائية في البلاد. أما دول الشمال وخاصّة السويد فإنها موافقة على الاحتلال الفرنسي.

ومن جهة أخرى فإن الجزائر لم تستفد من التضامن المغربي. فقد تعهد الباي التونسي حسين تجاه الفرنسيين أنه سيكون محايدا (1828). وقد عبر عن تمانيه لفوز السلاح الفرنسي. كان غائرا من الداي وكان يتمنى توسيع ترابه أو حتى خلافة أخيه للداي. لهذا فإن الباي قد سهل تموين الحملة ومنع الجنود الأتراك من الذهاب لإغاثة مدينة الجزائر بل ذهب به الأمر إلى تهنئة بورمون. ومع هذا فإن الرأي العام التونسي كان موافقا ومؤيدا للجزائريين. أمّا السلطان مولاي عبد الرحمان، فإنه كان لا يعتقد أن فرنسا ستغزو الجزائر، فضمن حياده لفرنسا (مايو 1830) وسمح للفرنسيين بالتموين في موانيه. والشعب المغربي فيما يخصه فإنه كان معاديا للتدخل الفرنسي، وإن الرأي العام المندهش كان يأمل في تدخل إنجليزي أو الاستيلاء على مدينة الجزائر من طرف جيش مكون من 80000 رجل تحت قيادة الطريقة التجانية.

إن سقوط مدينة الجزائر قد أدمى قلوب الجزائريين والشاعر يشهد على ذلك وهو يطلب البارود والبنادق :

"مزغنة، من يشفي جروحك ؟

"سأعطي لمن يفعل هذا حياتي،

"لمن يغلق جراح قلبي

"ويطرد المسيحيين بعيدا عن جدرانك.

"يا نار قلبي، إنهم يدمرون المساجد

"أين هو المؤمن الذي يساوي عشرة رجال والذي يرفع ذراعه المنتقم

"ويرفع رمحه ويتمنطق بسيفه

"ويفرقع البارود ويعمر البنادق ؟"

إن سقوط مدينة الجزائر لا يعني احتلال كل القطر الجزائري، ولم يتم توقيع أي اتفاقية فيما يخص مستقبل البلاد.

إن سقوط مدينة الجزائر كان نقطة البداية للمقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي. لقد كانت المقاومة الجزائرية منذ بداية الإنزال مقاومة شرسة. فقد اعترف دوبرمون في تقريره بين 14 جوان وأول سبتمبر، أن الجيش كان تعداده 35000 رجل ولم يعد فيه إلاّ 28975. وفي معركة سطاويلي فضل العديد من الجنود الجزائريين الموت على الاستسلام.

ما يقرب من عشرة آلاف جزائري رفضوا البقاء في مدينة محتلة وتركوا ممتلكاتهم والتجأوا إلى المدن الداخلية.

أمام الخطر، اجتمع ممثلو القبائل يوم 23 جويليا في برج تمنفوست، غرب رأس ماتيفو وقرروا ردّ الفعل على احتلال مدينة الجزائر بالمقاومة بدون هوادة ضد الفرنسيين. وأرسل محافظون إلى كل مناطق الجزائر للإعلان عن بدء الجهاد.

بقيت الجزائر الجزائرية حيّة سواء في الجزائر التي كانت مستقلة والتي كانت المقاومة فيها تكافح إلى غاية الإنهاك أو في الجزائر المحتلة حيث العقيدة الإسلامية والوطنية كانت تدعم كل أشكال المقاومة السياسية.

نصـــوص

أسبـاب الحملـة

عرض كليرمون - تونير، وزير الحرب في سنة 1827، في تقرير للملك، الأسباب التي من شأنها أن تدفع فرنسا إلى القيام بحملة ضد مدينة الجزائر.

- الانتقام للإهانة التي تعرض لها القنصل الفرنسي "شاء القدر أن يتم الاعتداء على جلالتكم بكيفية عنيفة في شخص قنصلكم، من طرف أعدى أعداء الإسم المسيحي. لم يكن يا سيدي دون أن تكون هناك نظرة خاصّة سيدي، لينادي القدر ابن سان لويس إلى الإنتقام في نفس الوقت للدين وللبشرية ولشتائمه الخاصّة. وبالفعل، ففي أي الظروف الأكثر ملاءمة لمرامي جلالتكم، تستطيع هذه الحرب أنّ تندلع" ؟

- تنظيم الجيش وإهدائه المجد ؛

- "إن أوربا تعيش الآن في السلم ؛ ولكن هذا السلم قدْ استمر منذ عودة المملكة وإعادة السعادة لفرنسا، وتهيأت عناصر للإنفجار قد تستطيع إشعال اللهب بصفة مفاجئة وفي أيّ جهة من جهات أوربا. الشيء الذي يلائم جلالتكم أن تجدوا السبب لتنظيم جيش، وتجدون في هذا الظرف سببا صحيحا ومناسبًا.

وبالتالي فإنه ليس من المفيد أحيانا أن نذكر فرنسا بأن المجد العسكري يكتب له البقاء بعد الثورة وأن الملكية الشرعية لا

تضمن البلاد فقط من الغزو الأجنبي، ولكنها تعرف أيضا أن تجعل أعلامنا ترفرف في المناطق البعيدة."

- الاستيلاء على كنز الجزائر :

"لا أتحدث عن الكنوز التي تراكمت في قصر الداي في مدينة الجزائر : إنها تقدر بأكثر من 150 مليونا وقد يستحيل عليه أن يخرجها من الحصار لأنه لا يستطيع حملها بالبحر بسبب الحصار ولأنه لا يستطيع حملها برّا دون أن يتعرض للنهب من طرف سكان البلاد أنفسهم وأخيرا لأن ثورة قد تندلع فورا بين الميليشية وأن حياة الداي نفسها تكون مهددة إذا وقعت إجراءات لمثل هذا العمل".

- الاستيلاء على ثروات الجزائر :

"إن جزءا كبيرا من مساحتها الهائلة يتكوّن من سهول ذات خصوبة عجيبة. وفي الجبل هناك غابات الصنوبر والبلوط صالحة للصناعة البحرية. يتم فيها استغلال مناجم الحديد والرصاص التي هي غنية جدّا ومنتوجاتها ذات نوعية ممتازة ؛ هناك جبال من ملح المناجم والملح وملح البارود كلها مواد موجودة بكثرة على سطح الأرض. إن الشواطئ تعطي ملاحات ذات ثراء عظيم. إن الجوّ نظيف وهو تقريبا مثل جو إسبانيا. فالبرد تقريبا مجهول والحرارة ليست قاسية، على الأقل في الشواطئ. إن السكان لا يتجاوزون مليوني نسمة (2) وتستطيع البلاد أن تضمن العيش لعشرة ملايين. وأخيرا إن أغلب الأراضي وخاصّة الأراضي الخصبة هي ملك للداي والأتراك المهيمنين

على البلاد، هناك أراض ونحل لمن تريدون مكافأتهم وإثرائهم ؛ ولكن حيث يمكنكم تأسيس مستعمرات عسكرية حقيقية حيث تستطيع فرنسا أن ترسل الفائض من سكانها وذلك لفترات طويلة. وتستطيع لاسيما أن تنتج كميات هائلة من القمح ولكن قمحا ذا نوعية جيدة ولكن ترى كذلك نمو كمية كبيرة من النباتات الاستعمارية وتستطيع أن تسمح لفلاحة كل النباتات التي نريد نقلها إليها ؛ حيث يزدهر قصب السكر وحيث ينمو نوع من النيلة التي نستطيع تحسينها أو تعويضها بسهولة بنيلة الهند".

ضربـــة المروحـــة

حسب ما حكاه الداي حسين لضابط فرنسي

"دوفال تموقع نفسه جيدا في ذهني. كان ماهرا، وأنا قليل الحذر. لقد وثقت في إخلاص صداقته. وصار مألوفا لديّ وعلمت من أحد ضباطي أنه يقال في الحاشية عمُوما أن حميمية مثل هذه مع رجل من نوعه سيكون لها خاتمةٍ سيئة. وفي نهاية رمضان، جاء دوفال ليقوم بزيارة رسمية، حسب الأعراف. فاشتكيت له أني لم أتسلم جوابا عن أربع رسالات مكتوبة منّي إلى ملك فرنسا ؛ فأجابني، أتعرفون لماذا؟" إن الملك له أشياء أخرى كثيرة يقوم بها عوض أن يكتب إلى رجل مثلك". إن هذا الجواب الفظ قد فاجأني. إن الصداقة لا تسمح بقلة الأدب. كنت شيخا يجب احترامه ثم كنت دايا. فقلت لدوفال أنه ينسى نفسه بغرابة. فواصل في حديثه القاسي والمؤذي.

فأردت أن أفرض عليه السكوت ولكنه تمادى. "اخرج أيها البائس". ولكن دوفال لم يبال بي ومكث، إلى درجة أني لم أتمالك فضربته بمروحتي على وجهه احتقارا له، هذه هي الحقيقة كلها. وهناك الكثير من الشهود على هذا المشهد الذين يستطيعون أن يقولوا إلى أي درجة تمت استشارتي والصبر الذي تحليت به لتحمل كل تلك الشتائم من ذلك القنصل الذي أهان البلد الذي يمثله". أ.جال، تفاصيل عن حسين باشا داي مدينة الجزائر، في مجلة باريس : 1831.

دخول الفرنسيين في مدينة الجزائر

من كلام الشيخ عبد القادر (استلم الكلام : ديسبارميت)

مقتطفات : ألم المسلمين

"يا للأسف ! أين مزغنة (مدينة الجزائر) - سلطانة كل المدن،- إنها الآنَ في يد أعدائنا.

"إنها وقعت في سلطة المسيحيين ذوي العبادة البشعة !

"احتلوها بدون حرب، أخذوها، الكلاب - نهبوا كنوزها، أولئك الشياطين.

"يا من يسمع الدعاء في الليل، إن الإسلام في الصلاة يطلب منك :

"أن يجد عبادك السلم وأن تنتهي كل الأحزان، لِيَنْته الاضطهاد الذي أرهق المسْلِمين ! لنبك على رجال الإفتاء والقضاء، وعلى

علماء المدينة أنوار الدين، لنبكِّ على المساجد وخطبها وعلى كراسي الرخام المرتفعة، لنبك على الصوامع ونداء مؤذنيها ودروس أساتذتها وحفّاظها للقرآن. لنبك على مصلياتها التي أغلقت أبوابها والتي سقطت اليوم في طي النسيان، نعم سيدي في طي النسيان. يا للأسف ! أين هي التحف الثمينة للمدينة وأين هي ديارها؟ - أين هي شققها السفلى وغرفها العالية للخدام المخصيين؟ - لم تعد إلاّ بطحاء واختفت آثارها ؟ إلى أيّ درجة يريد هذا الملعون غيظنا ! استقرّ الفرنسيون في المدينة وتغير مظهرها. ولم تر إلاّ البشاعات. دار الانكشاريين ! لقد مسحوا جدرانها واقتلعوا رخامها المنحوتة والشبكات الحديدية التي كانت تغلق النوافذ، قد أرجعهم الكفار أعداء الدين قطعا. وقد سموا القصرية "بطحاء"، تلك القصرية التي كان يوجد فيها الكتب ومجلداتها. والجامع العظيم الذي كان بجوارها قد هدموه وذلك ليؤلموا المسلمين".

شهادة حمدان خوجة على سقوط مدينة الجزائر

يشير حمدان إلى عدم كفاءة صهر الداي، إبراهيم آغا، وهو رجل ليس له أي معرفة بالفن العسكري وأراد أن يحارب الفرنسيين بدون جيش منظم وبدون ذخيرة وبدون مؤن وبدون شعير للخيل ودون أن تكون له الكفاءة الضرورية للقيام بالحرب".

فبعد هزيمة سطاويلي استدعى الباشا المفتي شيخ الإسلام، وسلمه سيفا وأوصاه بأن يدعو الشعب للدفاع عن البلاد.

كان شيخ الإسلام رجلا عادلا ومليئا بالأخلاق الفاضلة ولكنه بعيد كل البعد عن أن يكون محاربا في وقت حرج مثل هذا. يستحيل عليه أن يقود جيشا وأن يرد العدوّ".

قرر الأعيان المجتمعون في قلعة باب البحر أن يتعاملوا مع الفرنسيين وأرسلوا نوابا عنهم إلى الداي. هذا الأخير كان قد استرسل وفي يده مسدس نحو مخزن البارود بنية إضرام النار فيه، وفي نهاية الأمر قبل اقتراح الأعيان وأرسل معهم كمفاوض المكتاجي مصحوبا بقنصل انجلترا وسيدي أبو دربه وحاجي حسن (ابن حمدان) كمترجم. إن المكتاجي اقترح على دو بوردمون أن يحمل له رأس حسين باشا. ورفض بورمون.

شهادة الحاج أحمد أفندي على سقوط مدينة الجزائر

الحاج أحمد أفندي، من مواليد مدينة الجزائر، وهو المفتي بها زمن الاجتياح الفرنسي، انتهى كحاكم (قائم قام) لألغا في الأنظول حيث مات 1861.

الشهادة الوحيدة التي كتبها جزائري عن الحملة

الحاج أحمد أفندي أكد حادث المروحة وقبول الداي للاستسلام ولكنه يشير: "وفيما يخصني، وبما أنني لم أستطع أن أقبل ذلك، فقد جمعت حولي المسلمين المتقين وبعدما شرحت لهم مقدار المجد الذي يتم الحصول عليه بالشهادة وما هو الثواب المخصص لمن يعرفون التفاني في سبيل الله، فإني طلبت منهم أن يتبعوني (ضد العدو). وبالفعل فإنهم تابوا إلى الله وبعد أن تسامحوا على أخطائهم انطلقوا في المشي ورائي

وهم يكبرون (الله أكبر). فاعترضنا النسوة ورمين أولادهن أمامنا حفاة وهن يصحن: "هذا جيّد إذا انتصرتم وإلاّ فإن الكفار سيهينوننا. اذهبوا إذن ولكن قبل أن تذهبوا اقتلونا. بينما كنت أهدّئ النساء أرسل الباشا وقال لي: "اعرف يا ولدي أني عصيت ملكنا الذي لم يرخص لي بأن أفعل ما فعلت. ولهذا فإني سقطت. وهذا هو مصير كل الذين يخالفون أولياء نعمتهم". فإني أوصلت هذه الكلمات للجنود وأفهمتهم بأن الخليفة معارض للحرب وهكذا فإن الدين يأمرنا بألا نواصلها.

أحمد أفندي قد تحصل على الذهاب الحر لمن يريدون مغادرة مدينة الجزائر والتعهد بالأمان لمن يريدون البقاء. ووصل أخيرا إلى القسطنطينية: "وأخيرا أنا هنا مع من هاجروا في هذا الاتجاه. ومع هذا فإني حيثما اندلعت الحرب المقدسة "فإني سأذهب إليها. وحقيقة، إني سأذهب إليها ولن أتوقف عنها إلا بتوقف حياتي. نرجو الرضا من الله أن نكون على هذه الشاكلة".

تم الحصول على هذه الشهادة من طرف أتّوكار دو شلاشطة.

مقتطف من الجريدة الآسيوية رقم 11 من سنة 1862.

الفصل الثاني

تجاوزات المحتل واحتجاجات الأعيان بعد سقوط مدينة الجزائر

فأمام منهجيات الاحتلال والإدارة من طرف الفرنسيين وخاصّة السلطات العسكرية التي لم تحترم الوعود المسجلة في المعاهدة الموقعة من طرف دوبرمون وأمام المبادرات الاستعمارية التي تهدد كل البلاد، أجاب الجزائريون بتنظيم المقاومة التي كانت تندد بالتجاوزات وتنادي بالكفاح المسلح في الجزء الأكبر من الجزائر التي بقيت مستقلّة.

تجاوزات الجنرالات الإرهابيين

لقد أخل العديد من الضباط الفرنسيين بالكلمة التي أعطاها المارشال دوبرمون فيما يخص احترام الأشخاص والممتلكات.

إن الفرنسيين قد استولوا على الكنز الجزائري (51.700.000 فرنك ذهبي) وطردوا 1300 انكشاري أعزب وابتداء من جويليا 1500 من أعضاء الميليشيات المتزوجين وعائلاتهم الجزائرية. وفي سبتمبر 1830، تم احتجاز ممتلكات المطرودين وأملاك الأوقاف ؛ وتم احتلال الزوايا والمساجد لجعلها سكنات للجنود. أمّا الضباط فإنهم أعطوا المثال بإقامتهم في الديار الجميلة للأعيان دون أن يدفعوا أيّ تعويض على ذلك لأولئك الأعيان. يشير حمدان خوجة إلى سلوك الجنرال (ك) (وهو يقصد بدون شك كلوزيل) عضو في غرفة النواب وهو ليبرالي في باريس

ودكتاتوري في مدينة الجزائر والذي جمع ثروة. إن هذا الجنرال، قد أقام في حديقة علي آغا وكان يتلقى من الحكومة مبلغا مرتفعا للكراء ولكنه لا يعطيه - أو على الأقل جزءا منه - لصاحب الملك المسلم. إن ذلك الجنرال "كان لا يخشى أن يقدم اقتراحا بالقضاء على الجزائريين بعد نفيهم وتجريدهم من كل ممتلكاتهم".

إن أغلبية الضباط الفرنسيين كانوا يرون أنه يجب حكم الجزائريين بالقوة والترهيب وأن الغزوات ضد القبائل المشاغبة وحتى القضاء عليها نهائيا كان ذلك هو الوسيلة الفعالة لمحاربة العرب. لنَذْكُرْ بعض الأمثلة: سافاري، دوق دوروفيغو، الذي صار قائدا عامّا، أراد قبل كل شيء احتلال مسجد كاتشاوة وضغط علي المفتي الذي كان يرفض أن يعطيهم موافقته بتهديده بالتوقيف. رفض روفيغو مسجد المسمكة (الجامع الجديد) الذي اقترح عليه وصاح:

"لا أريد، أريد أجمَل مسجد. نحن الأسياد، نحن المنتصرون".

وعندما رأى المتظاهرين الجزائريين، أعطى روفيغو الأمر (17 ديسمبر 1831) باحتلال المسجد من الغد. وقد تمّ ذلك وعلق الصليبَ والعلم الفرنسي في الصومعة. ما يقرب من 4000 مؤمن كانوا داخل المسجد. إطلاق نار وتزاحم وفرار، كانت هذه هي أول تظاهرة رسمية للمسيحية في الجزائر. ولم يرتفع أي احتجاج من طرف الكاثليك على هذا الحدث. أما البابا فقد كان راضيا وأرسل أوسمة سان غريغوار الكبير إلى الذين قاموا بهذا الاحتلال. إن روفيغو يحمل في شخصه مسؤولية إبادة

قبيلة أوفية قرب الحراش، متهما إياها بأنها كانت مسؤولة عن السرقة التي تعرضت لها سفارة رئيس الزيبان الذي طلب تدخلا ضد قسنطينة. فقرر روفيغو إبادة كل أعضاء القبيلة دون أن يكون له أيّ دليل. ما يقرب من مائة شخص أعدموا وتم احتجاز أنعامهم (5 أفريل 1832). لقد حكم على شيخ القبيلة بالإعدام وتم التنفيذ ووضعت رؤوس الضحايا على رؤوس رماح الفرسان وتم التجوال بها في مدينة الجزائر. سرقت كل أموال القبيلة. ويقول حمدان خوجة أن الدوق روفيغو قد ترك القيام بجرائم بشعة: تم تقتيل نساء وأطفال وقطع آذان للاستيلاء على الحلقات المعلقة بها وكل تلك الجرائم ليس الهدف منها إلاّ الطمع والنهب. إن مثل هذه البشاعات قد أهرقت دموعا من الدم". وهناك ضابط آخر إرهابي وهو الجنرال بوايي الذي كان مشتهرا بالتسلط وبعدم الشفقة وكانت تعابيره تجاه الجزائريين: "القيام بضربات مرهبة تفجع... السيف! هذا هو القانون الذي يجب أن نفرضه عليهم". في سنة 1832 في منطقة وهران قطع رأسي مغربيين متهمين بالتجسس بناءا على وثائق مزورة وشنق أيضا أربعة صيادي سمك بتهمة أنهم باعوا البارود. وقطعُ رأس جزائري لأنه نشر أخبارا لصالح المقاومة. بالنسبة لبوايي فذلك أحسن وسيلة لمنعه من الكلام.

يوسف وهو من جزيرة آلب أو يهودي مرتدّ، لا ندري شيئا عن هذا، قد تمت تربيته في حاشية باي تونس واعتنق الإسلام وصار مسلما. وفي سنة 1830 وجدناه مترجما في الحملة الفرنسية ثم نقيبا. كان رؤساؤه من الضباط يحذرون منه كثيرا أو على الأقل

إلى غاية شهر مارس من سنة 1832 حيث صعد مع النقيب آرماندي الربوة التي تسمح بالدخول إلى قصبة عنابة. استطاع الكمندوس الفرنسي أن يستولي على الحصن ؛ وبن عيسى خليفة قسنطينة والذي فتحت له المدينة أبوابها، تخلى على الاستيلاء على القصبة وأفرغ المدينة من سكانها. فقام يوسف بعدة غارات لصالحه و"قتل النساء والأطفال والشيوخ". وفي تحقيق في أغسطس 1832 يشير : يوسف كان يقطع الرؤوس لأدنى شيء ويضربهم بالعصي". إن جنود يوسف كانوا يلقون القبض على العرب الذين يتقدمون أمام باب المدينة ويقتادونهم إلى رئيسهم الذي كان عليهم أن يركعوا أمامه. ويوسف بدون أي حكم يأمر بالسجن والضرب بالعصا. إن دسائسه وطموحه الشخصي، ونهبه والترهيب الذي ينشره... كل هذا قد ندد به الدوق روفيغو نفسه. وواصل يوسف أعماله دون أن يقوم بأيّ تقرير.

لقد كان هناك ضباط، حتى لو كانوا من أنصار الاستعمار إلاّ أنهم احتجوا ضد تلك التجاوزات لأولئك الضباط. وهكذا فإن بيشون وهو مكلف بإدارة مدينة الجزائر، كان يريد أن يؤخذ في الاعتبار حضور سكان من 2 إلى 3 مليون نسمة، يمتلكون منذ قرون بلدا شاسعا خصبوه منذ قرون بأعمالهم... لست موافقا مع رأي الذين يريدون تسيير الجزائر وكأنها أرض شاغرة لا مور فيها ولا قبائل.

لقد استنكر راينود دو بيليسي التعذيب الممارس من طرف الدوق روفيغو. والجنرال بيرتيزان قد اعترف رسميا بالنهب الممارس : "لم نأت هنا إلا لنهب الأموال العمومية والخاصّة، لقد

توصلوا بوقاحة أن يقترحوا علي أن أفعل أو أن أترك من يفعل وأن يكون لي ثقلين ووزنين، وأن أترك سرقة السكان لأن ذلك كله دراهم ستدخل إلى فرنسا، وأخيرا أن نحتم على السكان الهجرة من البلاد للاستيلاء على سكناتهم وممتلكاتهم دون أي إزعاج".

وفي تلمسان كلف يوسف باقتطاع ضريبة الحرب لدى القراغلة. وبما أن السكان كانوا فقراء، أسس يوسف القبض بواسطة التعذيب الجسدي وعندما يقتضي الحال بالضرب بالعصا ولم يتردد في قبول مجوهرات النساء. كما كلف يوسف بجلب قبائل منطقة قسنطينة إلى الفرنسيين. فجعل يوسف البايلك في خدمته، وهو يعيش عيشة دعارة في وسط حاشية صغيرة وهو مؤسس سلطته على الترهيب والنهب وابتزاز أموال القبائل ونسائها. خربت البلاد. ولهذا فالعديد من الضباط والباي أحمد نفسه ينسبون فشل الفرنسيين أمام قسنطينة سنة 1836 إلى الأعمال الشنيعة التي قام بها يوسف في تلك الناحية. أما بليسي دورينود فإنه يرى أن يوسف مغامر يقال إنه تركي تفرنس وأنه طفل من أبناء ليفورن : "يوسف مبتز تلمسان، يوسف مغتصب قبائل عنّابة، وصاحب فشلنا في قسنطينة، يوسف الملطخ بالدم والسرقات، هو الرجل الذي يثير الاشمئزاز لدى الأشخاص النزهاء". ولم يتم إزعاج يوسف وقد انتهى لواء وصليبا أكبر لجوقة الشرف.

قد استنتجت اللجنة التي كلفها الملك بحصيلة الوضعية في الجزائر في تقريرها لسنة 1833 \ "لقد تجاوزنا الوحشية في بلاد البربر الذين جئنا لتمدينهم ونحن نشتكي من عدم النجاح".

المحاولات الاستعمارية للتوسع

لم يكتف الفرنسيون باحتلال مدينة الجزائر. لقد أرادوا كسر المقاومة الجزائرية التي بدأت تنتظم في المتيجة فأرسلوا رتلا إلى البليدة (17 نوفمبر 1830) محطمين كل شيء في طريقهم، وارامين بالرصاص كل جزائري يلقونه مسلحا. وبعد البليدة توجهوا إلى المدية التي احتلوها يوم 22 نوفمبر 1830. ولكن هذين الانتصارين لم يكن لهما مواصلة، فقد أرغمتهم مقاومة السكان على الجلاء من المدينتين. وكان هذا انتصارا للجزائريين: لم يستطع الفرنسيون وضع باي الطيطري تحت سلطتهم فبومزراق الذي قبل الاستسلام ولكنه أمام التجاوزات الفرنسية في المتيجة فإنه استعاد حريته وصار ولده أحد رؤساء المقاومة. إن كلوزال الذي تخلى عن البقاء أخيرا في المدية والبليدة وحاول أن يضيف لنفسه شهرة باحتلال مرسى الكبير (14 ديسمبر 1830) ووهران (4 جانفي 1831). ثم أرسل بيرتيزان حملة جديدة إلى المدية (1831 جوان) وأراد أن يذهب بعيدا نَحْوَ الجنوب ولكن بدون نتيجة فرجع أعقابه. فقد أتعبه الجزائريون بالمناوشات عند نزوله من ممر موزاية. إن انتصار المدية قد أعطى الشجاعة للقبائل، الشيء الذي أدى إلى هجومات جادّة باتجاه الجزائر، قام بها بومزراق وبن زعموم. إن المقاومة أخذت من جديد الثقة في نفسها. لقد جرى اجتماع هام بين قادة جزائريين في خربة جندل (ناحية مليانة). فسلطان المغرب مولاي عبد الرحمن قد فهم إرادة المقاومة من طرف الجزائريين وعين محمد بلحمري شيخ قبيلة بني حسن

الذي دخل تلمسان. وأرسل أعوانا للدعاية في مليانة والمدية. وحاول بلحمري الاستيلاء على وهران.

" حاول الفرنسيون الذين كانوا مترددين في بداية الاحتلال الكامل للجزائر، شكلا من الإدارة غير المباشرة ولكن بدون جدوى لأن الرأي العام الإسلامي قد أفشل ذلك. وبالفعل فإن كلوزال حاول أن يضع على رأس بايلك وهران وبايلك قسنطية أميرين تونسيين يكونان مدينين له في مكان الباي حسن الذي بقي بدون سلطة والباي أحمد الذي اختار معسكر المقاومة ورفض أي مساومة مع فرنسا.

ومن ناحية أخرى عيّن كلوزال، في مكان الباي أحمد في قسنطينة الذي أسقط حقه، سيدي مصطفى أخ الباي حسين من تونس. إن الباي الجديد التزم بدفع جزية للفرنسيين وتخفيض حق الجمركة على تجارهم. ينبغي أن نلاحظ أن النصّ بالعربية يختلف عن الذي كتب بالفرنسية والذي يعطي حقوقا أكثر للفرنسيين. وفي ناحية وهران عين كلوزال ابن سيدي مصطفى. إن معاهدة 6 فبراير 1831 تبقي بين الباي الجديد لوهران وفرنسا نفس العلاقات التي كانت في السابق بين الداي والبايات. واحتفظت فرنسا بحقها في احتلال مرسى الكبير. وهكذا فإن كلوزال، بدون أن يخبر حكومته، قد أعطى نوعا من الاستقلالية لبايلك قسنطينة وشَكْلٍ من حُكومة غير مباشرة مع بايلك وهران. ولكن محاولتي كلوزال فشلتا بسبب مقاومة السكان وتردد سيدي مصطفى الذي لم يلتحق بقسنطينة ورفض باي وهران الجديد أن يدفع جزية أعلى من التي كانت تدفع لداي

البلاد. إن ثبات السكان ضد أي شكل من الهيمنة الاستعمارية يفسر بكيفية ما، تردد السياسة الفرنسية تجاه الجزائر التي بقيت مستقلة. وفي المناطق المحتلة، وخاصّة في مدينة الجزائر، ندد بعض الأعيان بالتجاوزات وحاولوا أن يجدوا حلاّ وسطا.

أنصار الحوار والحل الوسط من الجزائريين

كان العديد من الأعيان الحضر قد اقترحوا استسلام مدينة الجزائر لأنهم كانوا يظنون أنهم لن يستطيعوا الصمود كثيرا أمام الجيش الفرنسي. وبعد 1830، انضموا إلى الفكرة الفرنسية واستدعي البعض منهم ليكونوا أعضاء في بلدية مدينة الجزائر. استحسن بعض الجنرالات تعاونهم واعتبرهم البعض الآخر من ذوي الدسائس والأدوار المزدوجة. فالكثير منهم، فرّوا تحت وطأة عدم التفاهم وتجاوزات الدوق روفيغو واستوطنوا في باريس.

إن موقفهم حرج لأنهم منقطعون عن الرأي العام الإسلامي، وهم لا يرضون بالتخلي عن حماية مواطنيهم من التجاوزات التي تقوم بها السلطات الجديدة ولا عن اقتراح صيغ لإدارة عادلة لأنهم مشكوك فيهم من طرف الفرنسيين، فقد كان هؤلاء الأعيان هم أول الممثلين للإصلاح السياسي الجزائري.

ولتكون لدينا فكرة مضبوطة، سنقدم الشخصيتين الموريتين الرئيسيتين : حمدان خوجة وبودربة. والأكثر صرامة سي حمدان بن عثمان خوجة المولود سنة 1773، وقد عاش في مدينة الجزائر إلى غاية 1833. كان أبوه أستاذ فقه وأول كاتب

للمملكة (الريجانس) ؛ وكان عمّة الحاج محمد أمين السكّة، يعني مدير المالية. قام سي حمدان بعدة أسفار إلى اسطنبول وتونس وأوربا وخاصّة في فرنسا حيث أقام مدّة طويلة لينتهي إلى معرفة اللغة الفرنسية بصفة ممتازة. وفي سنة 1830، كان من بين الذين كانوا أنصار الاستسلام إلى الفرنسيين. فبفضل معرفته الممتازة للغة الفرنسية، كان سي حمدان يستعمل كوسيط بين السلطات الفرنسية وبعض القادة الجزائريين وعلى وجه الخصوص الباي أحمد في قسنطينة وقد اتهم في العديد من المرات بسوء النية سواء من طرف المسلمين أو من طرف الفرنسيين وهو حكم على الذين يبحثون عن الحلول الوسطية العادلة.

لقد نشر حمدان في أكتوبر 1833 مؤلفا عنوانه "المرآة" مترجم من العربية وعنوانه "نظرة تاريخية وإحصائية عن ريجانس "الجزائر". وأرسل نسخة إلى أعضاء لجنة إفريقيا المعينين في جويليا 1833 والمكلفين بوضع تقرير للملك عن الوضعية في الجزائر. وكانت تلك النسخة مصحوبة برسالة تشكل دفاعا حقيقيا عن القضية الجزائرية.

طلب حمدان من الفرنسيين أن يبقوا أوفياء إلى تقاليدهم من أجل الحرية. ألم يساعدوا البلجيكيين والإغريق على استرجاع إستقلالهم؟ إذا كان القدر قد وضع الجزائر تحت سلطة فرنسا، فهذه فرصة لفرنسا أن تظهر نفسها كبيرة شامخة وكريمة. إن النداء الموجه إلى الفرنسيين وإلى فرنسا متبوع بنقد لاذع لسلوك الفرنسيين.

"وُضعَ سكان مدينة الجزائر المساكين تحت نير الاستبداد والإبادة وكل آفات الحرب. كل هذه البشاعات يتم القيام بها باسم فرنسا وخاصّة الأعوان الذين مثلوها في مدينة الجزائر لأنهم قاموا بأعمال منافية للمبادئ الليبرالية وحتى مبادئ الحضارة الحقيقية والتي تلخص في مراعاة الأخلاق الكونية والعدالة نحو الضعفاء والأقوياء في نفس الوقت والمجهود المتواصل لضمان سعادة البشرية."

ويلومُ حمدان الفرنسيين على خرق بنود اتفاقية الاستسلام :

"لم يحترم لا الدين ولا عادات المسلمين ؛ أخذت المساجد عن المصلين وتم حجز الأملاك الدينية وفتحت القبور وبعثرت عظامها. ابتزاز الأموال وإراقة دم الرجال، القيام بالسلب والقتل، هذه هي الأعمال التي تقع في مدينة الجزائر. فأيّ دستور وأي قوانين لا إنسانية تعارض كل نظام اللامساواة والسلم. فأي ميثاق هو ميثاقنا. فالنفي والمصادرة يشكلان المادة 57 من هذا الميثاق. نستطيع أن نعتبر أنفسنا سعداء إن لم تأتنا مادة إضافية تكون هي إبادة الشعب الجزائري".

وإن ما يقترحه حمدان خوجة هو الجنسية الجزائرية، وحكومة جزائرية حرّة ومستقلة، "مدينة الجزائر للجزائريين".

إن الجنسية الجزائرية لها نفس الحقوق في الوجود مثل الجنسية البلجيكية أو الجنسية البولونية. فبلادنا لا ينقصها الجزائريون "المستنيرون" القادرون على تنظيم حكومة يختلط فيها بأسعد كيفية تقاليد الإسلام والمبادئ الليبرالية. ومثال مصر

يبرهن على أن أميرا مسلما وحده هو القادر على إدخال الحضارة الغربية في المشرق.

"وأتحدّى أيّ واحد أن يستطيع الإتيان بالدواء لمدينة الجزائر دون أن يستعمل إحدى هاتين الوسيلتين المشروحتين سابقا، أو الجلاء من البلاد والتخلي عن أيّ فكرة للاحتلال بتنصيب حكومة من الأهالي حرّة ومستقلة كما تمّ ذلك في مصر التي كان لها نفس الدين والتي كانت لها نفس الأعراف والاتفاق معها (الحكومة) على معاهدات يستفيد منها الشعبان. ستجد فرنسا بدون شك مصالحها أحسن من كون مدينة الجزائر تبقى مستعمرتها ؛ وإن مثل هذا العمل الكريم سيصفق له العالم بأسره."

يا لها من صيغة سياسية جريئة من جزائري معتدل غداة سقوط مدينة الجزائر. لم نجد هذا عند أعياننا المنتخبين إلا بعد الحرب العالمية الثانية.

كان أحمد بودربة أكثر اعتدالا وهو تاجر قد أقام في مرسيليا ويعرف جيدا اللغة الفرنسية. كان ضمن الذين ذهبُوا يوم 4 جويليا 1830 إلى المقر العام الفرنسي ليقدموا استسلام مدينة الجزائر. وبعد احتلال المدينة عين رئيسا للبلدية وفيما بعد وكيلا لممتلكات مكة والمدينة. ثم قرر الدوق روفيغو طرده معتبرا إياه متآمرا وقائدا "للجنة المور" التي تحضر لعودة المسلمين.

انسحب بودربة إلى باريس وسلم إلى لجنة إفريقيا مذكرة يقترح فيها حلولا للتفاهم بين المنتصرين والمهزومين وعلى أن يسلك الفرنسيون سلوكا عادلا ومعتدلا ومتسما بالصبر.

واقترح بودربة الإجراءات التالية :

- إحداث مجلس استعماري كبير ويكون فيه عضو مسلم له صوت استشاري.

- بلدية يكون فيها خمسة مسلمين (إلى جانب ثلاث فرنسيين ويهوديين) يتم اختيارهم من بين 60 من الأعيان كما أن بودربة قد وضح كيفية عمل البلدية والقواعد الإدارية للمدينة.

- وفيما يخص العدالة، اقترح بودربة تنظيم محكمة ملكية في مدينة الجزائر يكون فيها مسلم من بين 15 عضوا. وطلب أن يضاف إلى القاضيين (الفرنسيين) المنصبين في مدينة الجزائر قاضيين مسلمين يتم اختيارهما من بين عدول القاضي. وفيما يخص القضاء الإسلامي، اقترح قاض مالكي وقاض حنفي ويساعد كل قاض 8 عدول وباش عادل ومفتيان (واحد مالكي والآخر حنفي).

- وفيما يخص إدارة داخل البلاد، اقترح بودربة تعيين مدير يساعده ملازمان مسلمان. وسيكون لهذا المدير قوة عسكرية مركبة من ألف سبايس، ولجعل المسلمين من جهتهم اقترح بودربة أن يلبس الجنود مثل المسلمين. ونصح أن يطلب من كل قبيلة خاضعة أن تعطي كضمان أربعة من أبناء الأعيان قد يتم التعامل معهم بكيفية جيدة وأن تتم تربيتهم في مدينة الجزائر) وأحد الأعيان. فالمدير يعين القياد. وينصح بودربة أن يتم التعامل مع القبائل الخاضعة جيّدا لضمان أمنها وذلك قصد

حمل القبائل المترددة والثائرة على الخضوع. أعطى بودربة نصائح من أجل إدارة جيدة لممتلكات الحبوس ويوصي خاصّة باحترام الأعراف والدين.

لم تأخذ السلطات الفرنسية بعين الاعتبار مقترحات أولئك الأعيان. لم يبق للجزائر المستقلة إلا صيغة واحدة من المقاومة : الجهاد والكفاح المسلح ضدّ الكفار المحتلين للجزائر.

وبقيت الجزائر الجزائرية حيّة سواء في الجزائر التي ما زالت مستقلة حيث المقاومة المسلحة تجارب إلى غاية الإنهاك أو في الجزائر المحتلة حيث العقيدة الإسلامية والوطنية والقيم التقليدية ومختلف الجمعيات والتجمعات العصرية دعمت كل أشكال المقاومة السياسية.

نصـــــوص

مقتطف من رسالة دوبورمون

المتعلق بكنز مدينة الجزائر من المقر العام للقصبة، مدينة الجزائر

إلى السيد الأمير بولينياك

"أيها الأمير، إن الكنز الذي وضعته في حوزة المخلّص العام للجيش، لم يتم جرده بعد ولم أره ولم يكن في وسعي شخصيا أن أقيّم المبالغ التي يتضمنها ولكن المخلّص العام والمقتصد الرئيسي والجنرال طولوزي الذين تتكوّن منهم لجنة المالية يؤكدون أنه يتضمّن على الأقل ثمانون مليونا من النقد الذهبي والفضّي. وعليه فقد نضع تحت تصرف الملك قيما للمواد والسلع من كل الأنواع التي كانت بحوزة الريجانس والتي يمكن تقييمها بعشرين مليون تقريبا.

وهكذا فإنه يحتمل أن تكون مائة مليون يكون علي أن أبعثها إلى الخزينة الملكية. وإذا سمح الملك بأن يكون لي رأي عن استعمال هذا المبلغ، فأقترح عليه أن يقتطع قبل كل شيء :

1) كل مصاريف الحملة (35 أو 37 مليونا)

2) المؤخّر المستحق لأعضاء جوقة الشرف (42 مليونا)

3) مكافأة بقيمة ثلاثة أشهر من رواتب جيش إفريقيا

4) تخصيص منحة لجمعية سانْ لويس

5) وأخيرا إن بقيت مبالغ بدون استعمال، يستطيع الملك أن يمنح ستة أشهر من الرواتب عوض ثلاثة في شكل مكافأة لجيش إفريقيا.

التوقيع : س.كونت دو بورمون (أرشيف فانسان 235هـ)

عظام جثث الجزائريين

تصريح السيد سيغود، دكتور في الطب بمرسيليا. في مرسيليا 1مارس 1833

"لقد علمت في الشارع أن من بين العظام التي تستعمل في صناعة الفحم الحيواني توجد عظام للنوع البشري.

فعلى متن البومبارد "لابون جوزيفين" القادمة من مدينة الجزائر والمحمّلة بالعظام، قد تعرفت على العديد من العظام تنتمي إلى الهيكل البشري. لقد رأيت جماجم وعظام الزنود وعظام الأفخاذ من النوع الكهلي وقد تم استظهارها حديثا من القبور ولم تكن خالية من اللحم بصفة نهائية.

مركز المراقبة البحرية، مرسيليا، 23 مارس 1833، مذكور من طرف ديجوبار. ص: 119.

عريضة قدمها حمدان خوجة

عريضة قدمها حمدان بن عثمان خوجة من الجزائر وابراهيم بن مصطفى باشا إلى معالي رئيس الوزراء، وزير الحرب، المارشال سولت، دوق دو دلماسيا. في هذه العريضة يذكر المشتكيان بالنقاط التالية :

1- الظلم الذي تم من جراء توقيف القاضي والمفتي ونفيهما للاستيلاء على أملاك مكة والمدينة.

2- تهديم ممتلكاتنا المبنية وممتلكات الخواص والمؤسسات الدينية والخيرية.

3- لقد تم تهديم مسجد يسمّى جامع السيدة وتم الاستيلاء على بوّاباته وعلى أعمدته الجميلة وعلى آجرّه الخزفي وعلى أبوابه المصنوعة من خشب الأرز (وهو خشب يأتي من فاس). وكذلك تم تهديم ثلاثة أو أربعة مساجد لتشكيل ساحة.

4- لقد تم الاستيلاء على مساكننا ومصلياتنا ولم يبق للمسلمين إلاّ الربع من هذه الأماكن المقدسة والثلاثة أرباع كريت للتجار لتستعمل كمخازن أو هي مشغولة من طرف السلطة.

5- لقد تم الاستيلاء على جامع كتشاوة ليُحَوَّل إلى كنيسة.

6- تم الاستيلاء على المؤسسات الخيرية المسماة زاوية والتي هي موجهة للفقراء لإسكانهم وكذلك للأغنياء عندما يثبتون أنهم تعرضوا لأيّ إعتداء.

7- أماكن للراحة وهي نوع من ... أشخاص خيريون ولنظافة المدين... الفرنسية وقامت بكرائها لأفراد خواص ...

8- استولت السلطة على عدد كبير من ... (أضرحة لمرابطين) في المدينة وخارج المدينة ... بعضها إلى التجار ولتستعمل البقية كمساكن.

9- بناء على وشايات سيئة التأسيس، أرغمت السلطة الأتراك على أن ينفوا أنفسهم وتم طرد الآخرين بعنف، وتم حجز الممتلكات التي كانت بحوزتهم ولكن الأتراك كانوا قد تزوجوا مع بناتنا وكان لهم أولاد لهم حقوق على ممتلكات أزواجهم وآبائهم.

10- أخذت السلطات من مساجدنا بسطا ثمينة ليزينوا صالوناتهم.

11- إن ممتلكات خاصّة ومؤسسات خيرية تم احتلالها عسكريا. ولم يتم الحديث عن دفع الكراء، إن الحدائق ودور التسلية تم شغلها كذلك وقد تم في هذه الممتلكات خسائر عديدة، لقد قطعت الأشجار المثمرة أو انتزعت من جذورها والسكنات نهبت وأفسدت أسقفتها وحرقت أبوابها. /

12- عندما أرادوا صناعة الطريق أخذت أراضي الخواص يمينا وشمالا.

13- لم يتوقفوا من حفر الأراضي المستعملة كمقابر لأجدادنا ليقتلع منها الآجر والحجارة للبناء. إن عظام أمواتنا قد أدخلت في التجارة وأرسل منها عدة حمولات إلى مرسيليا.

14- لقد تم الأمر بالقيام بزيارات للمنازل لمعاينة عدد الأفراد وأعمارهم وحالتهم الصحية. لقد كان هذا كذلك سببا في الإزعاج لأن فرنسيا قد سمح لنفسه بلمسات بذيئة ومخالفة للأخلاق الكريمة.

15- لقد أوجبوا على كل رجل موسر مخزون قمح موجّه للتموين في الشتاء. فرفض كل الناس ونتج عن ذلك تعذيب وتهديد بالسجن.

16- لقد تم فرض ضريبة شهرية على كل دار قيمتها 50 سنتيما، وأخذوا تسبقة بثلاثة أشهر.

17- لقد فرض على مرابطي القليعة ضريبة قيمتها مليون تبعا لمهاجمة دورية فرنسية.

18- لقد تم إرجاع خمسة سندات ملكية للعديد من الذين وضعوا سنداتهم في دار التراب. لأن سماسرة يهودا قد بثوا دعاية بان ذلك يشكّل فخّا، فباع العديد من الملاكين أملاكهم.

جواب حمدان خوجة على نقد "ملاحظ المحاكم"

إن مناقضة كِتاب حمدان خوجة "المرآة" تم نشرها "في ملاحظ المحاكم"، وحمدان خوجة يجهل صاحبها ويفترض أنه كلوزال أو أحد أصدقائه ويؤكد اتهاماته. مثلا فيما يتعلق بمذبحة قبيلة الأوفيا.

"نعم سيدي، إن مذبحة الأوفيا جريمة كبرى، جريمة فظيعة. ومن غيركم يتجرأ على نفي ذلك في وجه فرنسا وأوربا ! ماذا ! وقع الشك في بعض الأشخاص أنهم سرقوا مرسولا لشيخ مزعوم من الصحراء وأنه فيما بعد تم "الاعتراف بأن الجنرالات قد تم تغليطهم من طرف يهودي للحصول على هدايا. فبناء على ذلك الشك البسيط، يتم في الليل، ذبح قبيلة كاملة رجالا ونساء وأطفالا وشيوخا، ويتم الاستيلاء على كل ممتلكاتهم وتباع المجوهرات وهي مازالت في أصابعها المقطوعة، وفي رأيكم هذا شيء بسيط ! وهذا جيد ! وحتّى جيد جدّا ! إن هذه الفعلة التي نجد مثلها بصعوبة في قرون الوحشية البشعة، لم تتم الموافقة عليها فحسب ولكنها تلقت الثناء ! فهل هذه هي أمثلة الإنسانية والحضارة التي تريدون تلقينها لنا؟ نحمد الله على أن أفكاركم ليست عادية في فرنسا. فكل من له قلب فرنسي حقيقي قدْ تثير سخطه مثل هذه الحكايات".

مقتطف من رسالة حمدان خوجة (25 جويليا 1834).

الفصل الثالث

الجـــــزائـر المستـقلـــة

(1830-1837م)

غداة سقوط مدينة الجزائر بقيت أغلبية القطر الجزائري مستقلة باستثناء بعض الموانى (مرسى الكبير ووهران وعنابة وبجاية). لم تمنع الاضطرابات الداخلية ولا خضوع بعض الإقطاعيين المقاومة المسلحة من طرف أغلب القبائل وبروز قائدين كبيرن، الباي الحاج أحمد.في الشرق الذي واصل دولة الريجانس وعبدالقادر في الغرب الذي أسس قواعد الدولة الجديدة.

المتيجة والطيطري

كان الأنصار يعددون الهجومات. فابن عمر المعين على رأس بايلك مليانة وتلمسان لم يستطع مغادرة مدينة الجزائر للوصول إلى منصبه. ومحمد بن حسين المعين بايًا على الطيطري لم يستطع البقاء إلا خمسة أشهر في المدية التي هرب منها بدوره عندما هجره السكان. فأعاده كلوزال في المدينة وتركه فيها. فأوقف سكان المدية محمد بن حسين وسلموه لعبدالقادر.

لم يستطع الفرنسيون الاستيطان إلا في الساحل وهم محاطون بخط من التحصينات (رأس بيسكاد وجبل بوزريعة

وتكسراين وبئرخادم والقبة والدار المربعة - الحراش). ففي داخل هذا المحيط نصبوا معمريهم الأوائل. واحتلوا كذلك في المتيجة ممتلكات واسعة وهي أملاك محجوزة ومسروقة على الجزائريين مثل أحواش الرسوطة ورغاية وخضراء، وبِحَثّ الفرنسيين عن الاستيطان في الأراضي الغنية القريبة من مدينة الجزائر. وإن وسائل المضاربة قد ساعدت على وضع جزء كبير من الساحل والمتيجة بين أيدي المعمرين. وانتظمت شركات حقيقية لسلب الجزائريين. لقد تعرض الفرنسيون لهجوم الأنصار، التابعين لابن بومزراق والتابعين لزعموم. وبالفعل فإن باي الطيطري لم يتأخر في قطع العلاقة مع بورمون والتحق بالأتراك والقراغلة. كان ابنه يجوب المتيجة ويهاجم النقل الفرنسي. لقد تجسّر على القيام بهجوم ضد الحراش الشيء الذي أثار الذعر في مدينة الجزائر. إن الموري بن عمر الذي تم تنصيبه بايا على المدية، لم يكن له لا سلطة ولا نفوذ. كان السكّان يكرهونه فتحتم عليه الفرار خلال تراجع الفرنسيين في جوان 1831.

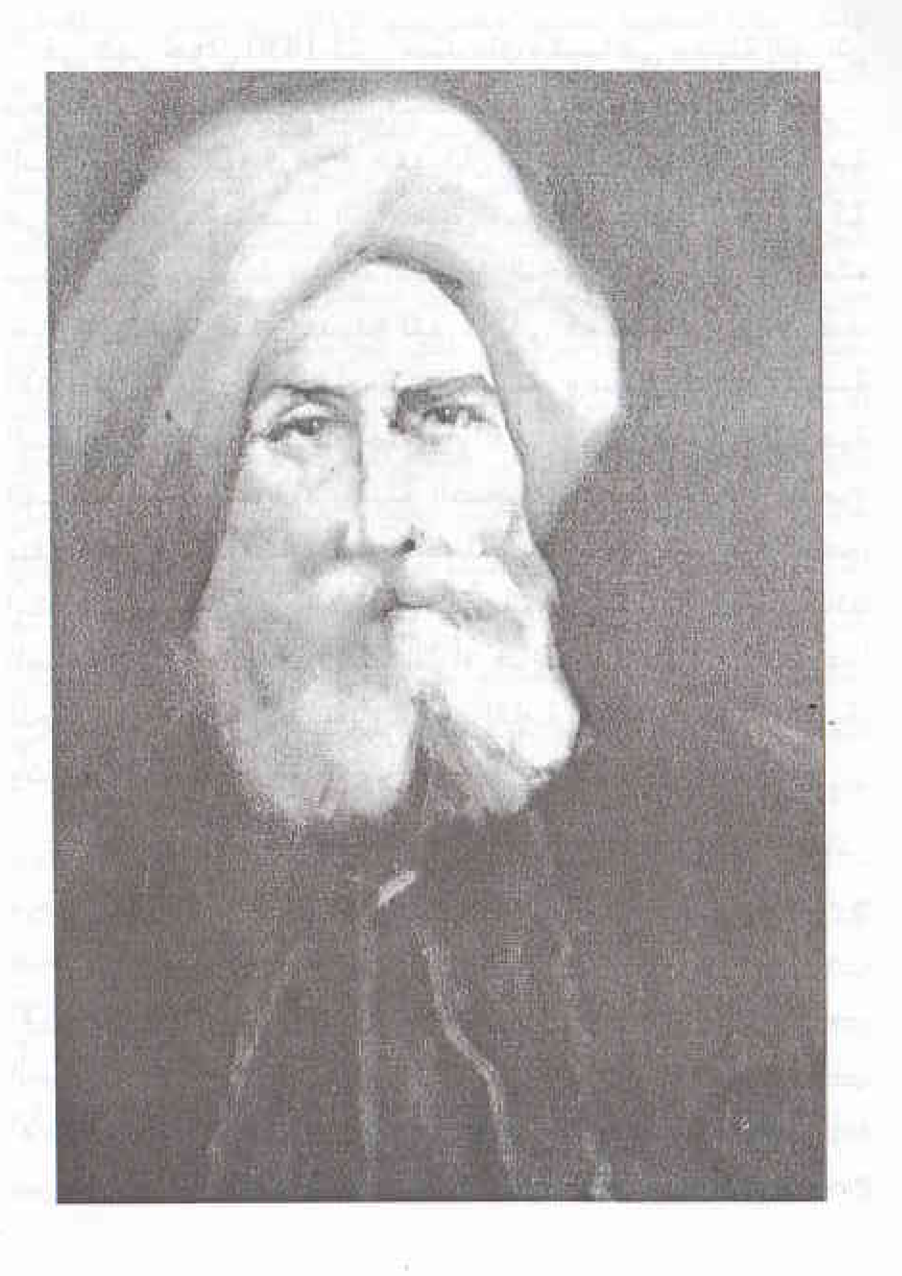
كان الفرنسيون يعتقدون أنهم يشكلون في المتيجة قاعدة لعملياتهم لتوسيع فتوحاتهم، وبالتالي فإنهم نصبوا بعض المعمرين، وقد فرضوا على مدينتي البليدة والقليعة أن يمونوهم بالمواد الغذائية حتّى لا يتم احتلالهما. وبقي الطيطري والجنوب تقريبا مستقلين ومتابعين بكل اهتمام نداءات أحمد باي تارة ومرتبطين ارتباطًا وثيقا مع عبدالقادر تارة أخرى.

١ مقاومة أحمد باي

في شهر جوان 1830 كان أحمد باي مقيما في مدينة الجزائر مع فرقة من الفرسان، فتسلم الأمر من الداي ليحارب الفرنسيين في سيدي فرج. فقد كان له الشرف بتنظيم المقاومة في سطاويلي وبتجميد الفرنسيين مدة أربعة أيام. بعد معركة سيدي فرج وسقوط مدينة الجزائر، التحق أحمد باي بعاصمته حيث لقي معارضات عديدة لقد تم في قسنطينة إضراب ضد الأتراك الذين خرجوا من المدينة وعسكروا في هضبة المنصورة وعينوا بايا جديداً. فمن بين قبائل الناحية القسنطينية لم تبق إلاّ قبيلة الصحاري مع محمد بن الحاج بنقانة في ولائها للباي الحاج أحمد. وبالاعتماد على هذا الدعم، استطاع هذا الأخير الدخول إلى المدينة. لقد لاحظ قائد الصحاري أن أم الباي كانت امرأة من عائلة بَنْقَانَة وتعويضا للحكومة التركية، كان من اللازم إقامة عائلة حاكمة وطنية. وكان الباي أحمد هو أكفأ من يقودها.

تخلص أحمد باي من الأتراك وعين بن عيسى وزيراً. فغادر محمد بَنْقَانَة المدينة لأنه كان يأمل في هذا المنصب وذهب مع صحاريه نحو الجنوب. فدعم الحاج أحمد سلطته وتخلص من الانكشاريين الذين يثيرون الاضطرابات بظلمهم الذي أغضب السكان. وجنّد قسنطينيين وقبائل للحراسة وبادر بتحصين الأسوار والقلاع. واتخذ الحاج أحمد تسمية باشا، وهكذا فإنه يبرز إرادته بمواصلة الريجانس وبعدم التخلي عن العلاقات مع

صورة لأحمد باي



الإمبراطورية العثمانية والإسلامية. أراد أن يجعل من بايلكه دولة عصرية وأشرك معه في السلطة ديوانا مركبا من الشخصيات الرئيسية للمدينة وقادة القبائل. وعهد بالإدارة إلى نوع من وزير أول، الباش حمبة بن عيسى وإلى قايدين. وأخذ الحاج أحمد على عاتقه مهمة مواصلة مقاومة الدولة الجزائرية وضمان الدفاع عن مصالح المسلمين.

أحس الفرنسيون أن في الشرق الجزائري قائد غير قابل للخضوع إلى سلطتهم وقبول الحلّ الوسط. ولم يستطع كلوزال الذي فهم ذلك جيدا أن يعوّض الباي أحمد بباي تونسي. كان إذا لابد من التعامل مع الحاج أحمد الذي كان لا يرفض النقاش ولكنه كان لا يقبل البتة أن يكون مرتبطا بالفرنسيين. سي حمدان خوجة مكلف بمهمة من طرف الفرنسيين قدّم مرّتين الشروط الفرنسية للباي في أغسطس وأكتوبر 1832. رفض أحمد باي تلك الشروط لأنه كان على علم بمحاولات الأعيان المور لوجود صيغة تفاهم مشرفة ومقبولة. لقد تم تحذيره برسالة من مدينة الجزائر انهم يريدون مخادعته. لقد فهم ذلك بعد ان اطلع على رسالة من يوسف إلى قائد عربي حيث يكتب فيها: "مهما كانت الأحوال، سيذهب الفرنسيون إلى قسنطينة ويحتلون المدينة".

فاتخذ أحمد باي قرارًا صارما بأنه سيقاوم الفرنسيين. كان يقول أن الاستسلام "مناقض لعقيدتنا وديننا" وهو في ذلك يلوم الفرنسيين على احتجاز المساجد وعدم الاحترام الديني والعدالة والمعاهدات الموقعة. وقد أخبر الدوق روفيغو بذلك بشهامة

بعد النزول الفرنسي في عنابة : "أرى بأننا لا نستطيع أن نتفاهم. يظهر سلوك الفرنسيين بالتأكيد معاديا. فالسلوك المسالم من طرفي لا يمكن أن يستمر دائما". لقد كان في ذلك إعلان حرب بصفة ديبلوماسية. وحمدان خوجة الذي كان يلح على مواصلة الحوار مع الحكومة الفرنسية ورغم موافقة أحمد باي لم يستطع أن يفعل شيئا.

فكرس أحمد باي اهتمامه بتحصين المدينة وعلى تحريض القبائل على المقاومة. لقد غضب كثيرا لسقوط عنابة، لأنه في سنة 1827، كان قد طلب من السلطات ومن سكان هذه المدينة أن يكونوا يقظين :

"لابد أن تفحصوا البطاريات وتقوموا بصيانة كل ما يتعلق بالمدافع وبعرباتها بحيث يصير هذا العتاد جاهزًا ومستعدا لردّ أيّ هجوم". وهكذا فإنه أعطى الأمر في سنة 1832 بمواجهة الفرنسيين عسكريا : "إن سقوط عنابة قد فجّر بيني وبين الفرنسيين قطيعة كاملة. منذ ذلك الوقت لم أعد أفكر إلا في معارضة مشاريعهم المقبلة ووضع أكثر العراقيل الممكنة في طريقهم وتسلم بن عيسى الأمر لهذا الغرض أن يحاصر عنابة ويمنع عنها التموين".

إن روفيغو الذي استنتج أنه من الضروري أن يطرد أحمد من قسنطينة، حث على احتلال بجاية. فاستولى تريزيل بسهولة على المدينة بتاريخ (29 سبتمبر 1833) رغم المقاومة الشجاعة من طرف سكانها الذين واجهوا الفرنسيين بحرب شوارع حقيقية ثم غادروا المدينة بعد احتلالها.

خسرت الجزائر رغم المقاومة مرسيين هامين عنابة وبجاية وشمال البايلك. إن موقع بجاية قد جمّد من غير جدوى الجيش الفرنسي الذي كان يعتمد على مساعدة قبيلة أورابح لحراسة القبائل المعادية للاحتلال الفرنسي. وفي عنابة حيث فشل بن عيسى في محاولته لاسترجاع المدينة، فإن الأرياف المحيطة بها قد بقيت موالية لأحمد باي الذي كان متحصلا على ثقة القبائل ودعم العائلات الكبيرة، بَنْقانَة (بيبان) والمقراني (مجانة) وأولاد عاشور (فرجيوة) وأولاد عزالدين (زواغة).

كان في استطاعة أحمد باي أن يعتمد على عائلة بنقانة في الجنوب التي كان لها منافس متمثل في شخص فرحات بن سعيد، الذي أزعجه صعود محمد بنقانة الذي استحوذ على لقب شيخ العرب منذ ارتقاء أحمد باي إلى سدّة الحكم. لقد تنازل القائدان في معارك متعددة. وأفلح الباي أحمد ومحمد بنقانة في الانتصار على فرحات بن سعيد الذي اتصل في سنة 1833 بالفرنسيين واتخذ لقب "باشا". وعين الحاج أحمد القبائلي بن عيسى بايا الشيء الذي أقلق مرة أخرى محمد بنقانة.

وأرسل احمد باي حملات ضد الحرقطة في المجانة والضهرة واستطاع أن يجلب إليه قواد الصحاري الذين ابتعدوا عن عائلة بنقانة ومدّ يده مرّة أخرى إلى هذا الأخير. وعند موت محمد بنقانة، عين احمد باي أخاه بوعزيز "شيخ العرب". وانسحب فرحات عند أولاد نايل. ثم ساد الهدوء نسبيا كل جنوب البايلك إلى غاية سقوط قسنطينة.

وأبقى أحمد باي العلاقات مع إسطنبول ووعده السلطان بأنه يرسل له المدد وطلب منه ألا يتعامل مع الفرنسيين بصفة منعزلة ودون استشارته. فأمام السلطة المتزايدة للحاج أحمد وأمام إرادته على رفض أي حلّ وسط غير مشرف وعلى المقاومة العسكرية، فكر الفرنسيون في حملة عسكرية. وكلف يوسف بفصل قبائل الناحية القسنطينية عن أحمد باي. ولكن قطعه للطرق قد كانت له نتيجة معاكسة. إن ثقة المارشال كلوزال في تقارير يوسف جعلته يعتقد بأن الاستيلاء على قسنطينة سيكون سهلا فقام بهجوم في نوفمبر 1836 ضدّ المدينة. ولكن قسنطينة قد ظهرت شجاعة ودافعت عن نفسها بقوة. لم يستطع كلوزال أن يهاجم الكدية التي تسمح بالدخول إلى المدينة. وتغلب القسنطينيون على الفرنسيين على مجاز القنطرة وفرضوا عليهم الفرار ولاحقهم الجزائريون. وانتهى ذلك بإفلاس للسياسة الفرنسية.

فبحث عندئذ الفرنسيون على حياد عبدالقادر ليستطيعوا التحرك بحرية في الشرق. وهذه هي إحدى الأسباب التي حثتهم على التفاوض مع الأمير. وبعد هذا تمت اتصالات مع أحمد باي بأمل التوصل إلى جعله يتعارض مع الأمير الشاب. وطلبت الحكومة من أحمد باي الاعتراف بالسيادة الفرنسية ودفع جزية والتخلي بصفة نهائية عن القالة وعنابة. فرفض أحمد باي الشروط الفرنسية لأنه كان مدعما من طرف حزب المقاومة وبن عيسى ولأنه كان يأمل في وصول الأسطول التركي.

أزمة تلمسان وبدايات عبد القادر

فاجأ سقوط مدينة الجزائر السكان في منطقة وهران. قلق ونداء لسلطان المغرب في تلمسان واضطراب الأتراك وفي القبائل وعلى وجه الخصوص قبائل مخزن (الدواير والزمالة) وتحكيم الحاج محي الدين وبروز الأمير عبد القادر، هذه هي الأحداث الهامة في الغرب إلى غاية 1837.

وفي وهران انقسمت قبائل المخزن فاتبع جزء منها المازري الذي التفت إلى سلطان المغرب والجزء الآخر انغلق على نفسه مع الباي حسن في وهران قبل ان يلتحق بالمازري. وفي تلمسان محمد بن نونة، أصيل عائلة فاسية، والذي صار قائدا عوضا عن الكرغلي برصالي، طلب مساعدة سلطان المغرب وقدم له الخضوع. فشعر القراغلة بالتهديد فأغلقوا على أنفسهم في المشوار وهو مدينة صغيرة في قلب تلمسان ومحاطة بأسوار وفيها مسجد وحمام وثكنات ومساكن ومخازن مياه وكذلك طريق يوصل إلى العيون التي تغذي مدينة تلمسان.

استقبل السلطان بصفة جليلة الموفدين التلمسانيين وقبل عرضهم وعين مولاي علي خليفة له في تلمسان. ووصل هذا الأخير إلى المدينة (نوفمبر 1830) واستقبله المور والعديد من الوفود البدوية، فعرض على القراغلة الاستسلام ورفضوا تسليم المشوار حيث بقوا محاصرين من طرف المور.

إن التدخل المغربي أخاف كلوزال الذي رفع احتجاجا لدى السلطان. واستولى دامريمون على مرسى الكبير يوم 12 ديسمبر

1830 ودخل بغتة إلى وهران يوم 4 جانفي 1831. فسمحَ للباي حسن بالذهاب إلى الشرق في نهاية جانفي 1831. إن السيادة المغربية التي تمت على تلمسان تم الاعتراف بها في معسكر وغريس وخاصّة من طرف بني شقران والحشم والحميانيين. ثم استدعى السلطان مولاي علي الذي كان دائما في نزاع مع القراغلة الذين غلقوا على أنفسهم في المشوار (أفريل 1831). فالصراع بين المور والقراغلة تكثف، فالمور يمنعون تموين المشوار والقراغلة يقطعون مجاري المياه التي كانت تعطي الماء للمدينة... الشيء الذي صير الوضعية مأساوية وفوضوية.

فطلب تحكيم الحاج محيي الدين وهو مرابط زاوية القطنة وقائد أقوى قبيلة في الغرب. فقبل الاقتراح وذهب إلى تلمسان حيث أخذ لقب خليفة سلطان المغرب وترك في الوظيفة القائدين : القرغلي برصالي ومحمد بن نونة لتهدئة الأوضاع. فبعث السلطان بلعمري ليمثله في معسكر. فالتحق هذا الأخير بمنصبه وعين قايدين في المدية ومليانة، وجمع الضرائب لحساب السلطان وحاول الهجوم على مستغانم التي اعترفت بالسلطة الفرنسية.

فانزعج الفرنسيون مرة أخرى وأرسلوا مهمة احتْجاج إلى طانجة، أسطول أمام الميناء والتهديد بالقنبلة. وثار الدوّاير والزمالة ضد بلعمري وانسحبوا في نواحي وهران. فاستدعى السلطان أعوانه. فبعد أن طلب بلعمري من القراغلة تسليم المشوار بدون جدوى، انسحب هو الآخر مخلفا وراءه محيي الدين خليفة للسلطان ومحمد بن نونة الذي عين باشا.

عندما لم يستطع محيي الدين أن يصالح الطرفين المتنازعين، غادر تلمسان ليلتحق بزاويته. فاستدعى القبائل للجهاد ضدّ الفرنسيين وحاول مهاجمة وهران ولكن لم ينجح في الحصول على مساعدة الدواير والزمالة. فانسحب إلى سهل غريس حيث أعلن بتاريخ 25 نوفمبر 1832، أعضاء ذو نفوذ من الحشم وبني عامر عبد القادر سلطانا وقائدا للجهاد.

فطلب عبد القادر، برسالة، من كل القبائل الاعتراف به كأمير وقائد للجهاد. فاستجاب لندائه جزء من قبائل المخزن مع مزاري إلاّ مصطفى بن سماعيل الذي تجاهل النداء. وفي ماي 1833 أعلن عبد القادر عن الجهاد. فخضع مور تلمسان بعد أن طلبوا من الأمير الاعتراف بهيمنة السلطان المغربي. فقبل عبد القادر.

ودخل الأمير إلى تلمسان على أنه خليفة للسلطان واختار بوحميدي قائد قبيلة ولهاصة وزيرا. والقراغلة، دون أن يسلموا المشوار، أهدوا للأمير مظلة من ذهب وهي علامة خضوع. وأرسل ملك المغرب فتوى لصالح الجهاد ولصالح عبد القادر وانتشرت في مستوى القبائل. وبقي الدواير والزمالة وبعض القبائل التي أغرتها نداءات الأتراك من ناحية قسنطينة، فسلم عبد القادر مقرّ المشوار لبوحميدي وبن نونة وجعل مقره العام في معسكر. فمنع كل المسلمين من الاتصال مع المسيحيين. وفي تلمسان رأى القراغلة في أحمد باي الرجل الذي يرجع سلطة الأتراك وأرسلوا له ثلاثة رسل لم يصلوا إلى قسنطينة. وصار الدواير والزمالة بعد معاهدة الفيغيي بتاريخ 16 جوان 1835 الخدام الطايعين لفرنسا.

فاستهدف عبد القادر استرجاع الأراضي التي احتلها المعمرون. إن بعض الناس من الدواير والزمالة فروا من وهران تاركين الفرنسيين. صار الأتراك والقراغلة لا يمثلون خطرًا بالنسبة للأمير. وهكذا بدأ يبرز على أنه القائد الحقيقي للمقاومة ضدّ الفرنسيين. وكان على هؤلاء إمّا محاربته والتغلب عليه وكانوا يشكون في ذلك أو يجدون حلا محتملا آملين في أن يجدوا في الأمير الرجل الذي يمكن أن يتفاهموا معه على إدارة البلاد بصفة غير مباشرة. ومن ناحيته فإن عبد القادر كان في حاجة إلى هدنة لينظم الدولة والجيش وكان عليه أن يفرض نفسه على القبائل التي كانت ترفض أن تنضم إلى صفوف الجهاد وعلى الإقطاعيين الغيورين من سلطته. ولكن مبادرة السلام لا ينبغي أن تأتي منه، فقائد الجهاد لا يمكنه أن يطلب من المسيحيين، لابدّ أن تأتي المبادرة من الفرنسيين الشيء الذي يحتم عليهم الاعتراف به كملك.

معاهدة الأمير عبد القادر – ديميشال

عرف عبد القادر كيف يناور مع الجنرال الفرنسي ديميشال بواسطة يهوديين من وهران كانا في خدمته وقد كافأهما على ذلك. ديميشال بدأ المفاوضة التي كان عليها أن تتوصل إلى اتفاقية (26 فبراير 1834) وقد سميت فيما بعد "اتفاقية ديميشال"، وهي محررة بالعربية والفرنسية. كانت بعض المواد في الصياغتين تختلف. وكان الأمير لا يعترف إلا بالنسخة العربية. تم الاعتراف به على أنه أمير المؤمنين، ولهذا فقد كان له

سلطتان زمنية وروحية، وله قناصل وبالتالي فإنه يمارس سيادة حقيقية. وكانت الاتفاقية تقترح نهاية الحرب، واحترام الإسلام والأعراف الإسلامية وتحرير المساجين وحرية التجارة وضرورة الرخص بالنسبة للفرنسيين ليستطيعوا التنقل.

تم إذن الاعتراف بالأمير عبد القادر على أنه ملك للجزء الكبير من الجزائر باستثناء موانئ وهران وأرزيو ومستغانم وبايلك الحاج أحمد. السيادة الفرنسية لم يكن معترفًا بها. لم يدفع عبد القادر أيّ جزية. لقد كانت له حرية بيع وشراء السلاح والبارود وكل ما يتعلق بالحرب. إن التجارة في آرزيو كانت تحت أمره مع الاحتكار في المعاملات. وبما أن المعاهدة لم تضع أيّ حدود لإقليم الأمير، فإن هذا الأخير اعتزم على الإقامة في الطيطري. فبدأ بإدخال القبائل المعاندة في الطاعة لأنها لم تفهم الصفة السياسية للمعاهدة: فانتصر على المرابط الحاج موسى الذي اتهمه بالكفر لأنه تعاهد مع الكفار. وأراد الفرنسيون الذين كانوا منزعجين مناقشة معاهدة جديدة. فأكد عبد القادر إرادته على أن تبقى كل المناطق التي اعترفتْ له بها المعاهدة وأبقى كذلك رفضه الاعتراف بالسيادة الفرنسية.

ولقي الأمير صعوبات في الغرب حيث تحالف الدواير مع الفرنسيين والتجأوا إلى منطقتهم. فطلب من تريزل، بناء على المعاهدة، ان يرجع له اللاجئين. فرفض تريزيل واستؤنفت الحرب. فجمع عبد القادر جيشه على السيق وحتّم على تريزيل، بعد لقاء أول في غابة مولاي سماعيل، الانسحاب إلى أرزيو. فأرسل الأمير رجاله على الجيش الفرنسي الذي سلك ممرّ المقطع وضغط عليه إلى أن رمى جزءا منه في المستنقع. وفرت

بقية الجيش. وكان ذلك انتصارا جزائريا. فشعر الأمير بقوته فكتب إلى ملك إنجلترا مؤكدا رغبته في المتاجرة مع بلاده وليخبره بأن الفرنسيين هم الذين نكثوا العهد.

فأرسل الفرنسيون حملة عسكرية على معسكر التي احتلوها ولكنهم غادروها بعد ثلاثة أيام (6-9 ديسمبر 1835) وبعد أن حطموا المؤسسات التي انجزها الأمير وحرقوا المدينة. ثم هناك مصيبة ثانية، استولى كلوزال على تلمسان (13 جوان 1836) حيث قامت إدارته بتجاوزات عديدة.

فالمصيبتان القاسيتان والخيانات والتخليات عن المقاومة، كل هذا لم يدفع عبد القادر عن إيقاف الكفاح، فدعا الشعب إلى "الإنتصار أو الشهادة". ونقل قاعدته إلى الجنوب في تاقدمت. وفي نهاية 1837، شعر بالقوة إلى درجة أنه ناقش اقتراحات فرنسية جديدة. وشكّل ذلك معاهدة التافنة في 30 مايو 1837.

معاهدة التافنـــة

كانت معاهدة التافنة انتصارا ديبلوماسيا لعبد القادر. لقد اعترف بها العديد من السلطات الفرنسية. ونقدها دامريمون بشدة : "ليست المعاهدة مفيدة، لأنها أرجعت الأمير أكثر قوة من أيّ انتصار وتضعنا في وضعية واهية وبدون ضمانات ومنحصرين في حدود سيئة. ليست تلك المعاهدة مكرمة لأن حقنا في السيادة ليس مدعما بأيّ شيء ونتخلى عن حلفائنا. لم تكن هذه المعاهدة ضرورية لأنه كان يتوقف علينا وحدنا أن نستقر وبقوّة في المتيجة وحول وهران وأن نحصن أنفسنا ضد أي هجوم ونتحفظ على المستقبل".

وبعد ذلك في سنة 1840، صرح تيار : "عبد القادر كان أقوى بعد معاهدة السلم مع الجنرال ديميشال. وتجدونه أقوى بعد معاهدة التافنة، كل معاهدة توقعونها معه تشكل اعترافا بقوته يعطيه سلطة معنوية في البلاد ومُهْلة ليعيد تنظيمه."

كان عبد القادر دبلوماسيا محنكا لأنه فعل ما فعله يوغرطة مع رّوما قرونا قبل ذلك. وبالفعل فإن بيوجو اعترف بأنه طلب من الأمير 100.000 بود جوك لتحسين الطرق القروية في الدوردوني. وهكذا فإن عبد القادر اشترى الجنرال بيوجو.

فقد رأى الأمير بهذه المعاهدة سلطته تترسخ في ناحية وهران والطيطري وجزء من ناحية مدينة الجزائر. وخصص الفرنسيون لأنفسهم في ناحية وهران ومستغانم ومزغران وأقاليمها وهران وأرزيو وفي ناحية الجزائر، مدينة الجزائر والساحل وجزء من المتيجة والبليدة وإقليمها والقليعة وإقليمها. ومن ناحية اخرى فإن فرنسا تركت للأمير رشقون وتلمسان والمشوار. وكان المسلمون أحرارا ليسكنوا في الإقليم الذي يحكمه الأمير أو الذي يحكمه الفرنسيون. كانت التجارة حرّة بين الطرفين وقبل عبد القادر أن يعطي للفرنسيين القمح والشعير وثيرانا على أنها ثمن لتلمسان التي سلمت له وليس كجزية. ففي النصين العربي والفرنسي، كانت بعض المواد لا تتوافق. وبيوجو وقع مع الأمير مقابل 100.000 بود جوكس اتفاقية سرية يعطي فيها عدة امتيازات لعبد القادر. إن درس يوغرطة الذي اشترى فيها الأرسطوقراطية الرومانية بالذهب يتكرر.

النصوص

طلب موجه للبرلمان البريطاني من طرف الحاج أحمد باي و1983 من الأعيان، والشيوخ والقياد من الناحية القسنطينية (جانفي 1834).

يطلب القسنطينيون في هذه الرسالة من البريطانيين ليبادروا بجعل حقوق الإنسان تحترم لصالح الجزائريين.

"نحيط برلمانكم الكريم علما بأن الفرنسيين دخلوا في مدينة الجزائر بعد أن وقعوا معاهدة ذات مواد مضبوطة وقد كان قنصلكم وسيطًا ولكن الفرنسيين لم يحترموا هذه المعاهدة في كل موادها. لقد كان لهم بالعكس سلوك مختلف عن المبادئ بطرد الناس من البلاد بدون سبب وبتفريق الزوج عن زوجته وأولاده والاستيلاء على ممتلكاته. لقد غيروا الدين فاستولوا على ممتلكات الأوقاف التي كان المسلمون يخصصونها لفقرائهم. ثم استولى الفرنسيون على المساجد ليسكنوها أو لتأجيرها للتجار ثم إنهم حطموا ظلما المساكن وقتلوا وأقاموا المجازر بدون أي سبب مقبول وسجنوا آخرين كذلك. لقد انتهك الفرنسيون حرمة المقابر وفقّروا كل سكان مدينة الجزائر أمّا البدو الذين يسكنون في الجوار لقد تم تقتيلهم رغم كونهم في السلم مع الفرنسيين وقتل أولادهم وزوجاتهم بدون شفقة وهذا ظلم لم نجد له مثيلا أبدا في التاريخ".

وهذا استشهاد لعبد الجليل تميمي في "بايلك قسنطينة والحاج أحمد (1830-1837)"

رسالة وجهها الحاج أحمد إلى الباب العليا

رسالة موجهة إلى ناميك باشا (6جوان 1837).

"إلى سيدنا ناميك باشا، نقدم تحياتنا وولاءنا لمعاليكم. إنكم على علم بالأحداث والمصائب التي انصبت على البلد بعد سقوط مدينة الجزائر. لقد تحملت كل شيء لأواجه ذلك. لقد تقبلنا كل المصائب والصعوبات الجمّة التي لا يستطيع أحد أن يتخيلها. وقمنا بذلك للمحافظة على الدين ونعلن أننا رعايا عثمانيين.

عندما وصل سفير الباب العليا، كميل باي، عندنا، أخبرته بكل معطيات وضعيتنا وشاركت في تحقيق لسلطاننا. لقد أرسلت رسائل إلى السلطان مبرزا قضية تواجدنا تحت وطأة الكافر الذي يريد إبادتنا ولن نستطيع المقاومة إلا بفضل دعمكم، فأنتم ملجؤنا الوحيد. إن الله سيطلب منكم يوم القيامة ماذا فعلتم بنا، نحن الرجال البائسين. تحدثوا إلى سلطاننا واشرحوا له شقاءنا مع المضطهدين، المنغمسين في الخلاعة.

العبد الضعيف أحمد باي، نصره الله".

رسالة موجهة إلى وزير البحرية (1840)

"لقد تحملنا المصائب لأننا أعلنا أننا رعايا عثمانيون، إنكم تهملوننا، كل الناس صاروا هنا أعداءًا لنا. فالباب العليا هي الآن ملجؤنا الوحيد. أقدموا إلى مناصرة أهل الدين ولا تتركوهم

طعما للكافرين. وبالتالي فإننا نوبخكم، واسمحوا لنا على هذه الكلمة غير اللائقة ولكن الأحداث تثبت تقهقرنا. إن كنتم لا تريدون تخليص هذا البلد فأعطونا على الأقل الوسائل لنخلص أنفسنا ونموت مكرمين في إمبراطوريتكم".

ذكره عبد الجليل التميمي في "بايلك قسنطينة والحاج أحمد 1830-1837"

دبلوماسية عبد القادر

في رسالة موجهة إلى عبد القادر، يختمها الجنرال ديميشال، بعد بعض التهديدات والتخويفات، بتمشّ لصالح السلم. فعرف عبد القادر بتصوره للدبلوماسية مع فرنسا راجعا في ذلك إلى التاريخ وإلى عقيدة شعبه.

"إنكم تطلبون مقابلة من أجل المعاهدة ولكنها متوقفة على شروط ينبغي معرفتها وبعد ذلك قبولها لتصير مقدسة بالنسبة للجميع حتى لو لم يَبق إلا واحد منا.... ليوصل التفاهم الذي نرمي إليه إلى نهاية جيدة، ولهذا فمن الضروري أن تقدموا لي شروطكم وما ترغبون فيه مني. وأقدم لكم شروطي والله في عونكم". إذا كان ديميشال يفتخر بقوة فرنسا، فإن عبد القادر يستدعي التاريخ وعقيدة شعبه: "إنكم تفتخرون بقوة فرنسا وتستنقصون قوتنا، ومع هذا فإن القرون تشهد على القوة الإسلامية التي انتصرت دائما على أعدائها. إذا كنا ضعفاء في المظهر، فإن قوتنا في الله لأنه قال (ما معناه): "إن قوتكم في

ضعفكم نفسه، فتوكلوا عليّ وستفلحون في كل أعمالكم، وأقيموا دينكم فإن النصر مضمون لكم، وإذا ما احتجتم إلى القوة فإنكم ستجدونها في إيمانكم". إننا لا ندعي بالنصر الدائم، فالحرب لها حظوظها، اليوم لكم وغدا لنا. فالموت لنا موضوع فرح وإننا لا نندم على الماضي وليس لنا أيّ دعم إلاّ السّلاح والخيل، إن صفير الرصاص بالنسبة لنا ثمنه أغلى من الماء البارد للعطشان وإن صهيل خيلنا يجلبنا أكثر من سِحرِ الصوت الرخيم. يبدو أنكم تحتقرون قوة العرب ومع هذا فنحن دائما مستعدون للحرب، إقرأوا التاريخ وسترون ماذا جَرى في آسيا في نواحي دمشق".

ذكر محفوظ قداش، "الأمير عبد القادر" الجزائر 1982، ص 20.

لقاء التافنة بين عبد القادر وبيوجو (أول جوان 1837)

بعد أن انتظر بيوجو وأركانه العامة عدة ساعات، رأوا عبد القادر يصل مع جيشه، وهو لقاء مهيب انتزع الأمير خلاله الإعجاب. وهكذا يحكي النقيب آميدي مورالت ذلك اللقاء:

"كان الجيش العربي على بعد فرسخ وكان متموقعًا على عدة مرتفعات. كانت تلك الناحية جبلية وقد تمت فلاحتها بصفة جيدة، وكان النظر يترامى إلى البعد على حقول القمح الهائلة، وقد سقط المطر بغتة واستمر مدة نصف ساعة تقريبا. رأيت بيوجو يتوجه مع مجموعته الصغيرة نحو الكتل العظيمة

والهائلة للجيش العربي، فاستعجلت في الالتحاق بالأركان العامة، لقد كان بيوجو يريد لقاء عبد القادر مهما كان الثمن. إن بعض القادة العرب جاؤوا للقائنا واستدعونا لإتباعهم فاقتربنا من مرتفع كان يوجد عليه مجموعة من الفرسان: "قد يكون هو، أخيرا سنجده". لقد كنا على بعد فرسخ من جيشنا الذي كان يجهل أين ذهبنا. كلما اقتربنا من قمة الربوة، اختفى الفرسان الذين كنا نراهم من بعد. ولم يكن جيش العدو إلا على خمس دقائق عنّا. فقال ضابطان من المرافقين لبيوجو: "جنرال! إننا نكشف أنفسنا كثيرا، لنتوقف!" فأجابهما بيوجو: "ليس الوقت كافيا لذلك"... وفي تلك الآونة ظهر عبد القادر على عشرين خطوة منّا وهو محاط بـ 150 قائدا، كان على فرس رائع يشد لجامه أربعة رجال من المور ولم يتوقف هذا الفرس عن المشي على رجليه الخلفيتين، لقد كان أجمل من إله من الزمن العتيق، وكان قادته يحيطون به وهم يشكلون حوله نصف دائرة والموسيقى في الأمام. لقد فاجأنا هكذا فلم أعرف على أي شيء أركز نظري، عبد القادر أو قادته أو جيشه الذي كان هنا أمامنا ويستحوذ على انتباهنا. كانت حياتنا كلها بين يديه، وقد يعتبر من الجنون أن نحاول الدفاع عن أنفسنا، فلم يكن لنا حتّى الوقت الكافي لإخراج مسدساتنا. وإن الأمير المتكبر لم يستغل وضعيته وكان سلوكه شريفا على الأقل مثل كلامه. إن أفكاره وأجوبته كانت مليئة بالذكاء وتبرز الحكمة والكبرياء. وتعامل مع الجنرال على الندية ولم يعتبره أقل منه. لقد أعجبنا به جميعا لبساطته. لقد كانت قامته أقل من المتوسط وله شنب صغير

وعينان زرقاوان ولم يكن أيّ شيء خاص فيما يتعلق بالهيئة وكان يغطيه برنس أسمر. فتوقفت مجموعة عبد القادر على خمسة عشر خطوة ونحن كذلك، وكان عددنا خمسة وعشرين.

خطا بيوجو أربع خطوات إلى الأمام وهو يأمل ألاّ يفعل الأمير أقلّ من ذلك. فقد طلب منه ذلك بإشارة بالرأس ولكن الأمير لم يتحرّك، وحينئذ تقدم بيوجو ومدّ يده فاستقبلها الأمير ولكن بكبرياء وترفع، فنظرنا كلنا إلى بعضنا وكان الزمن دقيقا. كان بإمكاننا أن نتوقع منه نوايا سيئة. فإن ضباطًا آخرين قد تم تقتيلهم في ظروف مشابهة. كانت أكثر القلوب جامدة! كنت شديد الانغماس في الظروف لأستطيع التفكير الجيد، فنزل بيوجو عن فرسه في نفس الوقت مع الأمير الذي جلس مباشرة على الأرض فاتبع جنرالنا العزيز حركته بصفة لا إرادية.

كان الأمير على يمين جيشه وبيوجو على يساره، ثم المترجم والوزير الأول و8.000 فارس على المرتفعات الثلاثة الّتي تفصل بينها شعاب. وكان جيشنا على بعد فرسخ وراء جبل السبايس على رأس ذلك الجبل. وكان يخيم حولنا سكوت كئيب. فتناول بيوجو الكلمة أخيرا وتكلم بصوت مرتفع بواسطة المترجم، ودامت محادثتهما ثلاث أرباع ساعة.

الفصل الرابع

الأمـة والدولـة الجزائريتيـن

استغل عبد القادر السلم (1837-1839) لتوطيد الأمة وجعل مبدأ الوحدة مقبولا وبناء دولة عصرية ليكون مستعدا للرّد على الأطماع الفرنسية. فقاد الأمير المقاومة المسلحة من 1939 إلى 1847.

أسس عبد القادر دولة مبنية على الإسلام والمصلحة العامة وأولوية المقاومة المسلحة للغزاة ومساواة كل الجزائريين ولم يعد هناك ما يسمى بقبائل المخزن. ويبرهن على عصرية هذه الدولة تنظيم حكم مركزي وإدارة جهوية تتضمن عدة خليفليك وعدد معين من المؤسسات الوطنية. كما يبرز في محاولات الأمير لبناء هياكل اقتصاد قادر على تلبية حاجات الأمّة والحرب ضد المجتاحين.

وحدة الأمـــة

كانت وحدة الأمة هي الشرط الأول للبعث، كان من الواجب انجازها رغم الأطماع الاستعمارية الفرنسية والقادة الإقطاعيين والخونة. أراد الأمير بادئ ذي بدء الإقناع ولم يرفع سَيْفَهُ ضد قادة القبائل الجامحة أو اللامبالية إلا عندما لا يكون للفصاحة أيّ صدى. فعاقب عبد القادر المهاية من تجمع الأنغاد الذين

كانوا يحركون الاضطرابات على طول الحدود المغربية. ودخل بصفة رسمية في تلمسان بعد أن خرج منها الفرنسيون واستقبل بحماس منقطع النظير من طرف السكان. ثم ذهب فيما بعد إلى الجنوب حيث أكّد له قبائل جبل العمور، بنومايدة، انتماءهم. وعندما صعد للشمال في نوفمبر 1837 التحق بسلطة الأمير دواير الطيطري العبيد والزناخرة وأولاد نايل. فنصب معسكره في سور الغزلان وعاقب الزواتنة من وادي يسّر لأنهم قبلوا قايدا معينا من طرف الفرنسيين. وفي القبائل الكبرى تعهد له عمراوة بالطاعة لأحمد بن سالم الذي عينه الأمير خليفة للسّيباوو ودفعوا ضريبتهم. والتحق بن زعموم بمعسكر الجهاد وعين آغا لقبائل فليسة.

وكلف عبد القادر بن تامي خليفة المدية باحتلال بسكرة (مايو 1838 وعين بن عزوز لتمثيله في المزاب وعين على رأس خليفليك الأغواط الحاج عيسى الأغواطي. وبقي في ناحية عين ماضي الشيخ التجاني الذي رفض الالتحاق بعبد القادر وبالجهاد محتجا بأنه يرغب في عيشة هادئة في الحياة الدينية. ولم يقبل عبد القادر تلك الذريعة وهاجمه فحاصر عين ماضي لمدة ستة أشهر تقريبا وقد تم احتلالها 2 ديسمبر 1838. وجاءت يوم عيد الفطر ثلاثون قبيلة لتحية الأمير (24 ديسمبر 1838). وأقيمت يومها صلاة عظيمة أمّها الأمير وحضر في ذلك اليوم 500 قائد و12000 من الأنصار لتهنئة المسلمين المتقين وللمجاهد المدافع عن الإسلام والأمّة. ولكن الوحدة لم تنجز مع الباي أحمد قائد المقاومة في جنوب قسنطينة. هناك تصوران

مختلفان لتنظيم الجزائر، تصوّر استمرارية الريجانس التي يدعمها أحمد باي وتصوّر دولة جديدة كما يؤكد ذلك عبد القادر. وقد توصل هذا الأخير إلى بسط سلطته على ثلثي الجزائر.

حكومـة وإدارة

لقد وضع عبد القادر نظام حكومة بسيط. على رأس الهرم نجد الأمير وهو محاط بمجلس مركب من أقرب مساعديه ومن علماء حكماء وخلفاء يمثلون المناطق. كان عبد القادر يصرّ على استشارة المجلس قبل اتخاذ قرارات خطيرة. كان لا يريد تسيير البلاد وحده. ألم يكتب لِـ لويس فيليب : "لابدّ أن تعرف أن أيّ إجراء لا يكون صحيحا إلاّ بعد المصادقة عليه من طرف الشعب". إن سرعة تنفيذ القرار وخاصّة في حالة الحرب كانت ضرورية. ولهذا فإن الأمير فوض سلطات واسعة جدّا لأعضاء حكومته وجعلهم في نفس الوقت مسؤولين لتجنب التجاوزات. كان الموظفون يتقاضون أجرا من الدولة الشيء الذي يقلص محاولات الرشوة. إن المراقبة الشعبية تحدّ من التجاوزات، فقد كان منادون عموميون يقرؤون تصريحات الأمير التي تطلب من الشعب أن يتوجهوا إليه إن كانت لهم شكايات ضد أعوان الإدارة أو العدالة وقد يتم ذلك في كل القبائل والأسواق.

قسمت الجزائر إلى ثمانية خليفليك يتضمن كل واحد منها العديد من الأغاليك الذين يجمعون العديد من القيادات. كان

الخلفاء والآغوات والقياد على رأس تلك المقاطعات. فهذا التنظيم بِجَمْعِهِ القبائل آخذا في الاعتبار الشروط المحلية والمعطيات التاريخية كان يرمي إلى إنهاء الخلافات القبلية وإلى تدعيم الاتحاد ووحدة الأمّة.

إن الخلفاء وهم موظفون ذوو سلطة كانوا يعينون من طرف الأمير لمدّة غير محدودة من بين القادة المهمين. لقد كانت لهم سلطة واسعة، كانوا يجمعون الضرائب وكانت لهم مسؤولية جنرال في قيادة الحرب. كانوا يراقبون الأغوات ويقررون في الاستئناف في القضايا العالقة المتنازع عليها.

كان الأغوات يتكلفون بالشرطة ويدفعون للخليفة منتوج الضريبة والمخالفات ويراقبون القياد. أمّا هؤلاء فإنهم كانوا يسيرون قبيلة أو جزءا من قبيلة ويقسمون الضريبة بين مختلف الدواوير وكانوا مسؤولين عن الأمن. وفي الحرب كان القائد يحكم فرسان القبيلة التي تتمسك فيما يخصها، بشيخها وبقائدها التقليدي. وهكذا يشرح عبد القادر :

"تصل أوامري إلى الخلفاء وتنزل بصفة تسلسلية إلى غاية الشيوخ، ومن هؤلاء تصعد التقارير إليّ بنفس الطريقة. هدفي كان طرد المسيحيين من أرض كانت على ملك آبائنا. وقد تخليت عن استعمال الجواد (الشرف العسكري) والتجأت إلى سلطة المرابطين والشرفاء (الشرف الديني). وإن طول المقاومة التي واصلت تدل على حسن اختياري. ثم إني أبعدت بصفة مطلقة وبدون استثناء كل الممثلين القدماء للحكومة التركية. كانوا

بشعين وكنت أريد أن تتم المقارنة في الحين بين من كانوا لا يريدون الغرور ومتاع الدنيا وأنا الذي ليست لي إلا فكرة واحدة ألا وهي انتصار المسلمين.

لقد فهمت أني لن أستطيع أبدا منع القادة الذين عينتهم أن يقوموا بالابتزاز أو أن أعاقبهم في حالة القيام بالابتزاز إلاّ إذا أعطيتهم أجرا من شأنه أن يسمح لهم بالحياة الكريمة. فمنحت إذن مائة دورو شهريا للخلفاء ثم كذلك صاعا من الشعير يوميا (160 لتر) الشيء الذي يسمح له باستقبال الضيوف الكثيرين الذين يَزورونَهُمْ بدون انقطاع، وللأغوات العشر من كل الضرائب سواء كانت نقدا أو من المواد. والقياد كانت تتم معاملتهم مثل الأغوات ولكن بما أن محكوميهم أقل عددا فإن رواتبهم بالضرورة أقل. كل واحد كان يتحصل على راتبه بالتناسب مع حكمه.

ولحماية عباد الله كما أراه في نفسي ضد ابتزاز قادتهم فقد كنت أطلب من الخلفاء القسم على النسخة المقدّسة لسيدي البخاري على أنهم لم يظلموا محكوميهم. وجعلت نفسي، شخصيا مراقبا لتلك الأعمال".

من بين الخلفاء المشهورين يمكننا أن نذكر سي محمد بوحمادي خليفة تلمسان ومصطفى بن تامي في معسكر والحاج محيي الدين الصغير أولاّ ثم محمد بن علال وليد سيدي مبارك في مليانة. وكان على رأس المدية قائد من المحاربين الهامين محمد البركاني، وكان سي أحمد بن الطيب بن سالم على رأس خليفليك الحمزة وسي طبال بن عبد السلام على رأس

المجانة. وفي الجنوب كان بن عزوز خليفة الزيبان وبن عبد الباقي خليفة الصحراء الغربية. وكان في استطاعة الخليفليك الثمانية أن يعطوا للأمير عبد القادر 59000 محاربا من بينهم 6000 جندي نظامي.

عرفت دولة عبد القادر كيف تؤلف بين البنيات التقليدية والوحدة الضرورية لحكومة وطنية قادرة على القيام بحرب مقاومة.

أهم المؤسسات

لقد زوّد عبد القادر دولته ببعض المؤسسات العصرية الفعالة : العدالة والتنظيم المالي والتعليم وخاصة الجيش.

كانت العدالة تضمن حقوق المواطنين وتعتمد على القانون القرآني. كانت الشريعة مطبقة في أغلب الحالات : الزواج والوصية والبيوع والمواريث وكلها كانت تحت سلطة القاضي الذي كان يقوم بوظيفة الحاكم والموثق والوصي. لقد كانت له صلاحيات في كل ما يخص الأشخاص والممتلكات والسرقات وحتى الجرائم. كان القاضي يختار بناء على مقاييس كثيرة : الكفاءة المثبتة بالنجاح في اختبارات فقهية والشهرة والسلوك الخلقي. كان يعين لمدة سنة قابلة للتجديد. وفي حالة الخطأ الخطير كان في استطاعة الخليفة أن يعزله. وكانت الاستئنافات تستقبل ويتم البت فيها ضد قرارات القاضي من طرف مجلس مركب من أشهر العلماء.

كانت المخالفات ضدّ مصالح الأمة يتم الحكم فيها من طرف أعوان السلطة مثل : التعاون مع الفرنسيين والخيانة والانتفاضة ورفض الوحدة والمساس بالنظام العام والتآمر ضد أمن الدولة والشكاوى ضدّ القبائل. كانت العدالة سريعة ومعتمدة على الشريعة. وبالنسبة للمسائل الصعبة كانت تتم استشارة العلماء النيّرة لإصدار الحكم. والنتيجة كانت أمن الإقليم وشرطة الأسواق وهيمنة السلوكات الحسنة.

كان عبد القادر يولي اهتماما خاصا للثقافة. كان يشجع إحداث المدارس سواء في المدن أو الأرياف. وكان يعلم فيها، بالإضافة إلى القرآن، القراءة والكتابة والحساب. كان هذا التعليم مجانيا وكان في استطاعة التلاميذ الموهوبين مواصلة دراساتهم في المساجد والزوايا حيث يتلقون من طرف الأساتذة دروسا في التاريخ والإلهيات والبلاغة. وكان لأولئك "الطلبة" رواتب منتظمة وقد لخص عبد القادر السياسة الثقافية في قوله : "كان تشجيع التعليم يظهر بالنسبة لي أساسيا إلى درجة أنني توصلت أكثر من مرّة على العفو عن مجرم محكوم عليه بالإعدام للسبب الوحيد وهو أنه طالب".

لقد سهر عبد القادر بصفة خاصة على المحافظة على المخطوطات. فطلب من الجزائريين أن يجمعوا المخطوطات القيمة في مكتبة قد أسسها ولكن الفرنسيين قد دمروها.

كانت حتميات الحرب تقتضي تنظيما ماليا جيدا. كانت كل القبائل خاضعة للضريبة، لأن قبائل المخزن قد تم شطبها.

وكانت أهم الضرائب هي : العشور والزكاة والمؤونة والخطية. فالعشور أو عشر المحاصيل كان يدفع في زمن الحصاد، وكانت الزكاة تؤخذ على المواشي (1٪ من الأغنام و 1/30 من البقر و1/40 من الجمال). والمؤونة كانت مساهمة نقدية تقرر في الحالات المستعجلة وخاصة للاستجابة لحاجات المقاومة المسلحة- يقررها الأمير ويقسمها على كل الخليفليك، ويمكن قبضها في شكل سلع أو حيوانات. الخطيئة هي غرامة تعاقب بها قبيلة في حالة الخطأ الجماعي. "عندما كنت أطلب من القبائل ما هو ضروري لصيانة البايلك كنت أريد قدر المستطاع الموافقة بين مصالحها ومصالح الدولة. لقد أمر الخلفاء بتلقي الضريبة أو الغرامات في شكل حبوب أو بغال أو جمال أو على وجه الخصوص الخيل. فالخيل أو البغال أو الجمال التي لم أكن في حاجة إليها في الحين والتي قد أحتاجها فيما بعد كانت توضع تحت حماية بعض القبائل ويحرصها وكلاء كنت أعينهم لذلك. وكان الكل منظما بحيث نتجنب التبذير وندفع حقوق الحراس على العناية التي كانوا يوجهونها للممتلكات الحكومية".

كانت الضرائب تقبض عموما من قبل القياد والأغوات وتدفع للخليفة. ففي كل أغاليك كان وكيل السلطان يسير ممتلكات البايلك ويؤجّر أراضيه إلى المزارعين وكان وكيل آخر يسهر على مصالح الضريبة.

كان الأمير يكرس كل المداخيل للمصاريف العامة. إلى غاية 1841 لم يقبض أيّ شيء من الخزينة. كل شيء كان يستعمل لصيانة الجيش وشراء السلاح وتسيير الحكومة.

سياسة الأمير الاقتصادية

أولى الأمير اهتماما كبيرا بالمشاكل الاقتصادية. لقد أحدث الظروف المناسبة لتنمية الفلاحة وصناعة البارود والأسلحة الضرورية لجيشه الشيء الذي حمله على تأسيس مدن.

لقد أراح الأمير الفلاحين بشطب ضريبة الخراج، إن فلاحة سنتي 1837 و1838 قد كانت متفوقة على السنوات السابقة. وكان مخزون القمح سنة 1839 يسمح له بالمقاومة مدة سنتين. وفي سنة 1841 أخبر قادة السهول العليا الوهرانية بيوجو أنهم يمتلكون 50 ألف قنطار تسمح لهم بمقاومة طويلة. وصنع الأمير البارود في تلمسان ومعسكر ومليانة والمدية وتاقدمت. وأسس مصنعا للمدافع في تلمسان يديره مهاجر إسباني ومصنع للأسلحة في مليانة مستعملا الحديد المستخرج من منجم في تلك النواحي. وفي كل مقر للخليفلك وفي العديد من القبائل وضع الأمير صناعا للسلاح وللسروج وخياطين... كل هذا كان مرتبطا بالتنمية الحضرية المفروضة بأسباب استراتيجية : هناك خط من المدن أقل عرضة من مدن الشمال. ولهذا فإنه أسس في الجنوب سبدو وسعيدة وتاقدمت وتازة وبغار وبَلْخروب. وفي المدن المؤسسة استقر فيها حضر من الشمال وفتحوا ورشات مثل مصانع البرنس والمدابغ في بغار. وقد سكن في تاقدمت سنة 1840 ألفين حضري جاؤوا من مستغانم ومعسكر. كان فيها مصنع للسلاح ومنشرة وورشة كبيرة للكتان وأخرى تضرب فيها النقود.

كان مجهود التهجير موضوعا على كاهل التجارة الخارجية ولهذا فإن عبد القادر حاول أن تكون لهـه علاقات تجارية خارجية مع المغرب وانجلترا. فطلب من السلطان خاصة السلاح والذخيرة. وعرض على انجلترا "الخيل والبغال والأغنام وكل ما هي في حاجة إليه". فإن القبائل الصحراوية أغرقت البلاد بالسلاح القادم من تونس وتقورت والمزاب وفاس. وسمحت تجارة التهريب الحصول على العديد من المنتوجات الانجليزية والإسبانية. من 1837 إلى 1839 زوّد المغرب الجزائر بـ 160 قنطارا من البارود و4500 بندقية انجليزية وأربعة مدافع وسيوفا وخيامًا. ثم تمت محاصرة التجارة الخارجية الجزائرية من طرف الفرنسيين الذين منعوا الأجانب المتاجرة في الموانئ التي بقيت حرة وهكذا لم يفوا بالصفقات التي تعهدوا بها للأمير. ومن ناحية أخرى، لم يكن للأمير إلاّ سنتين من السلم لينجز برنامجا اقتصاديا وكل المجهودات كانت موجهة للتجهيزات العسكرية الضرورية للحرب.

ويعطينا عبد القادر المعلومات التالية عن النشاطات الاقتصادية لبعض مدنه :

"كنت أصنع بارودي في تلمسان ومعسكر ومليانة والمدية وتاقدمت. وأسست في تلمسان مصنعا للمدافع وكان يشرف عليه مهاجر إسباني جاءني عن طريق المغرب. ولم يُنتج إلاّ بعد مجهودات وصعوبات ولكنه أنتج أخيرا وكان في استطاعتي فيما بعد تحسينه. ومن ناحية أخرى كان لدي مصنع سلاح في مليانة، كان يستخرج الحديد من منجم كنت أستغله في تلك

النواحي. إن هذا المصنع قد تم تنظيمه من طرف عمال أوربيين أتى بهم ميلود بن عراش من فرنسا عندما ذهب إليها بعد معاهدة التافنة ليحمل إلى الملك هداياي. كان يصنع فيها السلاح كاملاً.

وأخيرا أسست في كل حكومة لكل خليفة من خلفائي خياطين وصانعي السلاح والسروج ليصنعوا الملابس الضرورية الجيشي ويصلحوا الأسلحة ولوازم السروج، وفي العديد من القبائل وضعت عمالا مشابهين لأضع كل الحاجات في متناول اليد".

تاقدمت هي التي كانت تشغل المرتبة الأولى في تفكير الأمير : "تاقدمت في مشاريعي كان من المفروض أن تصير مدينة ضخمة ومركزا يربط التجارة التلية بالتجارة الصحراوية، إن هذه النقطة أعجبت العرب فأتوا للاستقرار بها بكل فرح لأنهم يجدون فيها مزايا كبيرة. وقد كانت أيضا شوكة وضعتها في عين القبائل المستقلة في الصحراء التي لم تستطع المجيء لإزعاجي لقد قبضتها من البطن، لقد بنيت تاقدمت على رؤوسهم وفهموا ذلك وأسرعوا بالخضوع".

خاتمــة

فرغم الوقت القليل من السلم الذي تمتع به الأمير - سنتان من 1837 إلى 1839- إلا أنه وضع الأسس لدولة، مبنية على العقيدة الإسلامية حقيقة ولكنها ركيزة مهمة للمقاومة ضدّ

سي قدور بن رويلة الجندي الشاعر الذي جرح في مدينة الجزائر سنة 1830، والذي التحق بعبد القادر ليكون كاتبه الخاص، قد أعطانا أحسن وصف معنوي للأمير :

"الحاج عبد القادر لا يحب الدنيا، فهو يبتعد عنها بقدر ما يسمح له بذلك. إنه يتغذى بقناعة ويلبس دائما أشياء بسيطة ويقوم الليل للدعاء لنفسه ولعباد الله القدير. لا يريد إلاّ الصلاة والصيام ليكفر عن ذنوبه. إنه يخشى الله وهو مؤدب مع جميع الناس. فهو لا يتباهى أمام عباد الله : فهو شريف ولا يريد أن يظهر كذلك، إنه نزيه ولا يريد أبدا أن يأخذ شيئا لنفسه من بيت المال (الخزينة العمومية)، إنه يعدل مع أضعف المسلمين، وهو لا يغادر المسجد إلاّ نادرًا...فهو لا يشرب ولا يأكل ولا يلبس إلاّ حسب ما يأمر به الدين...وعدله في نفس الوقت لطيف وصارم، وقراراته موافقة لكلام أحسن الكتب، لا يتسامح مع من قام بخطإ خطير فهو يعاقب ابنه لو وقع في نفس الحالة وهو يكره الرجل الذي لا يتبع الطريق المستقيم وهو بالعكس يحب من يمارس دينه ولا يضر أحدا، فهو يحبه في الله لا لنفسه ويكره أقرب الناس إليه إذا أذنب نحو الله".

صورة للأمير عبد القادر



مقتطف من رسالة إلى القبائل وتصريح لعبد القادر (نوفمبر 1832) غداة الإعلان عن إمارته.

"نرجو الله أن ينير طريقكم وأن يهديكم ويوجه جموعكم وأن يشمل برعايته مساعيكم وأعمالكم. إن مواطني مقاطعة معسكر وغريس الشرقية وغريس الغربية وجيرانهم وحلفاءهم من بني شقران وسكان البرج وبني عباس واليعقوبية وبني عامر وبني مجاهر وغيرهم ممن لم نذكر، قد اتفقوا بالإجماع على تعييني وبالتالي عينوني في حكومة بلادي وهم يلتزمون بالسير معي سواء في النصر أو الهزيمة، وفي السراء والضراء وأن يكرسوا أنفسهم وأولادهم وممتلكاتهم للقضية المقدسة الكبرى.

ونتيجة لذلك ورغم أننا امتنعنا عن ذلك بشدة، فإننا قبلنا هذه المهمة الثقيلة على أمل أن يكون بوسعنا أن نكون الوسيلة لتوحيد الأمة الإسلامية الكبيرة، وأن نطفئ نزاعاتهم الداخلية وأن نوفر الأمن العام لكل سكان هذه البلاد وأن ننهي كل الأعمال غير الشرعية التي قام بها الفوضويون ضدّ الناس النزهاء وأن نصد ونهزم العدو الذي اجتاح وطننا بغرض استعبادنا ووضعنا تحت هيمنته.

وكشروط لقبولنا، فرضنا على من كلفونا بالسلطة العليا، أنه يجب عليهم أن يمتثلوا في كل أعمالهم إلى المبادئ المقدسة وتعاليم كتاب الله وأن يقيموا العدل كل فيما يخصه طبقا لشريعة النبي بإخلاص وحياد، للقوي وللضعيف وللشريف والتقي. وقد قبلوا هذا الشرط.

لن أعرف قانونا آخر إلاّ القرآن ولن أنقاد إلاّ لمبادئ القرآن وبالقرآن وبه وحده. فإذا خالف أخي القرآن وحتى ولو فعل ذلك ليخلص نفسه، فإنه سيموت". تشورشيل، "حياة عبد القادر" ص67-68

قلعة تاقدمت

وضعت الحجرة الأولى للقلعة الجديدة من طرف عبد القادر نفسه في مايو 1836. فقد صنع هو شخصيا مخطط التحصينات التي ستحيط بها. لقد تخلى عن جزء من الضريبة لكل القبائل في محيط معين عن المدينة شريطة أن يرسلوا عمّالا للمساهمة في بناء الأسوار. ساهم سكان معسكر بالقفاف والمجارف والفيسان. وأرسلت كل من المدية ومليانة المؤن والجبن والفواكه من كل نوع قد شكلت مع الخبز الأبيض وفي بعض المناسبات مع اللحم، تغذية وأجرة للعمال. فارتفعت الديار والطرق بسرعة وبدأ السكان يتوافدون، عائلات عربية ومورية وقراغلة جاؤوا من معسكر ومزغران ومستغانم واستوطنوا بها. وحولت أقباء رومانية قديمة إلى مخازن للذخيرة، الكبريت وملح البارود والنحاس والرصاص والحديد وكذلك كل الآلات والأدوات والتجهيزات التي اشتراها ميلود بن عراش من فرنسا بمبلغ قدره 4000 باوند. وأخرج مصنع للسلاح ثمانية بنادق في اليوم بفضل تقنيين فرنسيين استقدمهم من باريس وقد استفادوا من عقود مناسبة.

وكانت كباسة تصنع النقود من الفضة والنحاس وقيمتها من اثنين سنتيم إلى خمسة شلين حيث نقرأ على إحدى الصفحتين : "هذه إرادة الله، عينته ممثلا لي" وعلى الوجه الآخر "مضروب في تاقدمت من قبل السلطان عبد القادر." وأخيرا وضع 12 مدفعا و6 مدافع هون على الأسوار لتكمله نظام الدفاع.

الشيء الذي كان يتمناه عبد القادر : "مازال لدي الأمل في أن أصلح تاقدمت في عظمتها القديمة. هنا سأجمع القبائل. سنكون في مأمن من هجومات الفرنسيين ؛ وعندما تتجمع كل قواي ومن هذه الصخرة الحادّة سأنقض على المسيحيين، كالنسر من عشه، وأطردهم من مدينة الجزائر وعنابة ووهران"

تشورشيل، حياة عبد القادر، ص : 151-153.

معايير توظيف أعوان الدولــة

ماعدا اثنين من أقاربه، أقصد أحمد بوطالب وهو أحد النواب الثلاثة للوزير الأول، ومصطفى بن تامي وهو خليفة معسكر، فإن كل أعضاء الحكومة والإدارة كانوا أجانب عن عائلته.

إذا كان أغلب الموظفين يوظفون من بين المرابطين والقادة الدينيين أو الأجواد (رجال السيف)، فقد كانوا كلهم أكفاء ومتفانين في سبيل القضية العمومية ومقبولين من طرف السكان.

لقد كان يتم اختيار موظفي الدولة خاصّة من "الأرسطوقراطية الدينية" ولنفهم هذا الخيار لابدّ أن نعرف أن قادة الزوايا أو أعضاء عائلاتهم كانوا محترمين من طرف القبائل لأخلاقهم الطيبة واستقامتهم، وتربيتهم الجيدة وتقواهم. وأحسن مثال أعطاه محمد بن علال الذي كان ينتمي إلى عائلة سيدي علي مبارك المرابطية من القليعة. لقد كان يمثل النوع نفسه للأريسطوقراطية وقد كان في نفس الوقت فخورا بأصله ورجل واجب وتفان. إن موته المجيد في الحرب أثار إعجاب أعدائه الذين أقاموا على جثته تكريما عسكريا. ومن ناحية أخرى لم يكونوا كلهم ينتمون إلى تلك الطبقة لأن الأمير لم يتورع في تعيين كاتب الوزير الأول وهو كاتب قديم لبايات وهران واسمه محمّد الخروبي لنزاهته وخبرته الإدارية، وكذلك أوفى خادم له وفي نفس الوقت صديقه بوحميدي وهو قبائلي مهجن من أسود ومتطوع للحظ الأخير لدى السلطان الذي قضى عليه بالسّم في سنة 1845.

وكان له في الحكومة المركزية رئيس الخزينة الخاصّة، رجل أسود وهو محمد بن فخّة الذي تم اختياره لاستقامتُه وفي وظيفة آغا في ناحية معسكر رجلا مولّدا وهو بوخليفة.

- عبد القادر بوطالب. "الأمير عبد القادر وتكوين الأمة الجزائرية". ص : 101-102.

الفصل الخامس

الجهـاد الأكبـر: عبد القادر وبومعـزة

فأمام تطور سلطة عبد القادر وترسيخ دولته، انتبه الفرنسيون إلى أن معاهدة التافنة لم تسوّ علاقاتهم مع الأمير. فمنذ 1837، حاولوا خلق الصعوبات لعبد القادر، إذ طلبوا منه مراعاة المعاهدة فرفضوا القنصل الذي عينه في مدينة الجزائر وحاولوا تقليص ترابه وطلبوا منه جزية مكونة من القمح والشعير. ومن ناجيته انتبه عبد القادر إلى أن الفرنسيين لم يوقعوا معاهدة السلم إلاّ للضرورة. فكتب ذلك لسفرائه وطلب لمن هو في المغرب أن يذكّر السلطان بأن واجب كل أمير مسلم هو المشاركة في الجهاد وطرد الكفار من أرض الإسلام. وذكر ذلك بنفسه للجنرال دوماس: "أنا أردت الحرب لأن التحضيرات التي يقوم بها الفرنسيون والمؤسسات التي أنشؤوها في كل الجهات، أفهمتني جيّدا أن السلم الذي وافقوا عليه ليس آخر كلمة لهم". فالأمير ومجلسه كانوا معارضين بصرامة لأي تعديات جديدة من طرف الفرنسيين. ولهذا فإنهم رفضوا المعاهدة المضافة التي اقترحها الحاكم فالي. وقد كتب عبد القادر عدّة مرات لـ لويس فيليب طالبا منه أن يتخلى عن البلاغ النهائي الذي يطلب في سنة 1839 التوقيع على المعاهدة المضافة واحترام وعود الفرنسيين بأن يسلموا له البنادق والبارود والرصاص.

كان السبب المباشر لاستئناف الحرب هو خرق مادة معاهدة التافنة التي تحد التراب الفرنسي بالمتيجة. فخرق الفرنسيون المعاهدة بالقيام بحملة عسكرية في البيبان وهكذا فإنهم انتهكوا حرمة التراب الواقع تحت سلطة الأمير. وانذر الأمير المارشال فالي بشهامة: "جاء الانتهاك منكم وحتى لا تتهموني بالخيانة فإني أخبركم بأني أبدأ الحرب، حذروا مسافريكم والمنعزلين. وبكلمة واحدة اتخذوا كل احتياطاتكم كما ترون ذلك". وفي نفس اليوم أعطى الأمر التالي لخلفائه: "جاءت الخيانة من الكافر، وقد برزت أدلة الغدر، لقد مرّ دون رخصة منّي على التراب الذي هو تحت طاعتي فشمروا على برانسكم واربطوا أحزِمتكُم للكفاح، إنه قريب. وعندما تمت استشارة المجلس فإنه أعلن الحرب في الحين.

سيبدأ الجهاد الأكبر

كان تحت أوامر الأمير عبد القادر جيش نظامي وأنصار يأتون من القبائل ومساعدون مشهورون والدعم الشعبي ومحبون في البلدين الجارين وهكذا فإن الجهاد الأكبر قد دام ما يقارب العشر سنين إلى غاية 1847.

قوات الأمير

كل شيء في سياسة الأمير كان مكرسا لبناء جيش قادر وحده على الدفاع عن جنسية الجزائر والدولة الجزائرية. بدأ عبد القادر الحرب بفرسان قبيلته وفرسان القبائل المجاورة ما يقرب

من 12000 فارس كانوا مخلصين له سنة 1834. وسنة بعد ذلك استطاع أن يضع في التكنة وأن يلبس ويطعم 1000 جندي من المشاة تقريبا وشكل به كتيبة قسمها إلى أفواج لها بنادق وسيوف محدبة ومسدسات ولها ستة قطع صغيرة من المدفعية. فالجيش الذي كان يصاحب الأمير أمام عين ماضي كان مركبا من 2000 من المشاة و200 من الفرسان النظاميين وثلاثون من جنود المدفعية.

الجيش الذي كان قائما بالمقاومة الكبيرة بين 1837 و1839 كان مركبًا من قوتين أساسيتين: الأنصار من القبائل والجيش النظامي. أمّا الأنصار فقد كانوا متطوعين تعطيهم القبائل وفي بعض الحالات يكونون رجالا خاصين. فقد كانوا في الأغلب فرسانا ولكن كان كذلك من بينهم المشاة الذين يتابعون الفرنسيين الذين يكونون في حالة دفاعية أو في حالة فرار قد أرغمهم على ذلك الفرسان. كان الآغا مسؤولا عن تجميع المتطوعين والخليفة ينسق نشاطهم. وهكذا مثلا، سيدي محمد بن علال من مليانة، وهو ألمع خلفاء الأمير، كان له خمسة أغاليك: الحجوطيون (440 فارس و1500 بندقية) والجنادلة (915 فارس و1100 بندقية) والزقزق (610 فرسان و2260 بندقية) والبراز (570 فارس و250 بندقية) وأولاد عياد (1180 فارس و1040 بندقية).

أراد عبد القادر أن يكوّن جيشا نظاميا. كان قد رأى عن كثب مجهودات محمد علي في مصر. قد استعمل خدمات الضباط المدربين الذين استخدموا في الجيوش التونسية والمصرية

والأجنبية الذين تمّ تجنيدهم أو الهاربون وخاصّة المرتزقة. لقد أراد تأسيس الخدمة العسكرية الواجبة ولكنه لم يكن له الوقت للقيام بذلك ولا الوسائل لإنجاز رغبته. بقي التجنيد معتمدا على تطوع المواطنين والانخراط كان على مدى العمر أو على الأقل مادام الجهاد متواصلا. كان المتطوعون كثيرين جدّا ويأتون من كل الأوساط وخاصة الفلاحين الفقراء في السنوات الأخيرة، عندما صارت الحرب قاسية جدّا. كان الجيش متركبا من ثلاثة أسلاك : العسكر (المشاة) والخيالة (الفرسان) ورجال المدفعية. كانت الدولة توفر التجهيزات وكان الجنود فيما يخصهم يقبضون أجورا.

وكان تنظيم الجيش مضبوطا بنظام تسلسلي دقيق. أما المشاة فإنهم كانوا مجموعين في أفواج ذات مائة رجل موزعة على خيام (25 رجلا). كل خيمة على رأسها باش سياف وكانت الأوامر تأتي من الآغا أو من الأمير. وكان الفرسان موزعين على سرايا ذات 50 فارسا وعلى رأسهم قائد. وعلى رأس كل المشاة والخيالة نجد آغا كبيرا. وكان الآغوان يأخذان أوامرهما مباشرة من الأمير الذي كان حرسه الشخصي يتكون من سرية من الفرسان السود. أمّا المدفعيون فقد كانوا موزعين بعدد 12 عشر رجلا لكل قطعة مدفعية.

كانت هناك علامات تميز بين مختلف الضباط. كما أن نياشينات شرفية كانت تكافئ الأعمال البطولية. كان الانضباط جادّا جدّا : هناك نداء الحضور في الصباح وفي المساء وكان هناك تفتيش لمراقبة التجهيزات والألبسة مرّة في الأسبوع وكانت

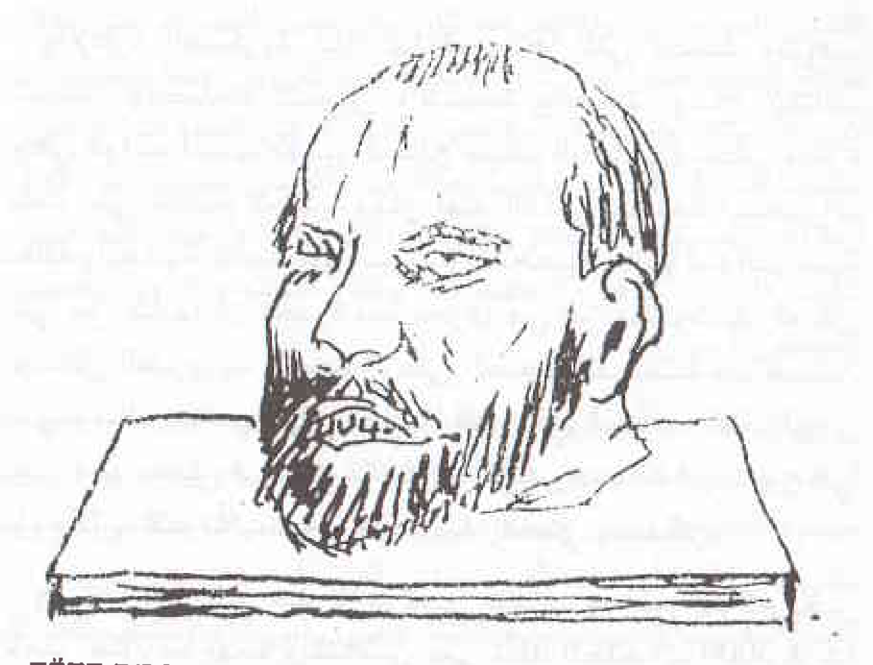
هناك عقوبات محددة لكل حالة ومنصوص عليها في القانون الجنائي الذي وضعه الأمير، كما أن التدريب العسكري كان يتم ثلاث مرات في الأسبوع.

والإدارة العسكرية كان لها قواعدها التي تضبط وتراقب التجنيد، ومصلحة التموين والأسلحة والصحة...وشاح الكتائب (وهي قواعد أسسها الأمير لصالح جيشه النظامي) يعطي نظرة عامّة على تنظيم الجيش. وكان لعبد القادر مصلحة استخبارات فعالة وأبجدية خاصّة للتراسل مع الشخصيات المؤثرة الفرنسية التي من شأنها أن تخبره بما يجري في فرنسا. وكانت له كل الوسائل الضرورية للحصول على الصحف الفرنسية وترجمتها. ففي رسالة موجهة إلى الوزير الفرنسي للحرب، كتب ليون بلين وهو سجين في نيم ما يلي : "للأمير عبد القادر عيون في كل مكان، لقد تأكدت من ذلك عند إقامتي بمعسكره".

وفي باريس، كان جنرال فرنسي متقاعد ورفيع الموقع يخبر الأمير بكل ما يهمه ويتقاضى على تلك الخدمات 3000 قرشا سنويا.

وقوة عبد القادر تأتيه كذلك من متانة أخلاقه. لقد كان يتمتع بشعبوية كبيرة في البلدان العربية وخاصّة في المغرب حيث كان السكان الذين قبلوا الجهاد الذي نادى به الأمير لا يترددون في تزويده بمؤونات متنوعة. فالأسلحة والذخيرة كانت تنزل في الموانئ المغربية ثم تحمل إلى فاس من طرف أحد أعوان السلطان الحاج طالب بن جلون الذي يوجهها إلى الجزائر. لقد تم تأييد عبد القادر من طرف علماء فاس ومن هذا

Portrait de Ben Allel



TÊTE DE MOHAMMED BEN ALLEL OULD SIDI EMBAREK
exposée à Alger
D'après L'ILLUSTRATION du 9 decembre 1843

صورة لابن علال : رأس محمد بن علال ولد سيدي مبارك، معروض في مدينة الجزائر في 1843/12/9

فتوى صدرت في سنة 1837 تحكم على المسلمين الذين يتعاهدون مع الكفار أو على الذين لا يدفعون الضرائب اللازمة لتجهيز الجيش.

فقوات الأمير كانت قبل كل شيء ذات طبيعة معنوية : إرادة القبائل مقاومة المجتاح، والإسلام الذي يدفع الجزائريين على عدم قبول أي خضوع للكفار. لقد ظهر عبد القادر في حربه ضد الجيش الفرنسي، استراتيجيا كبيرا : هجومات وانتصارات للكتائب النظامية في السنوات الأولى، ثم بعد سقوط المدن، التجأوا إلى إستراتيجية الحرب النوميدية : مضايقات ومناوشات وكمائن وهجومات مفاجئة.

الفترات الكبيرة للحرب

نذكر قبل كل شيء المسيرة الطويلة للأمير التي دامت 17 سنة قبل أن نقدم المراحل الأساسية ما بين 1839 و1847. وتتمثل هذه المسيرة في خريطة كبيرة أنجزناها لمتحف الجيش.

وبالفعل فإن الأمير جاب البلاد من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب معبئا الطاقات ومنظما الأنصار ومهاجما بدون انقطاع جيش العدو ومخافره "فيتبعهم وينهكهم ويدمرهم في التفاصيل" كما كتب ذلك إلى أهم خصومه، المارشال بيوجو، لقد كان ذلك انطلاقا من معسكر، المسيرة المنتصرة إلى وهران وإلى تلمسان (1833) ثم الهجوم على الشلف (1834) في اتجاه المدية ومليانة.

وفي سنة 1835 هاجم أنصار الأمير المتيجة وهددوا مدينة الجزائر. ومن جهته، انتصر عبد القادر في السيق والمقطع ودخل إلى معسكر التي احتلها كلوزال.

وفي سنة 1836 انقض الأمير من جديد على تلمسان وانتصر من جديد في معركة التافنة محتما على كلوزال التراجع إلى تلمسان. ثم انقض من جديد على الشلف فحرر القبائل التي أخضعها الفرنسيون. ثم ذهب إلى ندرومة حيث كان يراقب طرق تلمسان ووهران. ولم يتوقف الأمير عن التحرك عازلا بذلك الفرنسيين في مراكزهم. وبعد فشل الفرنسيين في قسنطينة، أمر عبد القادر بهجومات جديدة ضد المتيجة (1836-1837).

وفي سنة 1838، دعم الأمير سلطته في جنوب ناحية مدينة الجزائر، وهو على 12000 فارس وألفين من المشاة، وذلك في بوغار وعين ماضي. وفي سنة 1839، كانت المسيرة السلمية نحو بلاد القبائل واستؤنفت الحرب في سنة 1839 فنزل الأنصار القبائل إلى المتيجة، وقطع جيش خلفاء المدية ومليانة الشلف وهاجم الفرنسيين في وادي العلايق. وفي سنة 1840 وقعت معارك عديدة في المناطق الجبلية بين البليدة والمدية. فاستولى عبد القادر على القمم ووضع فيها قطعة المدفعية. وأمام تقدم الفرنسيين، توجه الأمير إلى مليانة حيث أعطى الأمر بالقيام بحرب الأنصار. كان الأمير لا يمسك لأنه كان يجوب الأرياف ويقطع الشلف من جديد ويتوجه إلى الجنوب ثم إلى الترارة ويحمس القبائل في الحدود ويقود العديد من المعارك ضد الفرنسيين.

ونجده في سنة 1842 من جديد في الشلف حيث يقوم بمعركة كبيرة في وادي الفضّة. ثم هاجم المتيجة وتوجه إلى الونشريس فبلغ الصحراء ودخل إلى معسكر. وبعد سقوط زمالته سنة 1843 قام عبد القادر بهجوماته انطلاقا من تاقدمت.

وفي سنة 1844 قام عبد القادر بهجوم على التل إلى غاية تيارت. ومن جهته قام بومعزة بإثارة قبائل الضهرة والشليف (1845). وتقدم عبد القادر نحو التافنة وتحصل على انتصارين في سيدي ابراهيم وعين تموشنت..

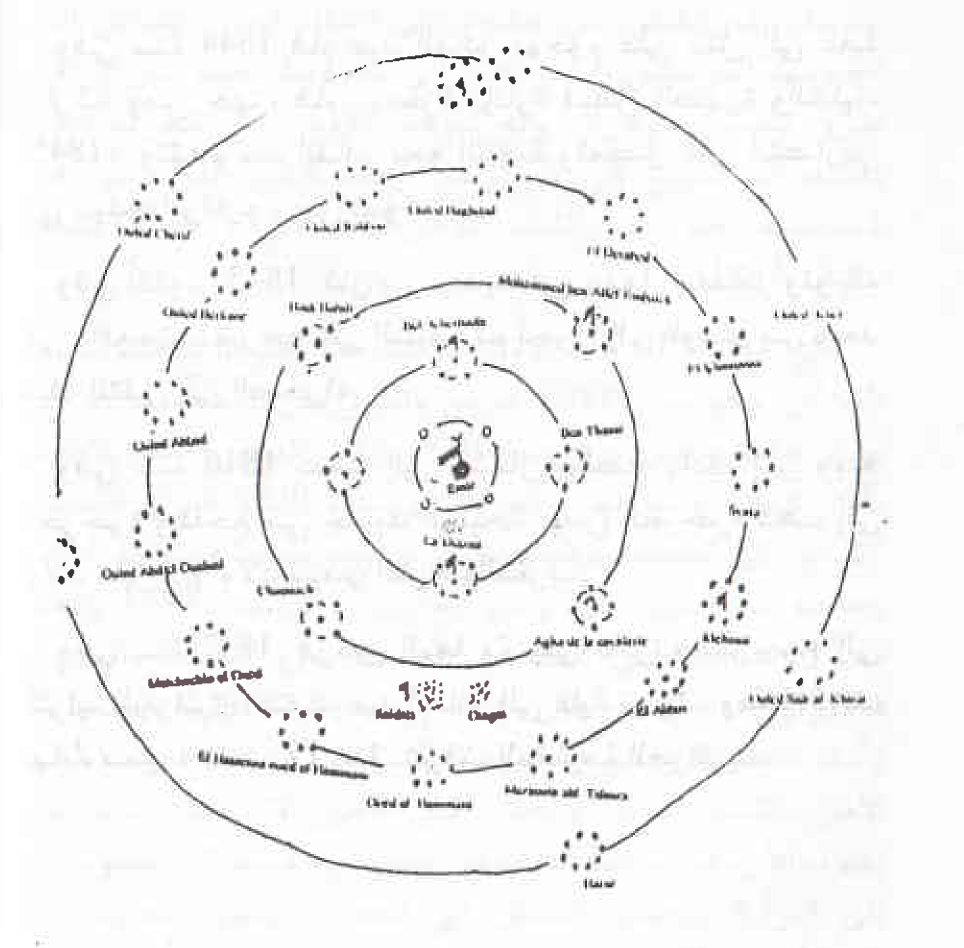
وفي أكتوبر 1845، كان من جديد في سهول معسكر وتوجه إلى تاقدمت ثم رجع إلى الشلف، ثم تحول إلى الونشريس وبعد ذلك انتقل إلى الصحراء.

وفي سنة 1846 صعد إلى الشمال وقطع وادي إسّر وبلغ الجرجرة وهاجم من جديد المتيجة. ومن الجرجرة ذهب إلى أولاد نايل ثم أولاد سيدي الشيخ والمغرب.

وفي سنة 1847، فرض المغاربة على دائرته بالرجوع إلى التراب الجزائري، فتقدم عبد القادر إلى غاية تيارت. وهكذا كانت نهاية مسيرة دامت 17 سنة، شرفت المقاومة الجزائرية.

مخطط لزمالة عبدالقادر : بتاريخ 16 جويليا 1946

Plan de la Smala d'Abdelkadér



انتصار جزائري ولكن سقوط مدن

منذ نوفمبر 1939، قام عبد القادر بهجومات عديدة في المتيجة. لقد تم القضاء على قافلة من الجنود وتحتم على المعمرين الالتجاء إلى مدينة الجزائر. وقد فكر الفرنسيون في بناء جدار فيه قلاع حول منطقة الجزائر لحماية المتيجة والعاصمة. فدمر الجيش الجزائري مفرزة من الجيش الفرنسي إلى ثلاثة أرباعه. ولكن هذا الجيش لم يستطع منع سقوط المدن التي كانت تشكل القواعد الاقتصادية للجيش الجزائري. معسكر وبوغار وسعيدة وتازة تم احتلالها كلها في سنة 1841 ودمرت جزئيا. وفي سنة 1842 جاء دور تلمسان وفي سنة 1843 كان دور تاقدمت وتاجموت ولغواط وتنس. وتحامل العدو بضراوة على كل ما شيده الأمير، فحطّم الورشات والمعامل وقنوات الماء وحرق الديار والكتب والمحاصيل والأعلاف... لقد كانت مقاومة هذه المدن شجاعة. ولم يستطع الفرنسيون احتلال المدية إلاّ بعد خسائر جسيمة في معبر موزاية. ولم يتخل الأمير عن هذه الخسائر وحاول استرجاع مليانة وتاقدمت وتلمسان. لقد تمت هجومات عديدة على القوافل الفرنسية التي تأتي لتموين هذه المدن المحتلة. وهاجر السكان هذه المدن بمجرد وصول الفرنسيين. كل هذا يدل على عناد المقاومة الجزائرية. وحاول الفرنسيون بعد أن تشجعوا باحتلال هذه المدن أن يكسروا مقاومة القبائل سواء بالنار – والغزوات المتعددة وتهديم المشاتي والديار والمحاصيل والزوايا – أو بمحاولتهم التحالف مع بعض القادة بتعيينهم مثلا بايا في مستغانم وآخر في وهران

وبالاعتماد على بعض الإقطاعيين الذين يمثلون العائلات الكبيرة بتعيين باشغوات وآغوات وقياد كانوا في دولة عبد القادر قد ضيعوا مزاياهم التي يأملون في عودتها مع تحالفهم مع الإدارة الفرنسية. وقد تحتم على العديد من القبائل التي رأت تدمير ممتلكاتها - الديار والمحاصيل والقطعان - أن تخضع حتى لو كان لزاما عليها العودة إلى الكفاح فيما بعد.

الاستراتيجية النوميدية

تبنى عبد القادر بعد سقوط قواعده الاقتصادية خطة جديدة، خطة النوميديين ليوغرطة. لقد ذكر ذلك لبيوجو : "عندما يتقدم جيشك، سننسحب، ولكنه سيتحتم عليه أن ينسحب فنعود. إننا نحارب عندما نرى ذلك مناسبا. وأنت تعرف أننا لسنا جبناء. أن نواجه القوات التي تسحبها وراءك، فهذا من قبيل الجنون. ولكننا سنرهقها ونناوشها وندمرها بالتفصيل ؛ ويفعل الجو الباقي. أرسل رجلا ضد رجل أو عشرة ضد عشرة أو مائة ضد مائة أو ألفا ضد ألفا وسترى أننا لن نتأخر. فهل تصعد الموجة عندما يلامسها عصفور؟ هذه هي صورة مروركم بإفريقيا".

فنظم بيوجو صيداً حقيقيا ضد الأمير (1843). فإن هذا الأخير الذي تطارده المفارز الفرنسية كان عليه أن ينتقل باستمرار مع زمالته وهي عاصمة متنقلة. ومع الأسف فقد فوجئت هذه الأخيرة في طاقين في الجنوب الجزائري وضيعت، بالإضافة إلى العديد من جنودها النظاميين كل أموالها.

فانسحب الأمير إلى المغرب (نوفمبر 1843) ولكن بدون دعم من السلطان وخاصّة بعد الهزيمة المغربية أمام الفرنسيين في معركة إيسلي وقنبلة الموانئ المغربية.

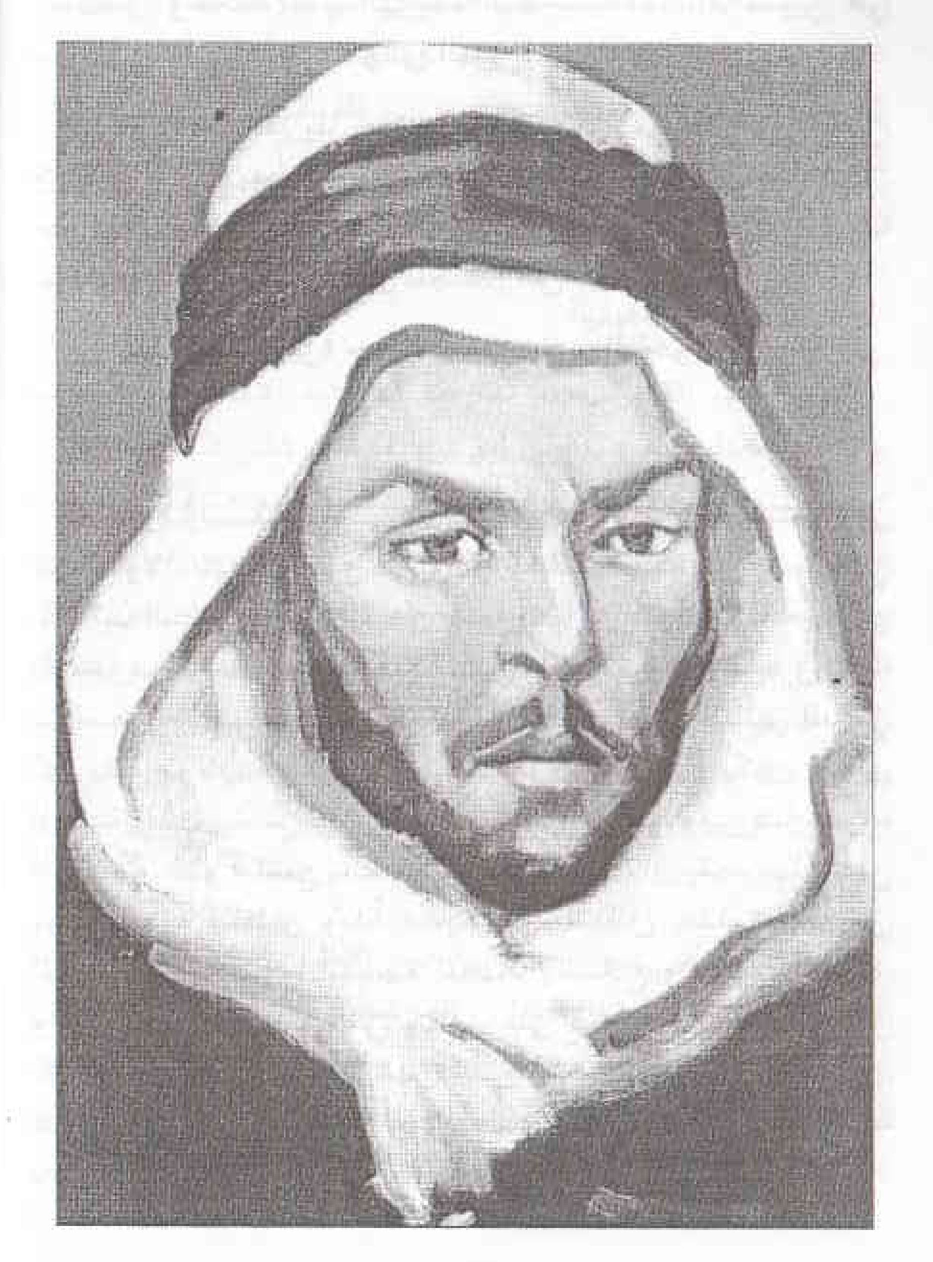
فصار الأمير تقريبا خارجا عن القانون لم يتخل عن الكفاح ورفض اقتراح بيوجو الذي يهديه معاشا وإقامة في مكة. فكان جوابه قاطعا : "أعرف جيدا ديني... وأعرف جيدا أن ساعة أكرسها لمحاربة الكافر لهي أفضل للجندي من سبعين سنة في مكة".

إن انتفاضة بومعزة جعلت الأمير يقرر الدخول إلى الجزائر.

بومعــزة

بومعزة واسمه الحقيقي سي محمد بن عبد الله وينتمي إلى قبيلة أولاد سيدي واضح في وادي الشلف. تجند وهو صغير في الكتائب النظامية لعبد القدر. فبعد تفريق كتيبته، انسحب إلى الونشريس ليقضي حياته في التأمل والصلاة، وهو يقسم وحدته مع معزة ومن هنا اسمه. فبعد أن استولى عليه التأثير الديني لطريقة مولاي الطيب، أراد استئناف الجهاد وأن يكون "مولى الساعة" الذي ينتصر على الكفار وينصر الإسلام. ومن هنا شهرته المقدسة. فهو مقتنع بأنه مكلف بمهمة لابد أن يقوم بها فأعلن بومعزة أنه سلطان وبدأ دعاية في القبائل يطلب فيها من الرجال أن يحضروا أنفسهم للجهاد بالسلاح والصوم والصلاة، واعدا الموتى بالجنة ومن يبقون على قيد الحياة الطيبات من الأرزاق في الحياة. وكانت شهرته تزيد كلما قام بزيارات للقبائل. فحتى من كان خاضعا أوعونا للفرنسيين، كانوا يكتبون له ويزودونه بالأخبار سريا.

صورة بومعـــزة



فأنشأ بومعزة منظمة فيها أعوان إداريون (خوجة وخزناجي وشاوش) وجيشا (عساكر وخيالة مع أجْر). فجند من الجبل رجالا أقوياء قال عنهم ضابط فرنسي : "رجال خارقون للعادة في الحرب، يرون فارسا على مرأى منظارنا ويتحدثون على بعد فرسخين ويعرفون الدروب المجهولة التي تغطيها الثلوج والضباب الكثيف ويرون ويسمعون عندما لا يرى أحد ولا يسمع شيئا".

بدأ بومعزة بالهجوم على القبائل المعادية أو اللامبالية والقياد الذين عينهم الفرنسيون ويعاقب من لا ينضمون إلى الجهاد. واتجه في لقاء هام مع الجيش الفرنسي في عين مران (14 أفريل 1845) قرب مازونة التي زودت الشريف بالعديد من الأفواج. فوصلت الانتفاضة إلى دائرة تنس التي هاجم قائدها محمد بن هاني المعسكر الفرنسي. وفي نفس الوقت انتفضت كل ناحية مدينة الشلف. كل قبائل الشلف والونشريس التحقت ببومعزة. فتجرّأ هذا الأخير على الهجوم على مدينة الشلف ولكن فشل أمام مدافع المدينة. فأرسل الفرنسيون عدة مفارز. وطلب سان آرنو من القبائل غرامات قوية وتسليم البنادق والخيل ودمر القرى ومحاصيل القبائل التي رفضت الاستسلام. فغير بومعزة خطته، فلم يقم بمعارك كبيرة ولكنه هاجم القبائل التي تحالفت (مع فرنسا) فارضا على القياد الذين هم في خدمة فرنسا أن يزودوه بالأخبار وأن ينضموا إلى كفاحه (فمن بين 80 قايدا، التحق 68 ببومعزة).

فرغم حرب الإبادة التي قام بها سان آرنو، بقي بومعزة خارج قبضة اليد. كانت الانتفاضة تنشأ دائما فأضاف بيوجو مفرزتين

إلى مفارز سان آرنو. فتميز بيليسي بحرق أولاد رياح في مغارات الضهرة. فاستقر بومعزة في الونشريس.

فكلف بيوجو بيليسي وسان آرنو بمطاردة آخر المقاومين. فدخل بيليسي في الضهرة وخرب منطقة أولاد رياح. فالتجأ ما يقرب من 1000 من الأشخاص في غار الفراشيش المسمى كذلك جزائر الضهرة (50 كيلومتر من سيدي علي)، كانت هذه المغارة قلعة طبيعية حقيقية طولها 200 متر تقريبا وعلوها متفاوت مع جدران غير منتظمة، فيها شرفات ومجاثم وغرفات صغيرة. فبيليسي بإشارة من خائن جزائري أقام معسكره على الجبل الذي فيه المغارات وأقام الحراسة على مخارج المغارات كما وضع مدفعا كبيرا أمام المخرج الرئيسي للمغارة (18 جوان 1845) وعندما طلب من المحاصرين الاستسلام رفضوا وردّوا بطلقات نارية من بنادقهم. فوضع بيليسي حزمات من الخشب أمام المدخل العلوي وألهب فيها النار. وأمام فشل المفاوضات الجديدة ورفض بيليسي سحب المعسكر كما طلب ذلك المحاصرون، فإنه أعطى الأمر بحرق كل الحطب الذي وضع من طرف الجنود الفرنسيين طول النهار وطول الليل. فتكلم الفرنسيون عن 500 مائة ميت وتحدث ضابط إسباني عن 800 إلى 1000 ميت واصفا بشاعة المظهر : "كانت كل الجثث عارية وفي أوضاع تشير إلى التشنجات التي تعرضوا لها قبل موتهم... كان الدم خارجا من أفواههم". إن القضاء على أولاد رياح المعترف به من طرف بيليسي والموافق عليه من طرف بيوجو الذي غطاه قد أحدثت غضبا عميقا لدى الجزائريين وانفعالا هائلا لدى العديد من الفرنسيين.

وفي الثاني عشر من أغسطس تم ارتكاب جريمة حرب أخرى في مغارات الصبيحة على بعد 5 كيلومترات من عين مران. نهر باطني. شعبة البير قد حفر مغارات تتواصل فيما بينها ببئرين فقط من الخارج. فاختبأ في هذه المغارات ناس من القبيلة. فأضرم سان آرنو النار في الفتحتين (البيرين) وبعد انتهاء النار أغلق المدخلين بصفة مسيكة وهكذا حبس من كان فيها نهائيا. ولكن القضاء على المقاومة لم ينته، كانت تشتد دائما.

عـودة عبـد القـادر

ففي هذه الفترة برز عبد القادر في وادي التافنة. فقد استطاع القضاء في سيدي براهيم، على مفرزة يقودها العقيد مونتانياك (21-24 سبتمبر 1845). وبعد هذا الانتصار هاجم عبد القادر مفرزة من 200 رجل كانت متوجهة إلى عين تموشنت. فسجنوا كلهم من غير حرب وقدموا إلى القبائل. فكانت شهرة الأمير اللامع كالشمس، كبيرة جدا. فالتحق بمعسكر العديد من القياد الذين عينهم بيوجو. وفي نفس الوقت اندلعت ثورات في ناحية مدينة الجزائر مع الخليفة بن سالم المقيم في ناحية دليس. فحاول عبد القادر أن يلتحق بقبائل الجنوب. وظهر بومعزة من جديد في ناحية مازونة، ثم انسحب عند الفليتة حيث كان العديد من المرابطين يدعون إلى الثورة. فكانت الانتفاضة تقريبا عامة.

استأنف بومعزة الهجوم لأنه تشجع بانتصارات عبد القادر. فرأيناه قرب مستغانم ثم في ناحية تيارت. فأقام عبد القادر في

الونشريس فعين بومعزة خليفة، فأرسل بيوجو 17 مفرزة ضد محاربي الأمير وبومعزة وبن سالم. بقي عبد القادر غير قابل للإمساك، واستطاع أن يلتحق بالمغرب عن طريق فيقيق. وعندما صارت دائرته في حاجة إلى المؤن، صعد الأمير حيث أفشل مجموعة مغربية أتت لإيقافه، ثم نزل مع دائرته نهر المولوية التي قطعها. فكان الفرنسيون ينتظرونه قرب وجدة. فطلب منه أوفياؤه أن يتخلى عن دائرته ويلتحق بالجنوب. وعندما رأى الأمير أن المقاومة صارت مستحيلة، استسلم إلى لاموريسيار طالبا أن يقتاد إلى الاسكندرية أو عكا. وقد وعده الجنرال الفرنسي بذلك وأكّد ذلك ابن الملك، الدوق دومال.

ومن ناحيته غادر بومعزة الونشريس رغم جراحه بتاريخ 15 مارس 1846 وبعد أن فرّ من المفارز الفرنسية والتحق بعبد القادر عند أولاد سيدي الشيخ ثم في المغرب. فدعا إلى الجهاد عند بني سناسن وأولاد سيدي الشيخ وأولاد نايل. فصعد إلى الشمال ولكنه لم يستطع أن يحرك قبائل الضهرة المنهكة. فقرر الاستسلام ثمانية أشهر بعد استسلام الأمير عبد القادر.

نجح الفرنسيون في إزاحة القائد الكبير للجهاد ولمعاونيه. فسجن عبد القادر في تولون ثم في قصر في مدينة بو ثم في قصر أمبواز رغم الوعود من لاموريسيار والدوق دومال. وسجن بومعزة في قلعة هام في شمال فرنسا.

لقد تم تدمير دولة عبد القادر لأسباب كثيرة، منها في البداية عدم وحدة المقاومة على المستوى الوطني بين عبد القادر

والباي أحمد في قسنطينة، ثم خيانة العديد من الإقطاعيين الذين التحقوا بالمعسكر الفرنسي للدفاع عن مزاياهم وقبول مناصب باشغا وآغا وقايد في خدمة الفرنسيين. لابد أن نشير أن عبد القادر لم يكن له إلاّ سنتين (1837-1839) لتحضير مقاومة الدولة الجزائرية. كما لابد ألا ننسى الطبيعة الاستعمارية للحرب التي قام بها الجيش الفرنسي : حرق ونهب وبشاعات أشار إليها الضباط الفرنسيون أنفسهم (رسائل من سان آرنو ورسائل مونتانياك وتصريحات بيوجو وبيليسي...).

ولكن وفي وسط القرن لم تنهزم المقاومة الجزائرية بصفة نهائية، لقد بقي العديد من الأقاليم مستقلا : المناطق الصحراوية والقرى القبائلية.

نصـــوص

نداء عبد القادر إلى الجهـاد

إلى أهل جيجل (أكتوبر 1839)

"اعلموا أننا لسنا في سلم مع الكافر وأننا سنخرجه من ديارنا إن شاء الله، سنأتي عن قريب عندكم ؛ كونوا مستعدين للحرب المقدسة (الجهاد). لم يخلقنا الله إلاّ لننصر دينه ونحارب أعداءه الذين يعبدون الكثير من الآلهة. لابد أن يكون المسلمون كالشوكة في عيون المسيحيين. والسلام..."

إلى قبائل ناحية وهران (سبتمبر 1839)

"نيتي استئناف الحرب ضد أعداء الله، وليست الحرب في هذه المرّة مثل ما كانت عليه في الماضي لأنها أغضبت سيدنا النبي، ولكنها حرب مقدسة حقيقية لأن كل واحد يجب عليه أن يتهيأ للموت لطرد الكفار والظفر بالجنة.

ومع هذا لا أخفيكم أن المسيحي قوي وأنه قادر وأننا لا نستطيع النجاح إلاّ بالإجماع في الاتفاق. انظروا إذن وقرروا وإذا شعرتم بعدم الشجاعة للمواجهة جسما لجسم، أعطوني الأموال، كثيراً من الأموال وحينئذ سأهاجمه بجيشي النظامي أو أتعاهد معه لأضمن لكم الطمأنينة المهينة التي مازلتم تريدونها لنسائكم وأبنائكم".

وإلى بلاد القبائل

"اعلموا أيها القبائل أن الله يجعل النصر من نصيبي وذلك لصفاء ذرائعي التي تقودني وليس بسبب عدد الجنود الذين يتبعونني. إذا دعوتكم إليّ فذلك لتخليص بلدكم وليس للزيادة في سلطتي.

اعلموا جيدا أنني لو لم أعترض على التعديات الفرنسية وإن لم أشعرهم بضعفهم، لسبحوا إليكم منذ زمان وكأنهم بحر هائج ولرأيتم مالم تروا لا في أزمنة الماضي ولا في أزمنة الحاضر.

لم يغادروا بلدهم إلا ليفتحوا بلدنا ويستعبدوننا. ولكني الشوكة التي وضعها الله لهم في العين وإذا ساعدتموني سأرمي بهم إلى البحر. وفي حالة العكس فإنهم سيمحقونكم ويهينونكم. استيقظوا إذن من سهادكم واعتقدوا ذلك فإنني لا يحز في قلبي شيء مثل سعادة المسلمين وازدهارهم. لا أطلب منكم التغلب على الكفار إلاّ الطاعة والاتفاق والمشي طبقا لشريعتنا المقدسة...".

حسب دوماس وديسفري، وذكرهما آجرون.

رسالة إعلان الحرب الموجهة من الحاج عبد القادر أمير المؤمنين إلى المارشال فالي

لقد وصلتنا رسالتكم الأولى ورسالتكم الأخيرة وقرأناهما وفهمناهما. لقد أخبرتم أن كل العرب من وَالِسَّة إلى الكاف

مجمعون على الجهاد. لقد بذلت كل ما في وسعي لتهدئتهم ولكن بدون جدوى. ليس هناك صوت واحد مع السلم. كلهم يتحضرون للحرب. وتطبيقا لقانوننا المقدس فإنه يجب عليّ أن أنضم إلى الرأي العام. ولأتعامل معكم بشرف فإنني أعلمكم بما يجري. ارسلوا لي قنصلي الموجود في وهران ليتمكن من الدخول عند أهله، وكونوا مستعدين. كل المسلمين يعلنون الجهاد. ومهما يقع فإنكم لن تستطيعوا اتهامي بالغدر. إن قلبي صافٍ ولن تروني أبدا أخالف العدالة في تصرفاتي".

"كتب يوم الإثنين مساء في المدية، الثاني من رمضان 1255 للهجرة (1839/11/18) ملحق للرسالة- عندما كتبت للملك أجابني بأن إدارة كل الأمور بين أيديكم سواء في السلم أو الحرب. ومثل جميع المسلمين، أختار الحرب فخذوا حذركم بعد هذه الرسالة وأجيبوا كما يبدو لكم لائقا. فالكلام لكم وليس لأحد غيركم"

تشيرشيل، حياة عبد القادر ص 203-204

رفض الاستسلام الذي لا رجعة فيه من طرف أولاد رياح. (ماحكاه الجنرال بيليسي)

بما أن العقيد بيليسي لم يتحصل على استسلام أولاد رياح فإنه قرر حرقهم :

"بما أني لم أستطع الحصول على شيء، قررت أن أضع على مداخل كل المغارات، وبكيفية مغطاة، شرفات تسمح برمي

الحزمات وكأنها ترمى من الطابق الأول إلى الشارع، على الساعة الواحدة كانت الشرفات منتهية وأعمال التبن والحزمات كافية. كل شيء كان مربوطا، فأرسلت إلى المغارات بعض الرجال الذين قرروا الخروج من المغارات، فدعوا الثوار مدة خمس أرباع ساعة ولكن كل شيء كان غير مُجْدٍ فلم يتحصلوا على شيء من أولئك البؤساء. كانوا يطلبون أن ننسحب وأحمل معسكري في مكان آخر، وحينئذ يخرجون من المغارات وينسحبون حيث يبدو لهم ذلك جيّدا.

إن ذلك الاقتراح كان غير مقبول أصلا. وأخير وعند نفاذ الصبر وبما أنني لم أرد البقاء في هذا المكان السيّء، أمرت ببدء التسخين على الساعة الثانية والربع تقريبا. إن النار المضرمة عند المدخل الصغير قد أحدثت اجتذابا كان، للأسف، بمثابة الضربة القاضية عليهم : فقدم لهم اقتراح جديد ولكنهم لم يقبلوا شيئا وأطلقوا النار على المفاوض الذي أرسلته لهم. وعندئذٍ أرسلت عليهم بعض القذائف على المدخل الكبير الذي بدأ جبسه يتساقط من شدة الحرارة قطعا قطعا، ولكنهم في عمايتهم لم يتحركوا أمام هذا التهديد الجديد.

ومنذ ذلك الوقت لم يتم الإبقاء على النار إلاّ لإضاءة المداخل وللتمكن من قمع أيّ محاولة للخروج اليائس وفي الحين وذلك بمحاصرة تلك المداخل".

رسالة من العقيد بيليسي، في "الجنرال يوسف"

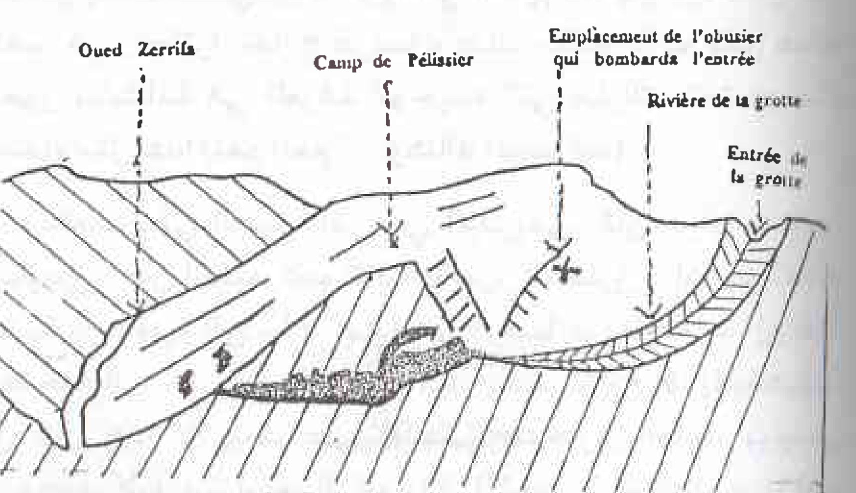
الرأي العام الفرنسي وقضية المغارات

بتاريخ 11 جويليا 1845 في غرفة النواب في باريس تمت مساءلة أمير المسكوفة، منددة بالقضاء على أولاد رياح :

"سادتي، أمارس هنا حقي كعضو في الغرفة العليا لفرنسا ولكنّني أعبر هنا عن شعور ضباط الجيش. فمن شرف الجيش وكرامة الحكومة أن مثل هذه الأفعال تكذب أو يندد بها بصوت عالٍ من طرف السيد وزير الحرب. (جيّد جدًا !). لاحظوا سادتي أن هذا ليس مسألة غزوات ولكنه فعل يؤسف له، إن هذا جريمة تم تنفيذها بصفة معتمدة على عدوّ مهزوم على عدو بدون دفاع. إذا كان الفعل الذي أشير إليه غير صحيح فأنا أطلب من الحكومة أن تكذبه. وإذا كان، وهذا لا يرضي الله، صحيحا فأنا أطلب من رئيس المجلس ما هو السلوك الذي تعزم الحكومة القيام به في مثل هذه الحالة". فالوزير، المارشال سولت، دوق دلمّاسيا، كان منزعجا واكتفى بشجب هذا العمل وادّعى أنه لا يملك معلومات دقيقة. الشيء الذي جرّ التدخل الموالي للكونت دومونتلمبار : "كلمة واحدة فقط. أعترف فيما يخص تأثري الشخصي وأعتذر لدى الغرفة أن أقولها أمامها"

صورة لمغارات الضهرة التي حرق فيها آلاف الجزائريين

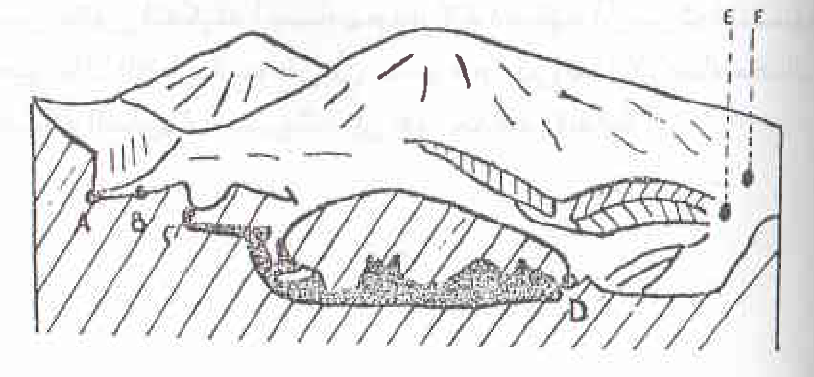
GROTTE DES FRACHICH



GROTTE DES SBEHAS

C et D sont les seuls accès de la grotte

A,B,E et F désignent les grottes visibles



فكلمة أشجب التي استعملها السيد المارشال ضعيفة جدّا بالنسبة لمثل هذا الاعتداء (انقطعت الجلسة، وتحركات مختلفة). لابدّ أن نطلقه ببشاعة من اجل شرف فرنسا...(انقطاع جديد)، أتوسّل إليكم سادتي أن تفكروا في التأثير الذي يثيره مثل هذا الخبر في إنجلترا، خارج فرنسا وأطلب منكم إذا لم يكن هناك شعور بالبشاعة في الغرفة الوحيدة التي مازالت تجتمع أمام اعتداء مثل هذا (نعم !نعم ! ...وهناك اضطراب).

وبالعكس في الجيش الفرنسي الإفريقي، كان الرأي مساندا لبيليسي : فإن العقيد دمونتانياك يبرر المحارق : "إن جرائدكم الغبية بل الغبية إلى ما لا نهاية في فرنسا غريبة للغاية. إن هذا مضحك إلى حد الموت أن نرى كيف يُكتب تاريخ إفريقيا هناك، إن كان هذا لا يبعث على الشفقة. فمحارق العقيد بيليسي تزعجهم. لابدّ من استعمال الوسائل الشعورية لإرضائهم. يا لهم من خنازير ! فلو وجدت نفسي في مثل الوضعية فإنني أعطيهم الوسائل للحرق ! آه ! يا لكم من مغفلين انتم الذين تنعمون بالراحة في دياركم. ولنشد إعجابكم يجب على أولئك المساكين الذين يأتون لتفكيك أجسامهم وإراقة دمائهم أن يتركوا أنفسهم للحيوانات الضارية عوض أن ندمرهم ! كل هذا لإرضاء مطالب محبتكم السفيهة للبشرية... إن هذا مدهش للغاية !..".

الفصل السادس

الجهاد الأكبر

منطقة قسنطينة – بلاد القبائل – الجنوب

في نفس الوقت مع مقاومة عبد القادر وحتى بعد استسلامه، كانت هناك مقاومات أحمد باي في منطقة قسنطينة ومقاومة الجنوب وبلاد القبائل. تواصل الجهاد الأكبر إلى غاية 1857 وهو تاريخ سقوط بلاد القبائل.

مقاومة الحاج أحمد باي

قرر الفرنسيون محاولة بعثة عسكرية جديدة ضد قسنطينة عندما لم يستطيعوا توقيع معاهدة مع أحمد باي. تسلم دامريمون الأمر بالتوجه إلى المدينة. تحركت الحملة العسكرية من قالمة ووصلت إلى هضبة منصورة (أكتوبر 1837) وهاجم من جهة الكدية. كُلِّفَ بن عيسى بالدفاع عن المدينة. مات في هذه الحملة 4 ضباط سامون (دامريامون وبيريغو وكومب وكرمان). لقد دافع القسنطينيون عن كل طريق وكل دار، وتبرز لوحة رافيت المعركة في الشارع الكبير للمدينة (15 أكتوبر 1837). فهاجروا المدينة بعد سقوط ثكنة الانكشاريين وحاول الكثير منهم الالتحاق بالرمال. سقطت قسنطينة ولكن مقاومة أحمد باي ستتواصل في الجنوب حيث انسحب جيشه، فنهبتَ المدينة من طرف الجنود الفرنسيين ولعب اليهود الدور الرئيسي في هذا النهب.

بعد سقوط مدينة قسنطينة سنة 1837، انسحب الحاج أحمد باي برفقة جنوده وقادتهم في الجنوب حيث لم يتوقف عن القيام بالكفاح العسكري والعمل الديبلوماسي. كان الحاج أحمد باي يستقبل من ناحية لأخرى ويساعد مرّة من طرف قبيلة ومرّة من طرف أخرى ولم يتردد في مناوشة المراكز الفرنسية. كان عليه أن يحارب لاسيما الجيش الفرنسي ولكن كذلك القادة القسنطينيين الذين التحقوا بالفرنسيين ورؤساء قبائل كانوا يسلكون سلوك الملوك الصغار.

فما ينبغي أن نشير إليه هو أنه لم يتخل عن المهمة التي حددها لنفسه : مواصلة الجهاد، الوفاء للسلطان وعدم قبول أي سلم مع الفرنسيين دون موافقة هذا الأخير (السلطان). ومن ناحية أخرى، فإن الحاج أحمد قد واصل الحرب مدّة إحدى عشر سنة. ولم تكن هذه المدة الطويلة ممكنة بدون دعم السكان الذين رأوا في الحاج أحمد المدافع على البلاد وعلى الإسلام أمام الغزّاة والكفار.

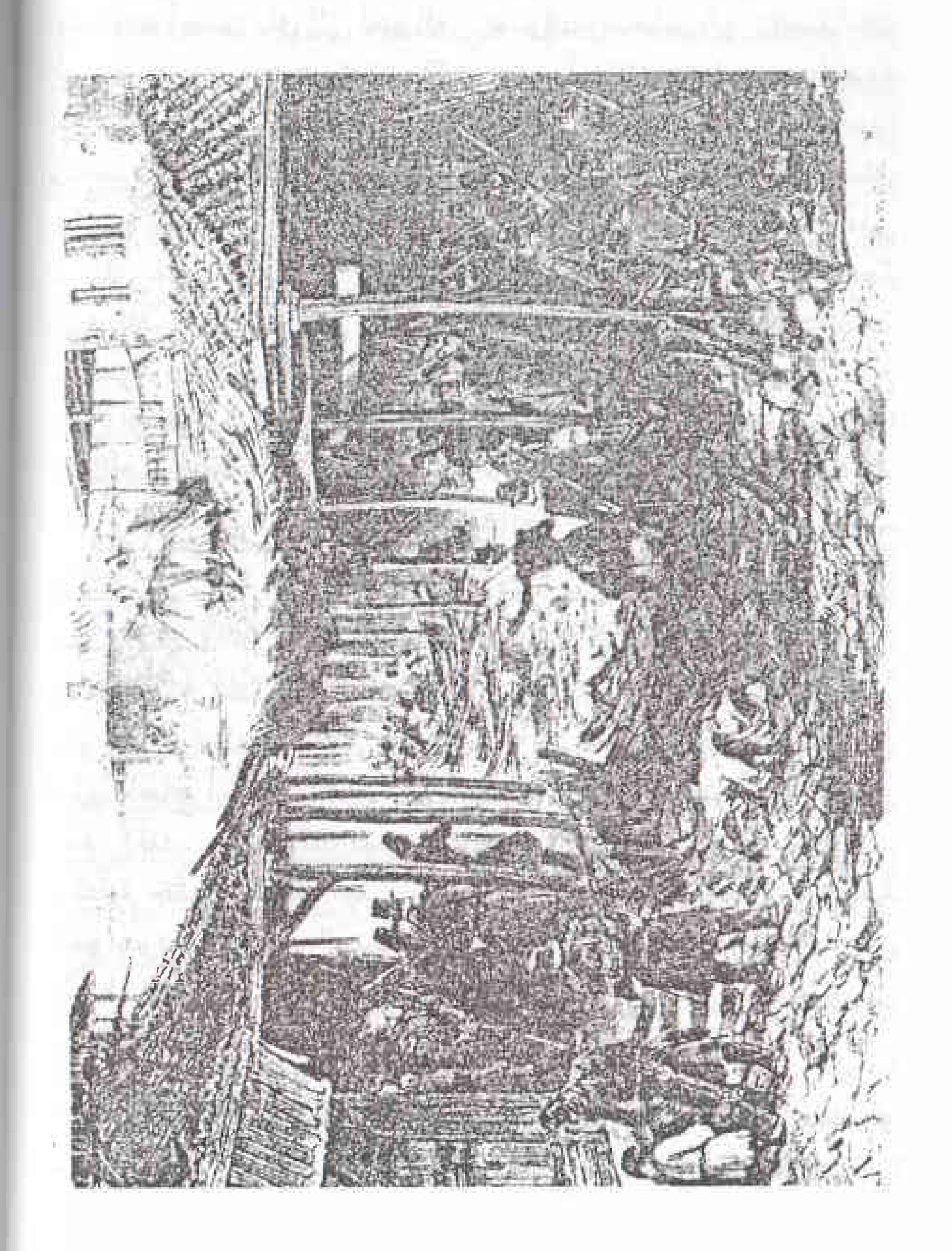
لم يتوقف الحاج أحمد عن مراسلة المسؤولين السامين في إسطنبول وحتّى السلطان ذاكرًا تضحية المسلمين في الجزائر للدفاع عن قضية بلادهم العادلة وعن الإسلام ومذكّرا بواجب الباب العالية : مساعدتهم على طرد الكفار : "فالباب العالية هي اليوم ملاذنا الوحيد. هبوا لمساعدة أهل الدين، لا تتركوهم فريسة للكفار. لم نستلم أي مساعدة وسيحقق الفرنسيون أهدافهم في بلادكم. أنتم مسؤولون أمام الله عن سقوط هذا البلد وهذا الدين، وبالتالي فإننا نوبخكم".

لقد عرف حمدان خوجة الذي كان وقتئذ في إسطنبول نداءات أحمد باي إلى أهم الوزراء. وقدر مجلس الوزراء نداءات أحمد باي ومدح شجاعته ولكنه اعتبر أنه لا يستطيع مساعدته مباشرة فاكتفى بالطلب من باي تونس "بمساعدته". فبعث هذا الأخير إلى إسطنبول ثلاثة رسل يوعزون إلى الباب بأمر باي تونس بمساعدة الحاج أحمد وحمله وحمل عبد القادر على نسيان عدم تفاهمهما وتوحيد جهودهما للقيام بحرب ناجعة ضد الفرنسيين. ولكن الباب العالية وقد أضعفتها أزمة داخلية وصعوبات اقتصادية ودسائس ديبلوماسية فرنسية لم تستطع فعل أيّ شيء أمام أوربا. ولم تتجرأ حتى على الاعتراف بلقب باشا للحاج أحمد.

فلما حرم الحاج أحمد من المساعدة فكر في الانسحاب إلى إسطنبول ولكن الباب العالية لم تكن مستعدة لاستقباله. فبعد استسلام عبد القادر سنة 1847 والتحاق الإقطاعيين العاجزين، وقع الحاج أحمد استسلامه بتاريخ 5 جوان 1848 شريطة أن يتوجه إلى بلد مسلم... ولم يحترم الفرنسيون وعدهم؛ ففرض على الحاج أحمد الإقامة في مدينة الجزائر حيث مات سنتين بعد ذلك. وضع الفرنسيون مجموع منطقة قسنطينة تحت سلطة جنرال قائد أعلى مقيم في قسنطينة، فكل المنطقة الموجودة بين هذه المدينة وستورة والقالة قد تمت إدارتها من طرف الفرنسيين. وحافظت عنابة على مؤسساتها المدنية وسير رائدون فرنسيون دائرة عنابة والقالة وقالمة والأدوغ.

وفي بقية البايلك القديم عين خلفاء قدماء للحاج أحمد أو ممثلون لعائلات كبيرة : بن عيسى في الساحل والحملاوي في

صورة عن سقوط قسنطينة



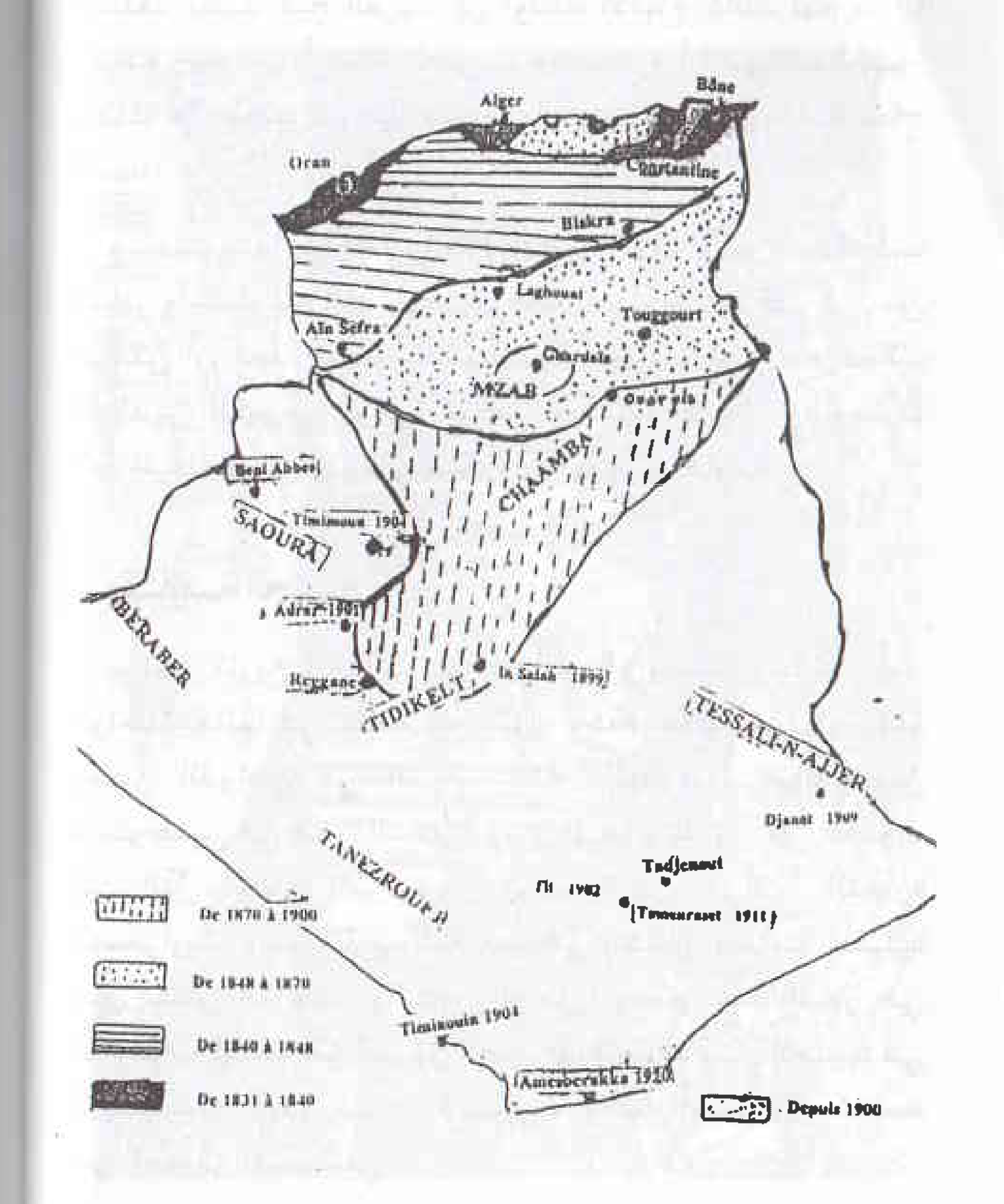
الـ...يوة والمقراني في المجانة وبن ...
ا... بلقبه شيخ العرب. إن أولئك الأتباع ...
... -تحديد أرضية الضريبة ومصادرة أراضي ...
... فإن مصيرهم صار متعلقا بالفرنسيين وليس بـ...
أحمد.

وسجلت سنوات 1847 و1848 نهاية الجهاد الأكبر، جهاد عبد القادر وأحمد باي اللذين لم يعرفا كيف يتوحدان. لقد كان من الممكن أن تجد المقاومة الجزائرية مخرجا آخر مع تحالف القائدين الكبيرين. وهي فرصة أضاعتها الجزائر. فالجنوب الجزائري والجبل القبائلي سيكونان الملجأ للمقاومة.

مقاومة الجنوب

يرتبط تاريخ الجنوب بتاريخ الشمال بصفة وثيقة. كانت الواحات دائما في علاقة مع التل: وهذه حالة تقرت وورقلة ومدن القوافل في المزاب وكان العديد من المزابيين مستوطنين في مدن الشمال. وكان البدو يتنقلون من الجنوب إلى التل. وكان الفرنسيون يرغبون في مراقبة التجارة الصحراوية. ولقد أثارت المقاومة في الشمال تضامنا حقيقيا لدى سكان الواحات والبدو والرحل. ونجح عبد القادر في استقطاب العديد من القبائل الصحراوية حوله وكان الجنوب في 2 خليفليك. وبعد سقوط قسنطينة، واصل أحمد باي كفاحه في الجنوب القسنطيني.

صورة عن سقوط الصحراء



مقاومة الزعاطشة والأوراس

احتل الفرنسيون في سنة 1837 بسكرة وعينوا فيها بنقانة في منصب الشيخ. ويوجد في جنوب بسكرة قصور الزعاطشة وليشانة وفرفار وبوشقرون وطولقة، وكل واحد منها محمي بسور وخندق مملوء بالماء وكانت هذه القصور تأوي واحات غنية والعديد من الحدائق. فالتحرك الموجهُ ضد المكب العربي في بسكرة كان تحت قيادة بوزيان الذي كان باسم عبد القادر مارس وظيفة شيخ في بسكرة وتركها بعد مجيء الفرنسيين وتنصيبهم للمكتب العربي في بسكرة. أوقف الفرنسيون بوزيان بداية جوان 1849. وحرره سكان الزعاطشة. وكان ذلك بداية انتفاضة الزعاطشة. قطع الفرنسيون المواصلات مع الأوراس أما بوزيان ومساعده سي موسى فإنهما دعما الأسوار وصلحوا الخنادق في القصر. وفي جويليا 1849 نجحت مفرزة فرنسية قوية في إخضاع ليشانة وبوشقرون وفرفار وطولقة ولكنها فشلت أمام زعاطشة التي وصلها متطوعون من بوسعادة ومن الأوراس. وبعد أن تم صدهم رجع الفرنسيون إلىٰ بسكرة فصارت سمعة بوزيان هائلة وانتشرت الانتفاضة إلى كل الزيبان وبلغت أولاد نايل والحضنة والأوراس حيث كان سي عبد الحفيظ ينادي بالجهاد. وفي منتصف شهر سبتمبر نزل ما بين 4000 أو 5000 رجل من بلاد القبائل إلى بسكرة عن طريق الوادي الأبيض. كان رجال ونساء الزعاطشة مستعدين للدفاع عن قصرهم. كانت الواحة محمية بأسوار قوية فيها شرفات وخنادق واسعة وعميقة وغابة من النخيل. ومما يجعل التعرف على القصر في غاية من الصعوبة تلك الحدائق العديدة وجدران الطين

وقلة المسالك. في هذا القصر كانت الديار الكبيرة المربعة ذات الفتحات الصغيرة المرتبة بأعجوبة من أجل الدفاع. ولهذا كانت المقاومة شرسة.

وأرسل الفرنسيون في أكتوبر 1849 حملة ثانية ضد الزعاطشة ولكن، أمام فشلهم المتكرر، تحتم عليهم طلب المساندة من قسنطينة تحت قيادة الجنرال هربيوس والعقيد كانروبار. ومن ناحيته فإن بوزيان حاول عدة خرجات وتوصل في واحدة منها اجتياح خندق فرنسي. وأعطيت إشارة الاقتحام الأخير يوم 26 نوفمبر 1849، ورفض سكان القصر الاستسلام ودافعوا على أنفسهم دارًا بعد دار. وقد أعطى بوزيان المثال في ذلك فهدمت داره وسجن هو شخصيا. فأعدمه هربيوس رميا بالرصاص. وكانت جملته الأخيرة : "لقد كنتم أقوى منا، والله وحده هو الأكبر ولتنفذ إرادته" وهذا عمل عقدي وشجاع، وقطع رأسه من جثته وكذلك رأس ابنه الصغير والمرابط سي موسى.

لقد تم تدمير القصر عن آخره ومن بين المدافعين عن القصر لم يبق واحد حيا : أكثر من 800 جثة تم تعدادها بغض النظر عن من هم تحت الركام. وبقيت الأوراس وحدها مكانا للمقاومة. وفي ديسمبر 1849، نزل العقيد كانروبار شعبة الوادي الأبيض وأخضع العديد من القرى ولكنه لقي مقاومة عنيدة في ثلاث قرى من النارة وكانت مبنية على ضفة الوادي ولا يمكن الوصول إليها إلاّ بأدراج نحتت في الصخر. تواعد كل من المقاومين في نارة ولكن شجاعتهم لم تستطع أن توقف كانروبار، فتم تدمير القرى الثلاثة عن آخرها.

وفي سنة 1852، استولى على الأغواط الشريف محمد بن عبد الله الذي دخل من الشرق الوسط. ولكن الفرنسيين استعادوها بعد حصار فتاك مثل حصار الزعاطشة. واستطاع الشريف الانسحاب إلى زاوية الرويسات قرب ورقلة ومنها وبعد تحالفه مع بن سلمى الذي أقام في توقرت، استطاع أن يرسل حملات عديدة ضد الفرنسيين الذين توصلوا إلى احتلال توقرت (1854) والدخول في السوف. وفي سنة 1864 كانت بداية انتفاضة أولاد سيدي الشيخ، وهي مقاومة ستدوم 20 سنة.

فإذا كانت المقاومة الدفاعية كارثية على الجزائريين في الزعاطشة والنارة فإن المقاومة الهجومية قد كانت أكثر فعالية. فنادى محمد بن عبد الله إلى الحرب في كل الصحراء الشمالية فجلب إليه تحالف كل الأرباع وقام في التل بهجومات جريئة. بلغت هجومات أولاد سيدي الشيخ الطيطري وبلاد الفليتة والضهرة وحتى بلاد القبائل الشرقية. وهكذا فإن الصحراء قد كونت منطقة مقاومة متضامنة مع كفاح الشمال.

مقاومة بلاد القبائل

يرمز الجبل في الجزائر إلى مقاومة الأجنبي والاضطهاد. قاومت بلاد القبائل التي كانت مستقلة تقريبا إلى غاية 1845-1846، إلى سنة 1857 بكيفية بطولية. ويفسر هذه المقاومة عدة عوامل : تقاليد حرية واستقلال أمام كل الإجتياحات الأجنبية وتضاريس وعرة فيها كثير من المواقع الدفاعية، وتنظيم متين

في مستوى القبائل والقرى وإيمان ديني يحث السكان على الانضمام إلى الشرفاء الذين كانوا ينادون إلى الجهاد ضد الكفار الذين احتلوا أرض الأجداد.

المقاومات الأولى: الشريف مولاي محمد (1845-1847)

ففي الجزائر التي هي محتلة نوعا ما تبقى الجبال القبائلية مستقلة. قد احتلّ الفرنسيون ما يحيط ببلاد القبائل ووادي الصومام على وجه الخصوص، حيث كانوا يهددون العزيب، رجال الجبال. وبنويعلي الذين كانت قراهم تشرف على منطقة بويرة، اعترفوا سنة 1846 لأول مرة بالسلطات الفرنسية. ولكن عندما تم الحصاد، التحقوا بالجبال ولم يعطوا للفرنسيين شيئا.

مولاي محمد بن عبد الله المسمّى أبوعود، ظهر في جبل ديرة في سبتمبر 1845 وجاء حسب قوله لطرد المسيحيين من بلاد الإسلام. لقد حارب فيما قبل مع بومعزة. وبعد سقوط هذا الأخير، اتصل بالسلطات الفرنسية ولكنه فرّ بعد 24 ساعة. فقام لصالحه برفع راية الإسلام بعد أن دفعه بوشارب الآغا السابق لعبد القادر في الديرة. وتسلم الشريف محاربين من الديرة والونشريس والعذراوة. ومن الجهة الأخرى انتفض أولاد نايل ومولاي محمد أقام في عين حازم. عندما هددت قوم الفرنسيين تحت قيادة خلفاء السيباو والمجانة، دخل في السفوح الجنوابية للجرجرة. وتسلم مولاي محمد مساعدة شريف آخر مولاي ابراهيم الذي كان أقام في المدية وجلب إلى قضية المقاومة

العديد من القبائل. فهاجم بنو جعد معسكرًا فرنسيا في برج الخروب.

جاب مولاي محمد بلاد القبائل مناديا بالحرب المقدسة. ذهب إلى أربعاء الوصيف حيث فشل في الصلح بين الصوفيين- وذهب فيما بعد إلى الأواضيا حيث أغضب القتشولة الذين رأوا تنفيذ الإعدام في واحد منهم لأنه تاجر مع مدينة الجزائر. ولم ينجح في أخذ المال والسلاح الذي تركه بن سالم في زاوية آيت بوعلي في بني دوالة في آغمون. ولم يجد الاستقبال المرجو لدى بني زمنزر. فغادر القبائل في مارس 1846. فأقام الشريف في ساحل القرقور ومنه كتب إلى الشخصيات القبائلية الرئيسية: "إن كنتم غيورين على ربّكم ورسوله وعلى دينكم، كبارا وصغارا، كلكم إلى غاية آخركم فحضروا أنفسكم للحرب في سبيل الله، ستفتح لكم أبواب السعادة وتغلق أبواب البؤس".

فألهب مولاي محمد فيما بين 1845 و1847 نار المقاومة في قبائل جيجل والقل وأفشل بوعكاز الآغا المعين من طرف الفرنسيين. وتجرأ إلى مهاجمة جيجل في أغسطس 1847. وفي الخامس من مايو 1848 استسلم إلى المشادلة وتم سجنه في فرنسا في حصن.

مقاومة بني يعلي وبني مليكوش

هاجم بنو يعلي مفرزة فرنسية كانت تعبر أراضيهم وطردوا الباشاغا الذي أرسل إليهم. فأقام الفرنسيون غزوة ضدهم

وأحدثوا قيادة البويرة. بقيت الوضعية غير مستقرة ؛ علاقات جيدة في الظاهر في أوقات الحرث والحصاد تتبعها الاعتداءات والغزوات بعد المحصول. من جهة نجد بني يعلي في قمم الجبال والفرنسيين في السهل. فالحرب ضد القبائل يختصرها العقيد روبين هكذا : "فلإخضاع القبائل القبائلية يجب الضغط على السكان، يجب الحرق وتهديم القرى وتدمير أو نهب المحاصيل والمؤن كيفما كانت، وقطع أشجار التين والزيتون وإرغام العائلات على الحياة في الغابات...". لقد دمّر الفرنسيون قبيلة العزيب وأرسلوا من البويرة وسور الغزلان القوم ضدّ سكان الجبال. وفي جويليا 1849 تم القيام بهجوم كبير على قوى تبرعمت وسامور والعجيبة وعمبوب من طرف كانروبار. فالتجأ المحاربون القبائل عند بني مليكش الذين كانوا مستقلين رغم حملة فرنسية سنة 1847. فهاجم الفرنسيون بني مليكش، وواجهت هذه القبيلة الهجوم الفرنسي وقد شجعها على ذلك الزّواوة وعلى رأسهم سي الجودي وسي الطاهر أوتوناس، أخو لالة فاطمة نسومر. ثم إلى الزواوة والإلولة وبني عباس والمشادلة وبني منصور قد قاموا بمقاومة بطولية حول قرية عباشة 1849. فاكتفى الفرنسيون بخضوع بعض القبائل في السهل. وبقي الجبل شديد العداوة.

مقاومة مولاي ابراهيم (1849-1851)

تردد مولاي ابراهيم على زاوية سيدي أحمد بن دريس في الإلولة أومالو حيث تمت الإشارة إليه في سنة 1849. وهو مقدم

الطريقة سيدي عبد الرحمان بوقبرين فدعا إلى الجهاد في الإلولة أومالو وفي بني إجام وبني وصيف وبني ينّي... فزار لالة فاطمة نسومر في عرجة. كان عمره وقتئذ 40 سنة وكان يتسم بهيئة مرابط محترم جدّا من طرف القبائل.

وفي يوم 15 فبراير 1850 دعا إلى الحرب المقدسة في بني إراتن الذين استقبلوه كضيف لا كقائد. ثم ذهب إلى بني آيت عومر في تمازرت وفي زاوية سيدي محمد أوالحاج عند بني عيسى وانتهى بالإقامة عند بني مليكش وهي القبيلة الأكثر خبرة والتي لم تخضع أبدًا.

ومن هنا أرسل رسائل ومبعوثين إلى قبائل وادي الساحل. كانت الوضعية خطيرة، فقبائل الجبل بعد الحملة الفرنسية في سنة 1849، فرض عليها الإقامة في السهل ولكن بقي لها مغروساتها في الجبل. فهاجم الفرنسيون الناس الذين رفضوا الإقامة في السهل. فكان الغضب عامّا وفي مايو 1850، استطاع مولاي ابراهيم أن يثير قبائل ناحية بجاية وأكثر من نداءاته خلال الصيف في القبائل الساكنة في أعالي الوادي. وفي يوم 5 ديسمبر 1850، دخل أحد مساعديه وهو محمد بن مسعود مركز آزرو الفرنسي واستولى على الخيل وساقها عند بني مليكش.

فتحرش الفرنسيون ضد بني مليكش وبنوا مركزا، برج بني منصور حيث رسخوا بصفة دائمة رجال قوم تحت قيادة بن علي شريف. فهاجم الفرنسيون العديد من القرى وفشلوا أمام سلوم

الذي كان لمقاومته صدى كبيرا في بلاد القبائل. وفي سنة 1851 استولى مولاي ابراهيم وبن مسعود على قرية بني يخلف من مشدلة. وكانت الوضعية قاسية عند بني مليكش الذين استقبلوا الكثير من اللاجئين. ومن ناحيتهم فقد تعرض قبائل ناحية القل وجيجل لهجومات سان آرنو مدّة أكثر من شهرين (مايو إلى جويليا 1851). إن هذا الأخير قد زرع خرابا بشعا وظن بأنه قد أخضع 40 قبيلة. ولكن شهرا بعد ذلك حملت القبائل السلاح.

بقيت بلاد القبائل مضطربة، كانت الثورات تنفجر في كل مكان، وترفع القبائل الخاضعة رأسها مثل ما هو الحال بقبيلة آيت إيراتن التي استقبلت قيادا معينين من طرف الفرنسيين والتي كان عليها أن تدفع ضرائب حرب ثقيلة. ولإرغامهم على ذلك أعطى الفرنسيون للقياد سلطة رفض تسليم رخصة التنقل وبذلك يمنعون القبائل من التجارة ومن الذهاب للعمل خارج قبيلتهم. لقد نشطت المقاومة فيما بين 1851 و1854 من طرف بوبغلة وهو ظاهرة بلاد القبائل والجرجرة وفي البابور.

مقاومة بوبغلــة

الأمجد بن عبد المالك، سي محمد بن عبد الله بن عبد المالك، هكذا كان يوقع الشريف المسمى بوبغلة رسائله العديدة. كان طالبا جاء من المغرب أو من مليانة أو فارّا من سجن تولون واستوطن في قبائل دائرة أومال (سور الغزلان) سنة 1849. أراد بوبغلة إيقاظ المقاومة في الناحية التي ثورها مولاي ابراهيم. وفي سنة 1851، حاول الفرنسيون إلقاء القبض عليه ولكنه

استطاع الفرار والالتجاء بقلعة بني عباس. وعندئذ بدأ يتحرك بصفة سرية فاتصل ببني مليكش حيث تم استقباله بحفاوة كبيرة يوم 24 فبراير 1851. فقدمت له المساعدة كل القبيلة. وفي أول مارس من سنة 1851 تم الهجوم على مركز فرنسي في السهل بكل نجاح. وأثناء الفنطزية التي أقيمت بهذه المناسبة فوق التبركتين صرح بوبغلة أنه مولى الساعة وتعهّد كل الأعيان بالإخلاص والوفاء لَهُ.

فعين بوبغلة أربعة قياد: الحاج علي نايث أودية في ترعلة وأحمد أوسولة في إغشن وسي الحاج دحو في تبركتين والحاج محيي الدين في إزرار أوقنتو. فظهر أنه منظم كبيرا ويعالج كل القضايا مع رؤساء القبائل وكان يظهر احتراما كبيرا للمرابطين ولا يتدخل في نزاعات الصوف. تبقى القبائل مستقلة وتنشط بكل حرية. كان بوبغلة يركز كل خطبه على كره الأجنبي والشعور بالاستقلال. له أعلامه وموسيقيوه. كان يبهر مناصريه بالتحكم في الخيل وهو محارب مفرط الشجاعة. التحق ببوغلة فرسان قدماء من جيش عبد القادر من أنصار مولاي ابراهيم وطلبة بن دريس....

أرسل رسائل ومبعوثين إلى كل بلاد القبائل. وفي مارس 1851، هاجم بوبغلة زاوية الشلاتة وطرد سي بن علي الشريف ودمّر ممتلكاته. وفي نهاية أفريل هاجم ناحية بجاية وفي مايو وادي بوسلام. فعدد الفرنسيون العمليات وأعادوا تنصيب بن علي شريف في شلاتة وأرغموا بعض القبائل لطاعته.

وانسحب بوبغلة عند قبيلة القتشولة ونصب الفرنسيون جيشهم في معسكر ذراع الميزان (سبتمبر 1851) وأرسلوا مفرزات ضدّ الشريف. فاستطاعوا احتلال قرية تيزيلت ودمروها رغم شهرتها بصعوبة الوصول إليها وفي يوم واحد حرق الجيش 29 (تسعة وعشرين) قرية. إن القبائل من اتحادية المعاتقة استسلموا. وقبائل الفليتة التي واصلت الكفاح استسلمت كذلك (27 نوفمبر 1851). فانسحب بوبغلة في وادي الساحل الأسفل ثم التجأ إلى الجرجرة حيث لم يستطع الفرنسيون متابعته رغم احتلالهم لمركز أكفادو (فبراير 1852). وفي نفس الوقت انفجرت عدة ثورات في منطقة قسنطينة وفي الغرب. وفي مايو 1853 تم احتلال قبائل البابور. سنتان بعد ذلك خرج بوبغلة من ملجئه وقاد المقاومة في أعالي السباو (جوان 1854). استطاع الفرنسيون الوصول إلى بني حيجر حيث تجمع حول تاوريرت وأقمون إيزن أنصار بوبغلة الآتون من إولة ومن بني مليكش ومن الجرْجرة وتم اقتحام التحصينات القبائليّة التي شيدت في تاوريرت من طرف 8 كتائب فرنسية. أحرق كل شيء وسوي أرضا والاضطهاد كان شنيعا. وتحرش الفرنسيون ضد بني حيجر. فتوقفت الثورة وانسحب بوبغلة وتم قتله يوم 26 ديسمبر 1854 في شعبة وادي الساحل. وبقيت بلاد القبائل الكبرى غير محتلة.

مقاومة بلاد القبائـل الكبـرى

فبالنسبة للفرنسيين لن يكتمل الاحتلال إلا بنهاية المقاومة في بلاد القبائل الكبرى. وقد فكروا في ذلك منذ 1852-1853.

فقرروا في مرحلة أولى محاصرة الجبل. فأقام راندون ما سمي بـ "حملة الفيسان" وذلك بفتح العديد من الطرق : الطريق بين سطيف وبجاية ومن دليس إلى أومال (سور الغزلان) مرورا بذراع الميزان والطريق الأكثر أهمية : بجاية-تيزيووزو- مينارفيل- مدينة الجزائر.

وأخيرا رخص نابليون الثالث لراندون أن يبعث حملة كبيرة لاحتلال سلسلة القمم الرئيسية في البلاد من ممر تيرودة مرورا بعين السبت والأربعاء ناث إيراثن وتنزل على السباو، فهاجم الفرنسيون المنحدرات، واحتلوا وخرقوا العديد من القرى : أداني وتمزغت وتقمونت... والهدف الرئيسي هو هضبة سوق الأربعاء. وفي يوم 24 مايو 1857 بدأ الهجوم. وكان على قبيلة ناث إيراثن الخضوع للشروط الفرنسية : الإعتراف بالسيادة الفرنسية والتنقل الحرّ للفرنسيين عبر التراب وتقديم ضمانات بشرية والدفع في الحال لضريبة الحرب. وضع راندون القواعد لحصن من شأنه أن يحرس الجبل القبائلي. إن السور الذي يتخلله 17 برجا كان يحيط 12 هكتارًا حيث بنيت إقامات للضباط وثكنات للمشاة وللخيالة، ومستشفى ومدرسة... وسمّي الحصن فور نابليون واستعمل كقاعدة للعمليات التي تمت ضد المناطق التي لم تستسلم : قبائل الآيت منقلات وبني ينّي. إن الدفاع على إشريدان وهو حصن قبائلي مبني على قمة تفوق الـ1000 م قد تميز بالبطولات الكبيرة : تمّ صد العديد من الهجومات الفرنسية، كما قام المسبلون بأعمال مدهشة في المنازلات الفردية (جسما لجسم)، ودفاع يضمنه نوع من الاتحاد المقدس

بين أنصار آيت منقلات وآيت إيراثن وبني ينّي. فبعد سقوط إشريدان وقرى آيت الأربعاء وآيت الحسن وتاوريرت ميمون، التجأ المقاومون القبائل الذين كانوا يرفضون الاستسلام إلى أعالي الجرجرة ليواصلوا الكفاح. وتم القبض على لالة فاطمة نسومر يوم 11 جويليا 1857. وفي آخر جويليا استسلم أغلب القبائل. من المؤكد أنها دفعت ضرائب حرب بمقدار مليونين. بينما راندون، الذي وعد القبائل باحترام "مؤسساتهم السياسية في القرى"، قام بتقليص الصلاحيات السياسية والإدارية والعدلية للجماعة التي صار أمناؤها ينتخبون تحت رقابة ضباط فرنسيين من المكتب العربي والهدف من ذلك هو إلغاء كل إدارة مستقلة أو حرّة عند القبائل.

كانت مناطق كبيرة من البلاد محتلة ولكن قلوب الجزائريين لم تخضع ويذكرنا بذلك الانتفاضات الكبرى في نهاية القرن التاسع عشر وحتى في بداية العشرين.

النصوص

ملاحظات لابن عيسى حول الدفاع عن قسنطينة (1836-1837)

ابن عيسى أصيل من بلاد القبائل، قد إختاره أحمد باي ليكون باش حامبة، يعني شبه وزير أول، رئيس إدارة الجمارك ومكلف بالخزينة إذ يستطيع أن يضرب النقد ثم إنه قائد المشاة. لقد لعب دورا هاما في الدفاع على قسنطينة.

في سنة 1836 "كُلّفتُ بالدفاع عن المدينة. فخرج الباي مع فرسانه من المدينة ليمنع الفرنسيين من الدخول. كان لدي 1400جندي مسجّل و1000 يقتسمون مهمة الدفاع. دافعنا عن أنفسنا مدّة ثلاثة أيّام بكل شجاعة. لقد قمت بخرجة من باب جبلة وفي اليوم الثالث أخيرًا رأينا الجيش الفرنسي على طريق العودة. كان بيننا من نصحنا بالاستسلام ولكنهم دفعوا بأعمارهم مغبة النصيحة الخائنة. تفرق الفرنسيون في نوع من الفوضى ولم أتابعهم إلاّ مدة قصيرة. وتابعهم الباي إلى غاية رأس العقبة، فأعطيت للباي نصيحة وهو أن يكتب للقبائل وأن يسقطهم بصفة مفاجئة على الفرنسيين ولكنه أجابني : "لا ينام الفرنسيون على هزيمة، سيريدون الانتقام وسيكون مرعبا إذا آذينا ابن الملك الذي هو معهم". فامتنع على دفعهم إلى الأقصى".

وفي سنة 1837 "رجعنا إلى قسنطينة ومباشرة فإن الباي وهو يفكر في الهجوم الذي كنا مهددين به، قام بتحطيم المنازل التي

كانت خارج المدينة، كل ما كان يمتد من جبلة إلى باب الوادي وعلى جنبات كدية عاتي. كان السكان يساهمون من غير إكراه في هذه التحضيرات. كانوا يسهرون بعناية وكانت فتيلة المدافع مشعولة بدون انقطاع. كنا كلنا مستعدين للمقاومة. فحضرت الأسوار وحفرت خندقا وأقمت خلف ذلك تحصينات جديدة. فكل سور كان يغلق مباشرة بحيث إذا دخل العدو المدينة فإنه يقوم بحصار جديد، ولا أعتقد أني أهملت أي احتياط للدفاع على المكان الذي كلفت بالدفاع عنه. وكان معي لمساعدتي الحاج محمد بن الحاج بجاوي، قائد الدار (المسؤول عن البلاط) الذي سقط في الحصار".

-ذكره عبد الجليل التميمي في "بايلك قسنطينة والحاج أحمد باي : 1830-1837.

"وعند مظهر المدينة صاح أمير المسكوفة : "هذه مدينة الشيطان. فجدار السور مبني بالحجر المنحوت والغليظ جدا. فأرسل المحاصرون مفاوضا من الأهالي ومعه علم أبيض ورسالة من الجنرال دامريمون إلى الباي يطلب منه فيها بفتح الأبواب ويقترح عليه شروطه : كان على الباي أن يغذي الجيش الفرنسي ويلتزم الفرنسيون باحترام السكان والمساجد والممتلكات".
جواب المحاصرين كان : "إن لم يبق لكم البارود سنعطيكم، وإن كنتم في حاجة إلى الخبز نرسل لكم منه ولكن مادام هناك رجل مؤمن في المدينة لن تدخلوا فيها".

ورد في مجلة 1-8 أفريل 1838 أخبار عن الاستيلاء على قسنطينة، 1837 ذكرها الدكتور بودانس.

سي قويدر الطيطراوي

وهو رجل درقاوي محارب في كل المقاومات في دائرة المدية، كان أحد مساعدي بوبغلة، سي قويدر بن سي محمد الطيطراوي هو الذي ينظم الاضطراب. كان سي قويدر هذا ينتمي إلى عائلة من المرابطين المحترمين من المفاتح قرب بوغار. وكان أحد أنصار الأكثر حماسا لطريقة الدرقاوة وكان عمره من 40 إلى 45 سنة. كان رجلا قويا وفارسا شديدا وزعم أنه مرابط فقد كان محبا للمخاطر ومغامرات الحرب. فقبل احتلالنا للمدية كان قد استقبل باحتفاء سي موسى بوحمار الذي كان مدة معينة أحد خصوم الأمير عبد القادر وصار أحد مساعديه. سجن سي قويدر سنة 1840 وأرسل إلى فرنسا حيث بقي سجينا عدة سنوات.

وبعد رجوعه إلى الجزائر، فإنه عاد إلى نفس المعيشة ؛ تبع موسى بوحمار في الزعاطشة وعندما قتل هذا الأخير عند الاستيلاء على الواحة (28 نوفمبر 1849) ارتمى في بلاد القبائل وأقام عند أولاد علي أو إيلول في بني صدقة ثم التحق سي قويدر بمولاي ابراهيم ؛ ثم عندما ظهر بوبغلة كشريف ارتبط به وصار، كما قلنا ذلك، أحد معاونيه. لقد أثار سي قويدر الطيطراوي بواسطة الإخوان الدرقاوة تعصبا دينيا كبيرا عند

بني يعقوب والهوارة وبني حسن والمفاتح وأولاد علان إلى درجة أن الجنرال لاميرولت، قائد منطقة المدية طلب أن يخرج بجيشه ليهدئ هذا الإضطراب ويوقف أهمّ المشاغبين.

العقيد روبين، تاريخ الشريف بوبغلة، المجلة الإفريقية 1881، ص340-341.

مقاومة إشريدان

لقد هيّأ القبائل وضعية دفاع، لا في مستوى قرية إشريدان ولكن في وضعية متواجدة 50 متر دونه وكانت مشكلة من تضاريس حجرية مرتفعة إلى نفس النقطة من الحرف الرئيسي وتنزل من كل جهة نحو المجاري المائية العميقة والمحصورة التي سميناها قبل قليل. وكان خَط التخندق الذي طوله كيلومترين يشكل كماشة واسعة الانفتاح أمام المفرزة.

كان هذا الموقع لا يظهر خارقا للعادة وكانت نقطة قوته أنه لا يمكن الوصول إليه إلا مجابهة. ولنأتيه من الخلف يلزمنا القيام بحركة واسعة بالنزول في اعماق الوديان المجانبة حيث وضع القبائل نخبهم الحربية المسلحة بصفة جيدة والمزودة بالذخيرة ولكن لا أحد يبرز.

فلتحضير الهجوم، أطلقت المدفعية النار بكل قطعها ولكن الرشق المصوب نحو عدو غير مرئي ومختف بكيفية جيدة، لا يمكن أن يكون له إلاّ نتائج لا قيمة لها. فتقبله القبائل دون أن يتحركوا وكان يمكن أن نظن بأن خنادقهم قد هجرت.

فتوقف الرشق بالمدفعية وأعطِيَ أمر الهجوم على الموقع. فاسترسلت فرقة بورباكي إلى الأمام، كتيبة من الخط 54 على اليسار وكتيبتان من الخط الثاني من الزواف على اليمين والفوج الأجنبي الثاني من الخط الثاني. فنزلت منحدر الهضبة ووصلت إلى ممر جبلي حيث وجدت نفسها في رواق ضيق ثم بدأت الصعود إلى آخر عقبة تؤدّي إلى إشريدان. فعندما وصل جنودنا إلى 150م عن خنادق العدو قام القبائل الذين لم يطلقوا إلى حدّ الآن طلقة واحدة، بإطلاق كثيف للنار فسقطت طلائع مفارزنا وفي بعض الدقائق أصيب أكثر من 300 رجل فتوقف هجوم جيشنا في الحين رغم الجهود التي بذلها الضباط."

حسب ما قاله العقيد روبين، ملاحظات وثائق متعلقة بانتفاضة القبائل الكبرى،

في المجلة الإفريقية، 1901. ص : 335-337.

الضرائب المفروضة على القبائل المقاومة في بلاد القبائل

إسم القبيلة	تاريخ الخضوع	المبالغ المفروضة
بني راتن	26 مايو 1857	570.000
بني فراوسن	//	72.000
بني خليلي	//	72.000
بني بوشعيب	//	72.000
بني دوالة	27 مايو 1857	89.000
بني محمود	//	101.000
وعدية	10 جوان 1857	139.000
تاقمونت الجديد	//	15.000
بني بوشناشة	//	8.000
بني إرقن	//	16.000
أولاد علي أو إيلول	10 جوان	13.000
أوقدال	//	12.500
بني شبلة	//	12.500
بني أحمد	//	21.500
بني بوعدّو	10 جويليا	15.075
بني عبري	15 جوان	75.000
بني ينّي	1 جويليا	99.200
بني بوعكاش	6 جويليا	37.000
بني وصيف	1 جويليا	48.500
بني بودرار	//	48.000
بني عطاف	6 جويليا	26.500
أقبلس	//	41.500
بني يحيى	//	34.500
بني منقلات	//	53.300
بني بويوسف	//	39.500
الشرفا	10 جويليا	30.000
بني قاني	//	20.000
بني واكور	//	20.000
بني منصور	//	9.000
بني إتورار	11 جويليا	97.150
بني أومالو	//	39.000
بني إليتن	12 جويليا	51.500
بني زيكي	//	7.500
إلولة أصامور	//	25.000
بني مليكاش	//	35.000
أصيف الحمام	//	15.000
بني إيجار	13 جويليا	85.000
عمراوة	//	5.004
بني وقنون	//	1.350
بني جناد	//	1.267
فليسة أم الليل	13 جويليا	449
فرديوة	//	13.922

ن. روبين/ ملاحظات ووثائق متعلقة بانتفاضة 1856-1857 في القبائل الكبرى مجلة إفريقيا.1901، ص 357 - 358.

الفصل السابع

الجزائر أرض استعمار ومستعمرة استيطانية (1830-1870)

وتبع الحملة العسكرية المهاجرون من كل الأصول: الفرنسيون والإسبان والإيطاليون هاربين من البطالة والفقر، ولكن تبعها كذلك الأغنياء الذين كانوا يرغبون في بعث مستثمرات عصرية. هذا بغضّ النظر عن العمال المشاغبين الذين كانت الحكومة تريد طردهم إلى الجزائر بعد اضطرابات جويليا 1830. فالإستعمار الذي نادى به المستعمرون في ذلك الوقت كان يستلزم الرجال. وهكذا تصير الجزائر مستعمرة استيطانية لكل أولئك الأوربيين الذين كانوا يبحثون عن أحسن ظروف الحياة أو عن الثراء.

لكل أولئك المهاجرين، كان لابدّ من الأراضي، المنبع الأول للثراء، وإمكانية أن تبنى فيها القرى والمدن وأن تستغل الثروات الباطنية. وتحت تأثير السلطة العسكرية، أراد القادمون الجدد أن يكونوا قادة المؤسسات الإدارية المماثلة للوطن الأم وأن يتعاملوا كالسادة مع الجزائريين.

الإجراءات الأولى ضد الأراضي الجزائرية

كيف توجد الأراضي للمهاجرين الأوربيين ونحن نعرف أن الطبيعة العقارية للأراضي المسلمة (أرض عرش، حُبُس وحتى

ملك) تتعارض مع تحويل هذه الأراضي؟ فالوسائل الوحيدة التي تؤخذ بها الأراضي هي إمّا القوة أو استعمال قوانين عقارية جديدة.

فانطلاقا من شتاء 1830، ربطت ممتلكات البايلك والأوقاف بالملك العقاري العام الذي استعملها لصالح الاستعمار الاستيطاني. فأوامر 1844 و1846 صيّرت أملاك الحُبس قابلة للتحويل. وهناك جزائريون كانوا لا يعتقدون في استيطان دائم للمهاجرين الأوربيين، فباعوا لهم أراضيهم. ففي منطقة مدينة الجزائر، أعطيت التنازلات العديدة والمساعدات لشركات كي تبني القرى. وفي ناحية وهران وجّه نداء لرأسماليين ليوطنوا عائلات في 14 بلدية.

وفي سنة 1839، تم حجز أراضي القبائل التي حاربت مع عبد القادر وأراضي الجزائريين الذين غادروا ممتلكاتهم ليلتحقوا بالمقاومة. تسلم رهبان نظام لاتراب (La Trappe) قرب سطاويلي 1020 هكتارا و62000 فرنك ليوطنوا عائلات ويبنوا قرية مع حق الانتفاع. ولم يفعلوا شيئا من ذلك وتحوّل حق الانتفاع إلى ملكية كاملة. وبفضل تدعيمات كثيرة والعتاد الذي أعطي لهم، صنع رهبان لاتراب من ملكيتهم أرضا مزدهرة للتعمير وسلموها سنة 1904 إلى عائلة بورجو، وهم معمرون كبار من البروتستانت. وطور بيوجو التعمير العسكري وشغل الجنود في عدة أعمال: الطرق، القناطر، القرى. وبدأ الاستعمار الاستيطاني ينمو ابتداء من 1841. أعطت الدولة بدون شروط أراض مقطعة وهكذا أحدث العديد من القرى، عشرون حول مدينة الجزائر

وخمسة في منطقة وهران. وتزايد عدد السكان الأوربيين عندئذ من 28.736 نسمة سنة 1840 إلى 102.400 ست سنوات بعد ذلك.

واستقر العديد من المهاجرين في المدن، 42.000 في مدينة الجزائر (مقابل 6000 جزائري) و22.500 في وهران (مقابل 2500) و2000 في قسنطينة (مقابل 21000 جزائري). وفتح المهاجرون الحضر اقتصادهم على الخارج. وتم تسهيل هذه العملية بتهيئة موانئ مدينة الجزائر، ووهران وبجاية وعنابة وبتخصيص الاحتكار للعلم الفرنسي (11نوفمبر 1835) حيث لا ترخص التجارة الخارجية إلاّ للسفن الفرنسية وذلك إلى غاية 1866. وتتمتع فرنسا بتخفيض في الرسوم بمقدار 60٪ على المنتوجات الجزائرية، بينما المنتوجات والسلع الأجنبية المستوردة في الجزائر كانت تدفع رسوما ثقيلة.

"السرقة الشرعية" للأراضي الجزائرية في زمن الجمهورية الثانية

تواصل الاستعمار في عهد الجمهورية الثانية والإمبراطورية. فالجمهورية الثانية التي كانت تحمل آمالاً للجمهوريين والعمال الفرنسيين والتي أكدت رسميا أنها لن تستعمل أبدا قواتها ضدّ حرية أيّ شعب، ومع هذا فإنها واصلت في إرسال البعثات العسكرية في الجزائر وواصلت الاستعمار. ودفعت مساعدات قوية لإرسال 17 موكبا نحو 42 مركزا استقبل 12666 معمراً جديدا أغلبهم من العمال "الحمر"، ذهبوا من فرنسا مع بركة الرهبان وبعناية محافل الماسونية.

الجدول التالي يبرز الوضعية في سنة 1851

مسلمون	أوربيون	مراكز وضيعات منشأة	عدد التنازلات	مساحة التنازلات
2.200.000	66.050	150	7446	103.654 هكتار

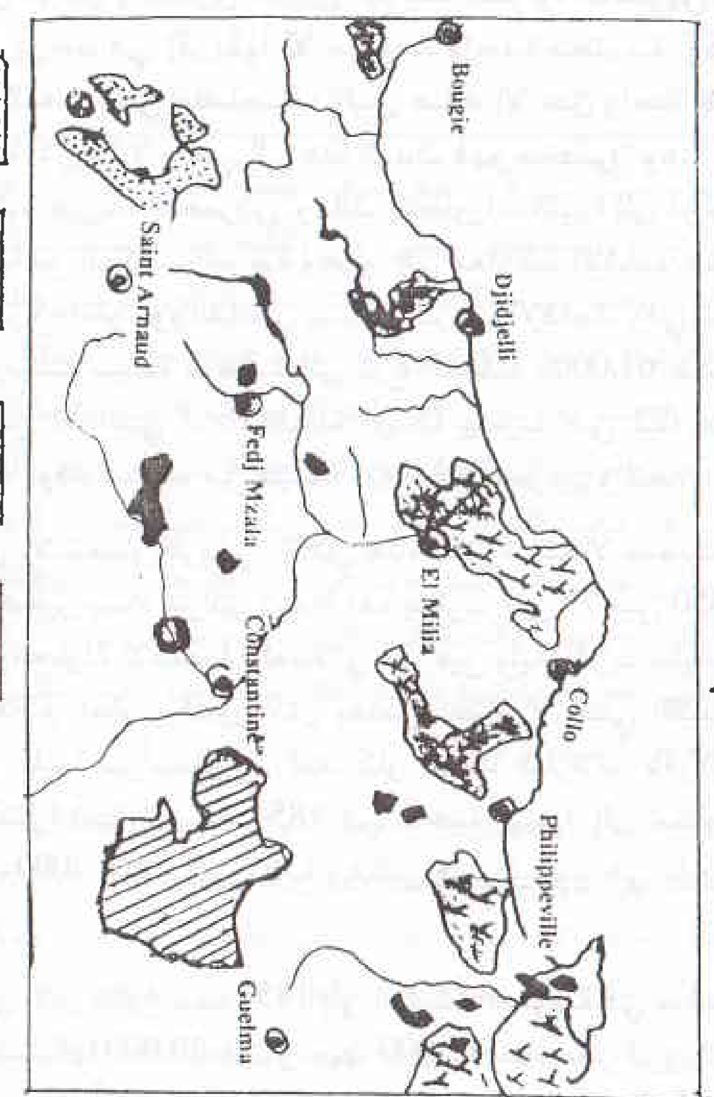
وأعطيت تنازلات مع سند نهائي للملكية. إن عدد نزع الملكيات المستعجل يعلن عن الإقامات الاستيطانية. ويؤكد قانون العقار لسنة 1851 حرمة ملكية الجزائريين والفرنسيين في الشكل الذي كان متواجدًا عليه في زمن الاحتلال ويعترف بعدم قابلية تحويل أراضي العرش. ولكنه لا يسوي مشكلة العقار لأن علة وجود الاستعمار هي الاستحواذ على الأراضي الجزائرية. ومن هنا كانت التأويلات الاستعمارية لملكية العرش. لقد قدر أن القبائل لها أراض أكثر مما هي في حاجة إليه. وهكذا أعطى الدكتور ورمس لإقامة قاعدة شرعية وأكد أن القبائل لا تملك أراضي العرش ولكنها تملك حق استغلالها وأنه يمكن أن تنزع عنهم الأراضي الزائدة.

وتواصل تطبيق الإقامة من طرف المكاتب العربية والمعمرين في عهد الإمبراطورية. وكان حجز الأراضي رهن رغبة السلطات وكان الطرد في طبيعة الأمور. وهكذا فإن القبائل القديمة الموالية للسلطة يعني الدواير والسمالة في ناحية وهران وأولاد خليفة في عين تموشنت وأولاد كسير في الشلف قد حرموا من أحسن أراضيهم. وفي منطقة قالمة ضيعت بعض القبائل أكثر من 50 ٪ من أراضيها. فحكم على

الملاكين القدماء بالفقر وصار المقيمون بدوا وهاجر البعض منهم إلى تونس والمشرق العربي. لم يعد لضراوة المعمرين أي حد: "لا يوجد في إفريقيا إلا مصلحة واحدة محترمة، وهي مصلحة المعمر، هي مصلحتنا؛ وليس هناك إلاّ حق واحد جادّ وهو حقنا. كل ما لا يرمي إلى هذا الهدف فهو مخطئ". وهذا ما كانت تكتبه جريدة المعمرين. وكانت التجاوزات كثيرة إلى درجة أن ضباطا من المكاتب العربية وصلوا إلى معارضة الإقامة. فقد فشل مشروع المرسوم القاضي بتأسيس شرعية الإقامة. وفي سنة 1857 توصّلت سياسة الإقامة إلى نزع الملكية لـ61.000 هكتار من أحسن الأراضي لـ 16 قبيلة أي ما يقارب من 22٪ من ممتلكاتها. وقد استفاد من سياسة الإقامة المعمرون والتجار.

اكتسى الاستعمار الريفي خلال هذه الفترة أشكالا متعددة: استعمار صغير ببناء مراكز ريفية (ما يقارب من 79 بين 1850 و1870) ومحاولة الاستعمار العملاتي في عين بنيان قرب مليانة. ولكن الحاكم العام روندون كان يفضل نظام الأراضي الكبيرة المتنازل عليها للرأسماليين. لقد كان هناك تنازلات لأفراد: 2672 هكتارا أعطيت سنة 1854 في ناحية تيبازة إلى مقاول باريسي و2000 هكتار إلى ثلاثة ملاكين قسنطينيين في ناحية سان آرنو.

وأعطى أكبر تنازل سنة 1853 إلى الشركة الجنيفية في سطيف حيث أعطيت لها 20.000 هكتار، منها 12.000 لبناء عشر قرى كان من المفروض أن تستقبل 500 عائلة من المعمرين، والـ 8000 هكتار الباقية يتم استغلالها لصالح الرأسماليين من الشركة التي



تكلفت خاصّة بضيعاتها ووسعت أراضيها التي صارت 14.518 هكتار وتحصلت على فوائد كبيرة أرسلتها إلى سويسرا وذلك كله باستغلال العمال لجزائريين.

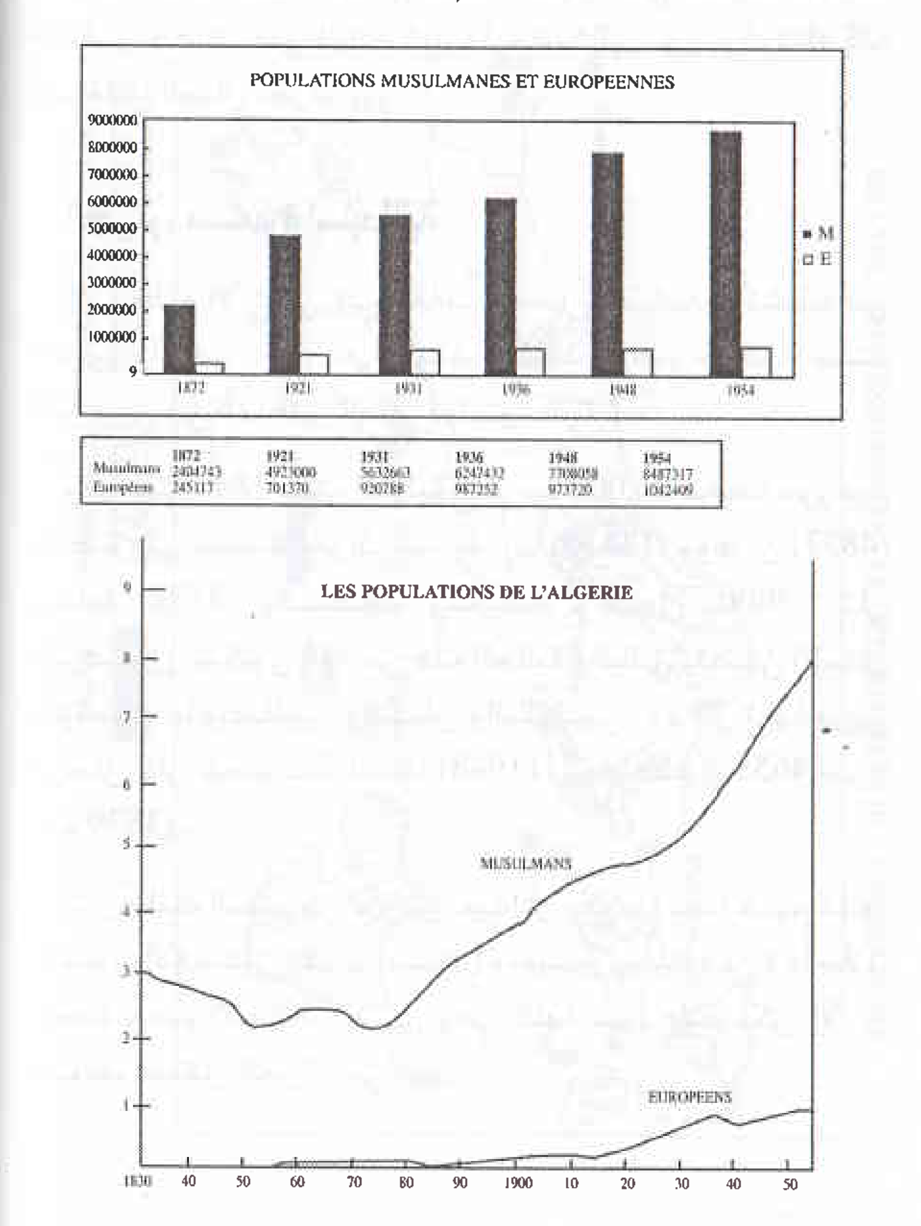
الجزائر، مستعمرة استيطانية

إن إعطاء الأراضي في الغالب مجانا وإمكانية الأنشطة في القرى والمدن التي هي امتداد للمدن الموجودة، جلبت الأوربيين من المناطق الفقيرة المتوسطية.

وفي سنة 1840 بلغت الجالية الأوربية 25.000 شخصا موزعين خاصة على مدينة الجزائر بما يقارب (14430) ووهران (4837) وعنابة (3172) وقسنطينة وسكيكدة وجيجل (3000). كان الفرنسيون يشكلون 44٪ من هذه الجالية والباقي يتضمن الإسبان والإنجليز والإيطاليين والألمان والمالطيين. وعدد المهاجرين الرجال كان ضعف عدد النساء (11948 رجلا مقابل 4655 امرأة سنة 1839).

كان أولئك المعمرون الأوائل بعيدًا أن يكونوا نخبا لأنهم كانوا يدمنون الأفسنتين (شراب مسكر) ويعيشون حياة دعارة وأخلاق منحلة وعدم الاعتقاد الديني وهي كلها عيوب لا يمكن إلاّ أن تضاعف احتقار الجزائريين لهم.

رسوم بيانية



	1872	1921	1931	1936	1948	1954
Musulmans	2404743	4923000	5632663	6247432	7708058	8487317
Européens	245117	701370	920788	987252	973720	1042409

عرفت مسألة الاستيطان والاستعمار، في عهد حكم بيوجو، نموّا كبيرا. تم جلب العديد من المهاجرين بواسطة الإشهار الذي كانت تقوم به فرنسا في بلادها. فبين 1840 إلى 1846 جاء إلى الجزائر 194887 مقابل 117722 ذهابا من الجزائر أي ربح 77.165 مهاجرا لاسيما من الملاكين الصغار من جنوب فرنسا والشمال الشرقي منها ولكن كذلك من المغامرين الفقراء. ومع هذا يبقى عدد الفرنسيين أقل من الأجانب: في سنة 1847 كان العدد 47274 مقابل 62106 وخاصة الإسبان (31528) كفلاحين وعمّالاً حفارين، ومالطيين (8758) وألمانا وسويسريين (8624) وإطاليين (8175). يصير جزء قليل من هؤلاء المهاجرين معمرين (15000 من بين 109.380 في سنة 1847).

وفي عهد الجمهورية الثانية وخاصّة بين 1848 و1850، استقبلت الجزائر مواكب من المهاجرين لتعمير مراكز الاستيطان الـ42 للتعمير المتوقعة للاستعمار. وفي ديسمبر 1850، جاء 12666 معمرا في قوافل و7.836 جنديا قديما. ومن بين هؤلاء الـ20502 شخصا في المجموع، لم يبق إلاّ 10397.

وبين 1851 و1872، كان تزايد السكان الأوربيين متطورا وذلك خاصّة بناء على الهجرة. مرّ عدد السكان الأوربيين من 131283 إلى 245117 (129601 فرنسيا و115516 أجنبيا)، يعني زيادة 113834 منها 105932 مهاجرا. إن هذا الاستيطان الذي تم في الضيعات الثرية والعديد من القرى المحدثة ونمو المدن الكبيرة، شكل إلى جانب الجزائر المسلمة، جزائر أخرى، جزائر الفرنسيين المبجلين اقتصاديا بالنسبة للسواد الأعظم من الجزائريين.

فزيادة على امتلاك الأراضي الخصبة، فقد كان الاستعمار يمتلك العديد من الوسائل الأخرى التي ساهمت في تنمية اقتصاده. هناك قبل كل شيء رؤوس الأموال التي يمتلكها المعمرون الأثرياء والصادرة عن الضرائب العربية وكذلك رؤوس الأموال التي قدمها بنك الجزائر وملحقاته في وهران وقسنطينة وعنابة. كل هذه الوسائل المالية سمحت بالعديد من الأعمال : تنشيف المتيجة، وسدّ خزان في التليلات وعلى الهبرة والحميز والآبار الأرتوازية في الجنوب. كل هذه السياسات المائية كانت أساسا لصالح أراضي المعمرين. فالطرق والسكك الحديدية كانت تشيد حسب حاجات الاستعمار وسمحت ببناء العديد من القرى. واستفادت التجارة الخارجية من أشغال توسيع العديد من الموانئ وتهيئتها.

كانت التجارة كلها بين أيدي الفرنسيين ولهذا فإن قانون الجمركة لسنة 1867 كان يقبل كل المنتجات الجزائرية بدون رسوم في فرنسا (ماعدا السكر) وفي الجزائر كل المنتجات الفرنسية والأجنبية. وقد عرف هذا الاقتصاد الأوربي بعض الأزمات. فقد اعترته أزمة مالية ناتجة عن مضاربات مبالغ فيها قد تم تسجيلها في الفترة 1847-1848، وقد حصل عن ذلك فقر في تربية المواشي والتجارة وتقهقر في الديمغرافيا. أمّا أزمة 1868-1869 فقد مست الأوربيين ولكن هؤلاء، خلافا للمسلمين، قد استطاعوا تحملها بسهولة. وقد تحدث بعض الكتاب عن إقلاع الاقتصاد الاستعماري خلال سنوات المجاعة التي عاشها الجزائريون.

فهناك نجاحات أكيدة أي نجاحات المعمرين الكبار مثل بورلي لاسابي قرب بوفاريك وجول دوبري دوسان مور في ناحية وهران وبيار لافي في ناحية قسنطينة... وكان هناك أيضا ثروات مستغلي الفلين أو المناجم، مثل موكتا الحديد قرب عنابة والعديد من المعمرين كانوا متأكدين من أنهم أدّوا مهمتهم : فقد صاروا أثرياء وسادة للبلاد.

السنة	الفرنسيون	الأجانب				المجموع	السكان الأوربيون
		الإسبان	الإطاليون	الأنجلو- مالطيين	أمم أخرى		
1833	3478	1291	1122	1213	708	4334	7812
1836	5485	4592	1845	1802	837	9076	14561
1841	16677	9748	3258	3795	3896	20797	37374
1845	46339	25335	7738	8047	7862	48982	95321
1851	66050	41558	7555	7507	8813	65233	131283
1856	92750	42218	9472	7114	9244	68048	160798
1861	112229	48145	11815	9378	11179	80417	192646
1866	122119	58510	16655	10627	10079	95980	217099
1872	129601	71366	18351	11512	14287	115516	245117

حسب فيكتور ديمونتاس، الشعب الجزائري، استشهد به ياكونو في "تاريخ الجزائر".

مستعمرات فلاحية تم تأسيسها في الفترة 1848-1849

في ناحية وهران

1 - أبوكير
2 - عين نوصي
3 - عين تدلس
4 - آرزيو
5 - حاسي عامر
6 - حاسي بن فريحة
7 - حاسي بن عقبة
8 - حاسي بونيف
9 - دامسم
10 - فلوريس
11 - خروبة
12 - كليبير
13 - مانجين
14 - ميفسور
15 - مولاي ماقون
16 - ريفولي
17 - سان كلو
18 - سان لو
19 - سان لويس
20 - سوق الميتو
21 - تونين
22 - عين بودينار
23 - عين بوسيدي الشريف
24 - بلاد توارية
25 - بوتليليس
26 - قنطرة الشريف

ناحية مدينة الجزائر

27 - عين بنيان
28 - عين السلطان
29 - عامر العين
30 - بومدفع
31 - بورقيقة
32 - بورمي
33 - كاستيغليون
34 - داميات
35 - العفرون
36 - لافيرم
37 - لودي
38 - مارينغو
39 - مونتينوت
40 - نوفي
41 - بونتيبا
42 - تيفشون
43 - زوريخ

في ناحية قسنطينة

44 - برّال
45 - غاستونفيل
46 - قالمة
47 - هيليوبوليس
48 - جماب
49 - ميلازيمو
50 - موندوفي
51 - بيتي
52 - روبيرفيل
53 - أحمد بن علي
54 - سيدي ناصر

رسالة إلى بيليسي دوق دوملاكوف

رسالة من نابليون الثالث إلى بيليسي (6 فبراير 1863) كانت تتضمن برنامجا سياسيا ومنها أهم توصياته :

"- لا يمكن أن نقبل الاستفادة من تجميع الأهالي، أي الاستيلاء على جزء من أراضيهم لتوسيع حصّة المستعمرات".

"- إقناع العرب بأننا لم نأت إلى الجزائر لاضطهادهم وسرقتهم وإنما أتينا لنحمل لهم منافع الحضارة".

"- للأهالي تربية الخيل والمواشي والزراعات الطبيعية للأرض. للنشاط والذكاء الأوربيين استغلال الغابات والمناجم، والتنشيف والرّي واستيراد تلك الصناعات التي تسبق أو ترافق دائما رقي الاستعمار".

"- ليست الجزائر مستعمرة بمعنى الكلمة ولكنها مملكة عربية. فللأهالي مثل المعمرين إمبراطور العرب مثل الإمبراطور الفرنسي".

قرار مجلس الشيوخ سنة 1863 (سيناتوس كونسيلت)

يتضمن قرار مجلس الشيوخ بتاريخ 22 أفريل 1863 سبعة مواد وأهمها الأول والثاني :

المادّة الأولى : يعلن أن قبائل الجزائر مالكة للأراضي التي تتمتع بها بصفة دائمة وتقليدية مهما كانت صفة التمتع. كل العقود والتقسيمات وتوزيع الأراضي التي حصلت بين الدولة

والأهالي بالنسبة لملكية الأرض هي مؤكدة وتبقى على تلك الصفة.

المادّة الثانية : سيتم بصفة إدارية وفي أقرب الآجال :

1 - تحديد مناطق القبائل.

2 - وتوزيعها بين مختلف الدواوير لكل قبيلة في التّل وفي أراضي الفلاحة الأخرى، بأراض يجب أن تبقى على صفة الأملاك البلدية.

3 - تأسيس الملكية الفردية بين أعضاء هذه الدوّاوير في كل مكان يكون فيه هذا الإجراء ممكنا ومناسبًا".

تطبيق قرار مجلس الشيوخ 1863-1870

تعلق قرار مجلس الشيوخ بـ 6883811 هكتار موزعة كما يلي :

أرض ملك	2840591 هكتارًا
أرض عرش	1523013 هكتارًا
أرض المجالات البلدية	1336492 هكتارًا
ملك الدولة	1003072 هكتارًا
الملك العام	180643 هكتارًا

لقد مس هذا القرار 373 قبيلة حيث تمّ تكوين 667 دوارًا يَهُمُّ 2129052 جزائريا. وهكذا وبصفة "شرعية"، قد سرقت الدولة المستعمرة للجزائريين 2.520.207 هكتارًا يعني 36٪ من أراضيهم.

الفصل الثامن

الجزائريون والنظام الاستعماري

(1830-1870)

فالنظام الاستعماري هو قبل كل شيء هيمنة سياسية وإدارية على الجزائري، الرعية الأهلية. لقد اختفت أغلب مؤسسات الدولة الجزائرية وتمّ تدجين الفتات الباقي من طرف الإدارة الاستعمارية التي غالبا ما كانت منشغلة بالاستخبارات وأمن الفرنسيين وإخضاع الأهالي وهيمنة العنصر الأوربي أكثر من اهتمامها بتحسين الظروف الاجتماعية للسكان الجزائريين.

كانت السلطات العسكرية، خلال كل هذه الفترة، هي التي تدير الجزائر وخاصّة المسلمين. فالإجراءات التي اتخذها نابليون الثالث لم تغير شيئا من النظام الاستعماري. وكان الجزائريون الذين يخدمون هذا النظام قليلين.

الإدارة العسكرية

لقد قام العساكر بالحرب قبل كل شيء واستعملوا الفنية القاسية للغزوات التي كانت تتم خاصّة لنهب القبائل وتموين الجيش. وتعطينا رسائل الضباط في هذا المجال شهادات بشعة. إن الضباط في علاقاتهم مع القبائل المنهزمة كانوا يستعملون الضرب بالعصي والتعذيب والإعدام بدون أحكام كوسيلة للإدارة.

المكاتب العربيــة

كانت شؤون الأهالي تحت إشراف ديوان الجنرال الحاكم منذ 1830. وكان لهذا الجنرال آغا تحت تصرفه ليعطيه أخبارًا جيدة ليستطيع التحكم في العرب. وكان أحدهم وهو محيي الدين من أولاد سيدي مبارك في القليعة إلا أنه لم يعمر طويلا في هذا المنصب أكثر من 14 شهرًا (جويليا 1831- سبتمبر1832). فقد سقطت قيمته في عين مواطنيه الذين كانوا يرون فيه صديقا للفرنسيين وعاجزا أمام تجاوزات العساكر، ففضل الاستقالة. وحينئذ تم ابتداء من 1832 تنظيم "مكتب خاص بالشؤون العربية" مكلف بمتابعة العلاقات مع القبائل وتسليم تقرير يومي عن وضعيتها. فلاموريسيار وهو أول رئيس لهذه المؤسسة، جعل منها جهازا متقنا للإعلام والدعاية. وفيما بعد نظم بيوجو مصلحة المكاتب العربية التي ترسخت بقوة، بعد بعض الاختلالات، في سنة 1841. كان لإدارة هذه المكاتب السلطة على كل ما يخص القبائل : الحرب والإدارة والاستخبارات... كانت مرتبطة بإدارات الشؤون العربية الكائنة في مستوى الأقسام العسكرية التي كانت تراقب المكاتب لمختلف دوائرها.

صار ضباط المكاتب العربية الذين هم همزة وصل بين السلطات العسكرية والسكان، ملوكا صغارا في دوائرهم، يتكلفون بمشاكل الحرب والاستخبارات التي تستعمل في العمليات العسكرية- وبمشاكل الإدارة : الشرطة والعدالة والضرائب والأراضي للتعمير وحراسة القادة العرب... كانوا

يتخذون كل الإجراءات المفيدة لتنمية دائرتهم : استصلاح الأراضي وتنمية المياه وبناء الطرقات. وكان هدفهم الرئيسي هو السهر على إبقاء القبائل المهزومة في الخضوع وأن يأخذوا كل المبادرات اللآزمة في هذا المجال. وهكذا فإن البعض منهم قد دخل في نزاع مع المعمرين النهمين الذين كانوا يطمعون في الأراضي القبلية، الشيء الذي من شأنه أن يثير ثائرة السكان.

لقد أدت السلطات الواسعة للمكاتب العربية إلى تجاوزات : صناديق سوداء تحت التصرف والثراء غير الشرعي والتعذيب بالضرب بالعصي وحتى الاغتيال مثل حالة قضية دوانو في تلمسان. كان المعمرون ينظرون إليها على أنها عقبة في طريق نمو التعمير، ورغم هذا فإن المكاتب العربية لم تستطع أن تجلب إليها القبائل العربية.

السياسة العربية لبيــوجو

أراد بيوجو استعمال القادة التقليديين كوسطاء في العلاقات مع السكان الذين كان يطلب منهم طاعة مطلقة. وهكذا فإنه حاول تدجين الأرسطقراطية العربية بإعطائهم الألقاب : خليفة، باشاغا، آغا- إلى خصوم عبد القادر وحتى إلى أقاربه وإلى قادة من العائلات المرابطة. وأبقى على مزاياه، وأعطى معاشات للبعض وأراد أن تأخذ المكاتب العربية آراءهم في الاعتبار. وأمام الدعم الذي يقدمه العديد من القادة العرب الكبار إلى المقاومة، أراد بيوجو الاعتماد على القادة الصغار آغوات وقيادا. وهكذا فإن أغلب الإطارات التقليديين صاروا موظفين

أعوانا تم تدجينهم من طرف القيادة العسكرية، ويتمتعون بالعديد من المزايا. فالإطارات الكبار كان لهم رواتب قارّة وكان الآخرون يعيشون على ظهر السكان : الزيادة الهائلة في الضرائب، والغرامات العديدة، والأعمال الإلزامية والمصادرات...

كان السكان يتألمون من تجاوزات المكاتب العربية ومن القيادة الأهالي، أضف إلى ذلك قساوة الضرائب والعدالة المستعجلة. وتواصل قبض الضرائب القرآنية : العشور على المحاصيل والزكاة على المواشي في ناحية قسنطينة. فهذه الضرائب التي يتم قبضها بصفة عينية كانت توزع في القبائل والدواوير من طرف القادة العرب الكبار كما يبدو لهم ذلك. كانت العدالة استعجالية ويقوم بها ضباط بدون أي مراقبة. كانت منشورات بيوجو تقترح العدالة السريعة والعقوبات القاسية وتطبيقها في الحين الشيء الذي شكل فيما بعد "قانون الأهالي". وفي ناحية قسنطينة كان الجنرال نيغريي لا يتردد في قطع رؤوس المتهمين بدون حكم. ورغم أمريتين ملكيتين للحد من هذه الممارسات، فقد كانت مراقبة التجاوزات صعبة.

الجزائريون في عهد الجمهورية الثانية والإمبراطورية

أعلنت الجمهورية الثانية : "الجزائر أرض فرنسية" وميزت في الشمال جزائر متواصلة مع فرنسا وفي الجنوب أقاليم عربية. وفي هذا الجزء الأخير كان المسلمون تحت نظام السيف، وفي الشمال فالفرنسيون وحدهم هم الذين عرفوا بداية اندماج

سياسي : الحق في الحصول على نواب وربط بعض الإدارات المحلية بمختلف الوزارات في باريس، والحق في انتخاب المستشارين العامين في مستوى العمالات الثلاثة التي أنشئت. وفي البلديات المحدثة في المدن الشمالية الكبيرة يستطيع الناخبون المسلمون انتخاب أعضاء المجلس البلدي ولكن عدد منتخبيهم يجب ألا يتجاوز ثلث المجلس. ومن المفيد أن نشير أن العديد من الناخبين المسلمين، وفي سنة 1848، الذين أتى بهم ضباط المكاتب العربية، كان عليهم أن يصوتوا على القائمة الوحيدة التي يدعمها العساكر. وهنا بدأت الخيانة الانتخابية التي ميزت الانتخابات الجزائرية إلى غاية 1954.

كان نابليون الثالث حساسا لبعض المحبين للعرب والمعارضين للتجاوزات التي كان الجزائريون ضحية لها. وأنشط أولئك المعارضين إسماعيل أوربان وهو ابن طبيعي لأحد تجار مرسيليا وأم هجينة من غويانة. دخل اسماعيل الإسلام وتعلم العربية وقام بحرب طويلة ضد العنصرية والظلم. نشر كتابين : "الجزائر للجزائريين" و"الجزائر الفرنسية للأهالي والمهاجرين"، حيث يقترح حماية ملكية المسلمين واحترام حقوقهم. وكان يتحدث عن جزائر منشودة ناتجة عن الحضارة العربية وأعمال المهاجرين. لقد أغضبت أفكار اسماعيل المعمرين ولكنها استقبلت جيدا من طرف بعض الضباط ومنهم البارون دافيد والعقيد لابسيط وحتى الإمبراطور الذي يختصر تصوره السياسي هكذا : "فالجزائر ليست مستعمرة بأتم معنى الكلمة ولكنها مملكة عربية. فللأهالي مثل المعمرين حق متساو في

حمايتي وأنا في نفس الوقت إمبراطور العرب وإمبراطور الفرنسيين".

استطاع الإمبراطور من الناحية العملية أن يطبق قرار مجلس الشيوخ لسنة 1863 ضامنا به للقبائل ملكية أراضيهم. وقام في سنة 1865 بسفر تفتيشي إلى الجزائر حيث حيّته الجماهير العديدة من المسلمين وذلك رغم الفراغ الذي كان الجنرال ماك ماهون يحاول أن يحدثه حوله ؛ وتحصل الآلاف من الفليتيين على رجوع المنفيين من كورسيكا. وأرسل مذكرة إلى ماك ماهون يقول فيها : "الجزائر هي في نفس الوقت مملكة عربية ومستعمرة أوربية ومعسكر فرنسي". ولكن أكبر جزء من برنامجه لم يطبق في الواقع من طرف الإدارة.

لقد ثَبّت قرار مجلس الشيوخ المؤرخ في 14 جويليا 1865 الوضع القانوني للمسلم الجزائري : "الأهلي المسلم فرنسي إلاّ أنه يبقى محكوما بالقانون الإسلامي. ويستطيع بطلب منه أن يقبل في التمتع بحقوق المواطن الفرنسي ؛ وفي هذه الحالة ستحكمه القوانين المدنية والسياسية الفرنسية". وهو نص غامض لأن الأهالي يبقون رغم ذلك أنصاف مواطنين من بين الرعايا الفرنسيين. إن هذا القانون (سيناتوس كونسيلت) يسمح لمن تتوفر فيهم بعض الشروط أن يتجنسوا (وهذا غير صحيح، لأن القانون يعتبرهم فرنسيين) ولكن عليهم أن يتخلوا عن قانونهم الخاص.

لقد فشلت سياسة التجنيس لأن المسلمين، من جهة، يعتبرون التخلي عن وضعهم القانوني الخاص نفيا للإسلام وردّة حقيقية، ومن جهة أخرى فإن الإدارة الاستعمارية لم تكن مستعدة لزيادة عدد المواطنين الفرنسيين من أصل جزائري. وهكذا ورغم حسن نية الإمبراطور فإن التدابير المقررة تجاه الجزائريين لم تكن إصلاحات حقيقية.

لقد بقي الجزائري رعية تهيمن عليها إدارة لم يكن ممثلا لديها بصفة حقيقية. وبعد تدجين الإطارات التقليديين وتفقير المجتمع القبلي وتفكيكه فالآفاق الوحيدة التي بقيت له كانت : الخضوع والشكاية أو الثورة المسلحة.

الأزمـات الاجتماعيـة

فالاستيلاء على ممتلكات الجزائريين والمضاربات الأوربية العديدة والمبَالغ فيها، وتدمير المحاصيل في سنوات 1845 و1846 و1847 من طرف الجرَاد، وآفة الكوليرا في سنوات 1849-1850، كل هذه العوامل قد تسببت في أزمات في الأوساط الجزائرية وفي تراجع ديمغرافي مزعج (مليون ساكن في 1850).

صارت الوضعية منذرة بالخطر، فالسنوات الأخيرة من الإمبراطورية وخاصّة ابتداء من 1866 (عام الشر، عام المجاعة). فالأسباب عديدة : بيع القمح من مطامر الشمال، خوفا من الاضطرابات بعد 1866، حصاد سيّء في سنة 1865 وجفاف مروع في 1866 مصحوب بمرور الجَراد الذي لم يوقفه أي عائق

والتهديد بالآفة وزلزال 1867 الذي دمّر جزءا كبيرا من موزايفيل والشفة والعفرون. وكانت ناحية الشلف هي التي أثرت فيها هذه الكوارث، فوضعت المجاعة أوزارها ووصل الناس إلى أكل الفطريات والعروق وقشور الأشجار والأوراق والسيقان، وكان الناس يموتون في الطرقات فتأكل جثثهم الذئاب والضباع. وتعددت الآفات: الكوليرا، التيفوس والإسهال والجدري وداء الحفر. ولم تتحسن الحالة إلاّ في سنة 1869. إن المنحنى الديمغرافي قد كان منذرًا بالخطر فيما بين 1866 و1872، انهيار حقيقي. فقد لاحظ فارنيي: "فالسكان العرب محكوم عليهم بالإنقراض في ظرف زمني قصير". كانوا يفكرون في إمكانية تعويضهم بـ 2.500.000 أوربي. هذه السنوات العويصة قد تضاعفت خطورتها بلا مبالاة السلطات الاستعمارية التي لم تحارب كما ينبغي هذه الكوارث. ففي المدن التي تراكم فيها الفلاحون الذين انتزعت منهم أراضيهم، قد بدأ بروليتاريا من الدرجة الثانية يتكوّن بالتعاطي للمهن التقليدية وخاصّة للنشاطات التي أنشأها المهاجرون الأوربيون. وكان الجزائريون يتألمون من تحطيم الصناعة التقليدية وغلاء المعيشة.

حزب فرنسا

حاول مسؤولون مدنيون وعسكريون أن يلحقوا بالقضية الفرنسية شخصيات ومجموعات من الجزائريين، ذهب البعض إلى غاية المزج الجنسي. فالنقيب ريشار، مسؤول المكتب العربي بتنس، كان يوصي بالزواج المختلط والإدماج: "لدينا مواطنون

فرنسيون يهود وبروتستانت وكاثوليك فلماذا لا نزيد على هذه القائمة المسلمين؟ في الواقع كنا بعيدين عن هذا البرنامج إذ لم نفكر إلاّ في بعض الوسطاء المتميزين الذين ينتفعون بالنظام الاستعماري ويُرَوّمُونهُ لمواطنيهم".

لقد اقترحت وسائل شتى واستعملت، جنود أهالي في صفوف الجيش الفرنسي ومعمرون عرب، والتجنيس وفتح المدارس الفرنسية وحتى التمسيح.

الجزائريون جنود فرنسيون

منذ سبتمبر 1830 فكر كلوزال في تجنيد "فرقة من الأهالي" في قبيلة زواوة. فأدخل جزائريين في الكتائب المكونة من المتطوعين الباريزيين الذين أرادت الحكومة التخلص منهم بعد أيام جويليا. ففي كل فرقة من الصيادين الأفارقة، المحدثة سنة 1831، تم قبول 40 فارسًا عربيا. وفي مايو 1843 تم تنظيم سبايس الفحص (ضاحية مدينة الجزائر) وقرر إحداث أربع فرق نظامية من السبايس تم تجنيدهم من بين الفرسان العرب الذين كانوا في نزاع مع قبائلهم. كانت التطوعات نادرة جدا، فقد التجئ إلى التجنيد المختلط، فتجنيد المسلمين توقف في سنة 1837.

وفي سنة 1848 بلغ عدد المتطوعين الجزائريين 6600 رجل في الجيش الفرنسي ضمن 87000 رجل. بقي التجنيد من الأهالي ضعيفا، فالجنود الجزائريون كانوا غير مقبولين من

طرف المواطنين الذين يرون بأنهم كفار ومرتدون. وكان كره المتعاونين إلى درجة أننا نذكر الأمثلة التالية : لقد قدم أب ولده للموت، لأنه اعتبره كافرا وخائنا. وأم تتوسل إلى ولدها بأن يهجر حزب الكفار ويلتحق بعبد القادر، وبما أن الإبن كان يخشى أن يعدمه الجزائريون، فردت عليه أمه : "حينئذ ستموت مسلما" فالعديد من الأعوان قضى عليهم المقاومون.

وزيادة على هذا وإلى جانب المتطوعين بإرادتهم الذين كانوا يرفضون الالتحاق بالجهاد الذي كان يقوم به عبد القادر، فقد كان أيضا هناك فرقة غير منتظمة من الفرسان الأعوان وفرقا يحكمها قادتها وتمثل العائلات الإقطاعية أو المرابطية. يمكننا أن نذكر مصطفى بن اسماعيل آغا الدواير وسمالة الذي غلق على نفسه في المشوار في تلمسان مع بعض القراغلة ليقاوم عبد القادر. كان حليفا للفرنسيين ضد الأمير.

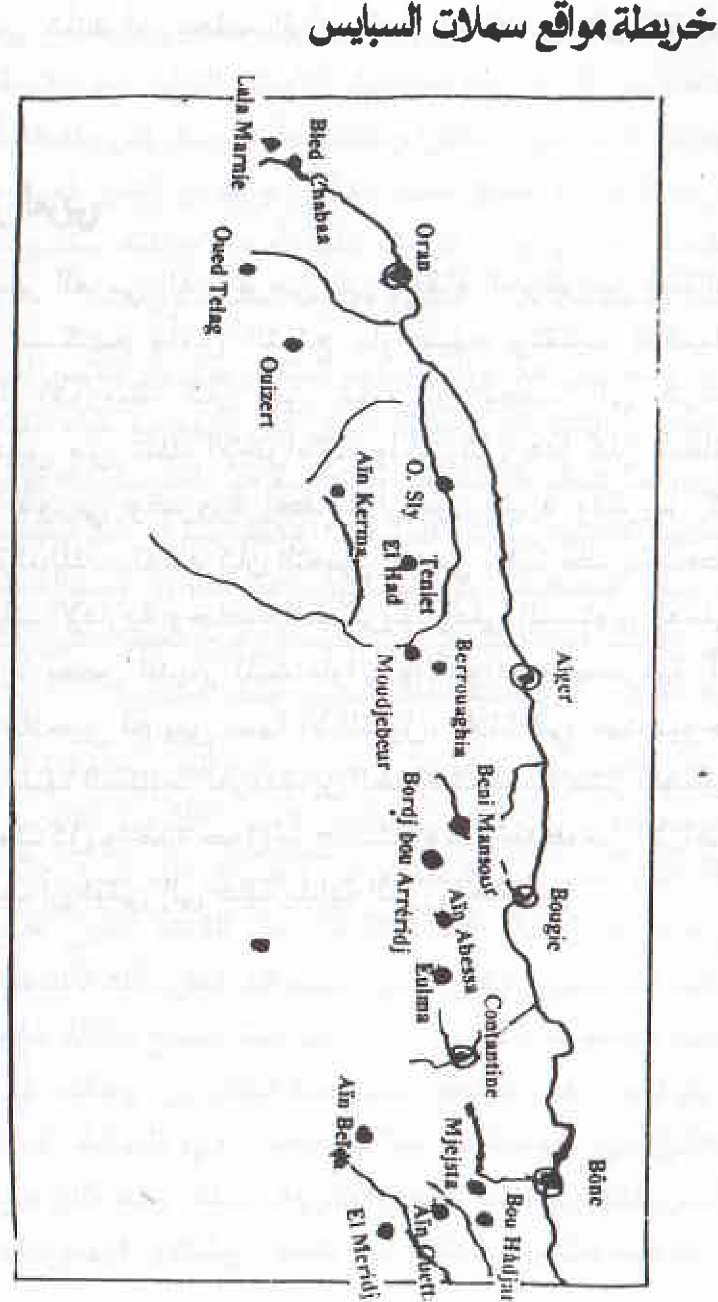
-وفي الجنوب القسنطيني حارب شيخ العرب بنقانة من بسكرة خليفة الأمير وذهب إلى قطع رؤوس 500 من الأنصار وأهدى 500 أذن يمنى من ضحاياه إلى الجنرال الفرنسي. إذا كان من الواجب القول بأن العدد القليل من القادة الذين حاربوا إلى جانب الفرنسيين فلأن الكثير منهم قد فعل ذلك لأنه محتم عليه وتحت الضغوط وعندما كانت الفرصة تسمح بذلك فإنهم كانوا لا يترددون في تقديم المساعدة للثائرين. وهكذا فإن "جيش الأهالي في خدمة فرنسا" لم يجلب في النهاية إلا المرتزقة والناس الذين حتمت عليهم الظروف ذلك. وقد كان مواطنوهم يكرهونهم وكان ضباطهم الفرنسيون يشكون فيهم. ولم يكن أي

تأثير من شأنه أن يجلب الرأي العام الإسلامي إلى القضية الفرنسية.

التعمير العربي

فالتعمير العربي الذي يرمي إلى إعطاء الجزائريين إمكانية تحسين مسكنهم وأمن التمتع بأراضيهم وتقليد التقنيات الفلاحية الأوربية، كان من شأنه أن يجلب إلى فرنسا المستفيدين من تلك الإجراءات. ولكن كل هذا كان مخالفا للتعمير الأوربي وضرورة إعطائه أراض كثيرة وتكريس كل الميزانية لذلك... لذلك كان التعمير العربي رؤية نظرية لبعض الشخصيات الإدارية وخاصّة العسكرية. وعلى المستوى العملي، لم تبن إلاّ بعض الديار للبشاغاوات والآغوات والمخازنية. أمّا القرى للفلاحين لم يبن منها إلاّ القليل، ثلاثة في عهد بيوجو والبعض بنتها المكاتب العربية. إن السمالات الستة عشر للسبايس التي جمعت كل واحدة حول برج، استفادت وحدها من الأراضي واستطاعت أن تبقى إلى غاية بداية القرن العشرين.

خريطة مواقع سملات السبايس



LES EMPLACEMENTS DES SMALAS DE SPAHIS
D'après X.Yacono, La colonisation militaire par les smalas de spahis en Algérie,

وأخيرا فإن التعمير العربي لم يكن واقعا ولم يكن له بالتالي أي مفعول على موقف الجزائريين تجاه النظام الاستعماري.

المدرسة الفرنسية

كان في استطاعة المدرسة الفرنسية أن تجلب الجزائريين، إلى الثقافة الفرنسية وبالتالي إلى قضية الاستعمار : كانت هذه هي أفكار بعض السياسيين الفرنسيين. وقد كان هذا ممكنا وسهلا خاصّة وأن التعليم التقليدي للغة العربية كان يتقهقر بعد فقد ممتلكات الأوقاف. ولكن في هذا المجال، فإن معارضة المعمرين وضعف الوسائل وكذلك رفض المسلمين إرسال أولادهم إلى المدارس الفرنسية، من الأمور التي تفسر الهشاشة والفشل لهذه السياسة المدرسية.

لقد أسست مدارس مسماة مورية-فرنسية ثم عربية فرنسية في مدينة الجزائر حيث استقبل بعض أبناء الحضر. وهناك مدارس أخرى، قليلة جدّا 18 في 1865 قد تم إحداثها فيما بعد في المدن الأخرى، لم يكن لها نجاح كبير والتردد إليها كان ممّا يرثى له. فالثانويات قد استقبلت بعض أبناء القادة ولم يتابع التعليم العالي منهم إلا عشرة.

وأخيرا لم يكن للمدرسة الفرنسية تأثير كبير على الرأي العام الجزائري الذي بقي مرتبطا بتعليمه التقليدي.

التمسيح

بالنسبة لممثلي الكنيسة، تمسيح الجزائريين يعني قطعهم عن الإسلام "والتوقف عن حشد الشعب في القرآن" مثلما أكد ذلك صاحب السيادة لافيجري. ففي سنة 1838، أحدث البابا غريغوار السادس عشر أسقفية جوليان قيصرية وقد اعتبر أول من عين فيها أسقفا على العساكر والمعمرين والعرب. ومن هنا مشاريع تمسيح المسلمين التي كانت السلطات العسكرية والإدارية تعارضها خشية الثورات الممكنة. وتمسكت الأسقفية بسياسة الدفاع عن التمسيح وكان سيادة الأسقف هو القائم بهذه السياسة مقترحا أنجلة الجزائريين أو طردهم إلى الصحراء ويهاجم "الوحشية الإسلامية" دون أن يقول أي شيء عن التجاوزات التي كانت القبائل تتعرض لها؛ نزع الملكية لصالح الشركات الرأسمالية والمعمرين. وذهب به الأمر إلى حدّ رفض تسليم الأيتام الذين تم تمسيحهم بعد احتضانهم أثناء مجاعة 1866، إلى عائلاتهم.

لقد تحصل البروتستانت سنة 1839 على حق تأسيس كنيسة مجمعية لشعائرهم، إن معبد نهج شارتر سابقا قد تم تدشينه سنة 1845. واتفق البروتستانت والكاثوليك على أن الاستعمار كان عليه أن يتماشى مع الأنجلة. فهؤلاء وأولئك كانت لهم نجاحات نادرة فردية ولكن مجموع السكان في المدن والقبائل، اعتبروا هذه المحاولات للأنجلة على أنها عدم احترام معاهدة 1830. وقد كانت سببا في عدة انتفاضات.

إن حزب فرنسا الذي حاول الاستعمار تكوينه ليعمل على قبول الاستعمار الفرنسي وعلى إبراز "عمل فرنسا التمديني" لم يمسس أبدا الجماهير الشعبية الجزائرية. فالنظام الاستعماري، بالنسبة لكل الجزائريين إنما هو عبارة عن احتلال بالقوة، وإدارة بالسيف وسرقات ثروات وعداوة للإسلام. بقيت القبائل دائما مستعدة للثورة والسلاح في يدها.

نصـــــوص

رسالة نابليون الثالث إلى ماك ماهون الحاكم العام

بعد زيارة مدة خمس أسابيع في الجزائر (3 مايو إلى 7 جوان 1865)، عبّر نابليون الثالث في مذكرة من 88 صفحة عن نواياه فيما يخص الجزائر. في رسالته إلى ماك ماهون :

- ذكّر : "أن هذا البلد هو في نفس الوقت مملكة عربية ومستعمرة أوربية ومعسكر فرنسي. فأساسي أن تعتبر الجزائر من خلال هذه المظاهر الثلاثة/ من الناحية الأهلية والاستعمارية والعسكرية".

- لقد نقد بقساوة التجاوزات الاستعمارية ومن بينها مصادرة الأراضي، وتفكيك القبائل واستعمال الضرائب العربية لصالح الأوربيين والمضاربات التي تعرضت لها الملكية الفردية للأهالي والتجاوزات الإدارية في العقارات والغابات.

- ورأى أنه يجب تجميع كل مجهودات الاستعمار حول عواصم المناطق الثلاثة ومحاولة إرجاع، كل الذين ابتعدوا عن هذه المناطق، إليها بكل الوسائل لحماية القبائل من التسرب الأوربي.

قرار مجلس الشيوخ المؤرخ بـ 14 جويليا 1865

المادة الأولى : الأهلي المسلم فرنسي، إلا أنه يواصل الخضوع إلى القانون الإسلامي. يمكن أن يقبل في الخدمة في الجيش

الأرضي والبحري. يمكن أن يستدعى لوظائف في مناصب مدنية في الجزائر. ويمكن بناء على طلبه أن يقبل في التمتع بحقوق المواطنة الفرنسية، وفي هذه الحالة فإنه يخضع للقوانين المدنية والسياسية الفرنسية.

إن خصائص ارتقاء الأهالي إلى المواطنة الفرنسية حسب هذا القرار كانت كالتالي والمقصود هو :

- تجنيس فردي.
- تجنيس بطلب
- تجنيس بامتياز من السلطة التنفيذية
- تجنيس كامل يتضمن اندماجا كاملا مع المواطنين الآخرين.

الضرائب العربية

كانت مسألة الضرائب العربية تطرح دائما في عبارات الاندماج أو عدمه في النظام الضريبي العربي. فالحوار الذي بدأ على هذه الشاكلة سمح لنا بتقديم أطروحتين متناقضتين :

- لقد كانت الضرائب الاستعمارية ترمي دائما إلى التقرب من ضرائب الوطن الأم وبالتالي فهناك إرادة حقيقية لإدماج دافعي الضريبة الجزائريين ممن هم في الوطن الأم.

- فاستمرار ضرائب غير فرنسية وكذلك إثقالها، كل هذا يعني أن هذا النظام الضريبي يختلف عن النظام الفرنسي.

فطرْحُ المشكل بهذه الكيفية يصل إلى طريق مسدود لأن الهدف الأول للاستعمار في الجزائر هو امتلاك فائض عمل الساكن الأصلي وذلك بكيفية مدعمة. والمقصود هو أن نبرز كيف أسست المكانيزمات لابتزاز ثمرة عمل الساكن الأصلي ووزنهم النسبي في خانة الميزانية "ضرائب ومداخيل" وأخير من هم العناصر الذين عارضوا هذا النهب (...).

في عشية توحيد القوانين الضريبية في الجزائر، كانت الضرائب التي يدفعها الجزائريون بصفة خاصة هي : العشور والزكاة والحكور واللازمة. فالعشر يقبض في كل التراب الوطني إلاّ عند الشرفا (البلدية المختلطة للمشرية) وفي البلدية المختلطة للالا مغنية وفي 13 بلدية في القبائل الصغرى وفي القليعة (المتيجة).

عندما عوض القبض نقدا الاقتطاعات العينية سنة 1845، قرر أن تتم منضدات التحويل من طرف الحكومة العامة ؛ فنسبة الضريبة تتغير حسب مردودية المحصول. فالعشر يطبق لاسيما على القمح والشعير كما كان الحال في عهد العثمانيين ولكن أيضا منذ 1894 على كل الزراعات الأخرى : الكروم والأشجار المثمرة والخضر. ففي عمالتي مدينة الجزائر ووهران قد حددت السلطات الاستعمارية مقاييس اعتباطية للزراعات، علما بأن الأهالي يزرعون 2/3 أراضيهم شعيرا والثلث الباقي قمحا. كما يحدد عدد القناطر التي يتم اقتطاعها بصفة اعتباطية وبكيفية جزافية باعتبار الزويجة أو السكة، وفي عمالة قسنطينة، يمثل العشر مبدئيا 1/10 من المحاصيل (التي تقدرها

قناطر مقتطعة	ممتازة	جيدة	حسنة	سيئة	عديمة
القمح	2	1,5	1	0,5	0
الشعير	4	3	2	1	0

الإدارة أو أعوانها الأهالي) الناتجة عن المساحة المزروعة بمحراث في حملة فلاحية. منذ 1874 صارت تعرفة التحويل 22 فرنك للقنطار من القمح و11 فرنك للقنطار من الشعير. ومع هذا فإن الخماسين الذين يزرعون أراضي الأوربيين تم إعفاؤهم من العشر منذ 1858. والزكاة هي ضريبة على المواشي : جمال وثيران وأغنام وماعز

	جمال	ثيران	أغنام	ماعز
فرنك/ للرأس	4	3	0,25	0,20

والحكور ضريبة خاصة لعمالة قسنطينة ويكون زيادة على العشور ويقبض بنفس القواعد ولكن بتعريفتين فقط. إن هذه الضريبة محسوبة على قاعدة عدد المحارث ويدفع نقدا بعد المحصول : 30 فرنك للمحراث قبل 1858 وصار في هذا التاريخ 20 فرنكًا أو 10 فرنكات. وتنقلت من هذه الضريبة الأراضي المصنفة على أنها ملك بالمراسيم التي تنفذ قرار مجلس الشيوخ المؤرخ في 22 أفريل 1863، يعني 37 بلدية من بين 112 بلدية في الولاية. وقد مثل هذا أحد الوسائل العديدة التي وضعت لتفكيك الأراضي المسماة عرش.

وبقيت اللازمة في بلاد القبائل الكبرى وهي ضريبة رأسية وتتكون منذ 1894 من سبعة أصناف مختلفة وتتراوح تعريفاتها من 0 إلى 100. وتقبض بقطع النظر عن أيّ ضريبة في 13 بلدية وبالتوازي مع العشر والزكاة في 7 بلديات أخرى. وفي بعض مناطق الجنوب تدفع القبيلة اللازمة "القارة" وتقوم الجماعة بتوزيعها. ولازمة "النار" مثل السابقة، ضريبة نصاب وتوزيع محددة بـ22,5 فرنك لكل نار يبرز دخانها وتوزع الجماعة هذه الضريبة أيضا. ولازمة النخيل هي كالعشر بالنسبة للزراعات الأخرى، وتتغير نسبتها ما بين 0,25 و0,30 للشجرة الواحدة.

الفصل التاسع

مقاومة الصحراء والانتفاضات الكبرى

لقد كانت الصحراء الجزائرية، كما كانت الجبال أزمنة طويلة ملاذًا للمجاهدين، هي كذلك حليفة للمواطنين المقاومين للاحتلال الفرنسي. وقد تواصل هذا إلى غاية الحرب العالمية الأولى.

وكانت مقاومة الجنوب مجيدة مثل مقاومة الشمال وأبرزت وحدة البلاد.

لقد حارب الجنوب منذ السنوات الأولى من التدخل الفرنسي ودعم قضية الأمير عبد القادر وأحمد باي. وواصل فيما بعد التعرض إلى المحاولات الفرنسية للدخول. وأخذت مقاومة الصحراء توسعا كبيرا مع انتفاضة أولاد سيدي الشيخ التي تواصلت عدة سنوات بعد أن استأنفها بوعمامة والعديد من القصور والقبائل وذلك إلى غاية الحرب العالمية الأولى.

الدخول الفرنسي إلى الصحراء

قدر روندون أنه من الضروري الاستيلاء على الأغواط حيث فكر الشيخ محمد بن عبد الله في مشروع استئناف الحرب التحريرية التي بدأها الأمير عبد لقادر والذي كان في السابق أحد خصومه. لقد نادى الشيخ إلى الكفاح ضد الفرنسيين كل

الصحراء الشمالية وتحصل على دعم قبائل الأرباع المحيطة بالأغواط. ومن هذه الواحة وجه هجومات التّل. فأرسل الفرنسيون ثلاثة مفارز ضد الشريف. وتم الهجوم على الواحة يوم 4 ديسمبر 1852. وقام الجنود بتذبيح كل السكان ؛ مدّة ثلاثة أيام لم يكن الجيش مشتغلا إلا "بحرق الجثث أو رميها في الآبار". لقد كانت مجزرة، "أثناء الأيام الثمانية الأولى كان الإعدام ينفذ في المجموعات المكونة من 12 أو 15 كل الذين استسلموا". وتمت محاربة الشريف من طرف الباشاغا حليف الفرنسيين سي حمزة من أولاد سيدي الشيخ.

وذهب محمد بن عبد الله إلى الجريد التونسي. وظهر سنة 1854 في تقرت ولكن الفرنسيين احتلوا هذه الواحة وبسطوا سيطرتهم على وادي ريغ.

تشكل منطقة الميزاب منطقة ثرية ومستقلة بمدنها الخمسة مليكة وغرداية وبني يزقن وبونورة والعطف التي بنيت في القرن الحادي عشر وجمهوريتيها الدينيتين بريان والقرارة المؤسستين في القرن السادس عشر. لم يكن في نية الفرنسيين الهجوم مباشرة على هذه المجموعة القوية وقدروا أنه من قلّة السياسة أن تمتد الإدارة إلى بلاد المزاب، فاكتفوا بتوقيع معاهدة مع الميزابيين في مايو 1853 تضمن التنقل الحرّ لجيشهم ودفع جزية وطرد الثوار. ومن ناحيتهم احتفظ الميزابيون بمؤسساتهم وبقوا تقريبا مستقلين. لقد كان هذا نوعا من الحماية التي تأسست وتم تغييرها سنة 1882 إذ قدّر الفرنسيون أن الميزابيين قد مونوا ثوار أولاد سيدي الشيخ وأنصار

بوعمامة، فحذفوا حق الاستقلالية المنصوص عليه في معاهدة 1853.

فبين 1854 و1857 غامر الفرنسيون في غرب الصحراء. فذهبوا من الأبيض سيدي الشيخ، تقدم كلومب إلى غاية قصر القنادسة. وفي 1860 إلى 1862 دخل الفرنسيون إلى غاية التوات والقورارة حيث استقبلوا بكيفية سيئة فغادروا هذه المنطقة. وبعد ذلك بقليل انفجرت ثورة أولاد سيدي الشيخ.

انتفاضة 1864

"يبقى رفض سلطة الكفار دائما هو السبب الأساسي لمقاومة القبائل. لقد وضّحت التقارير الإدارية العديدة الورع الديني الكبير وانتظار المهدي المحرر خلال السنوات الثلاثة الماضية التي سبقت الانتفاضة. إن احتلال القصور والعديد من لآبار من طرف الفرنسيين كان يهدد حياة السكان. سي سليمان بن حمزة وهو منحدر من المرابط الكبير سيدي الشيخ، كان مراقبا من طرف السلطات الفرنسية وتمت إهانته من طرف حاكم جيريفيل الذي ضرب كاتبه. فخلافا لأبيه الذي حارب إلى جانب الفرنسيين، فإن سي سليمان بعد نصيحة وتأييد عمه سي العلاء بن بوبكر، كان مناهضا للوجود الفرنسي. وقال تروملي أنه كان يمثل "الجنسية والدين، هذين الرافدين الذين حركا العوالم". فأعطى سي سليمان سنة 1864 الإشارة إلى الثورة وظهر على أنه "مولى الساعة". فأغلب القبائل وحتى القوميين الذين يخدمون الفرنسيين، التحقوا بمعسكر المقاومة. يمكن أن نذكر

من بين الذين أجابوا نداء سي سليمان بن حمزة، الشيخ القديم للغرابة القادم من المغرب وسيد جلول بن حمزة الذي أسرع بقومه من القليعة (المنيعة) والتوارق وبن ناصر بن شهرة... والقصوريين الذين هربوا من القصور المحتلة، كلهم دعموا أنصار سي سليمان حتى الذين قبلوا الدخول في القوم الفرنسيين، غادروا معسكر العدو. وبدأت الانتفاضة في فبراير 1864. سي سليمان بن حمزة وعمه جلبوا معهم ما يقارب من ألف فارس ومثلها من الأنصار الذين وفرهم له خدامهم وقبائل الشعانبة والمخادمة والسعيد عطبة.

كلهم تجمعوا حول وادي الناعة ومتليلي. وفي مارس 1864 حطت قبائل الأنصار رحالها على غدير أماك الحجاج وتموّنوا في بريزينة. فالتحق بهم أولاد يعقوب الذين ثاروا يوم 19 مارس بعد أن استولوا على قصر تاجرونة. فعدد سي سليمان النداءات إلى الجهاد وهاجم جيش العقيد بوبراتر (8 أفريل) في عين بوبّكر حيث مات الرجلان. فخلف سي محمد بن حمزة أخاه واستولى على قيادة الانتفاضة التي يقودها دائما عمّاه سيد العلى وسيد الزبير. فتوجه المقاومون إلى جبل العمور وحتموا على الدين بن يحيى، آغا الفرنسيين الانسحاب إلى الشمال. ثم هاجم أولاد شعيب من دائرة بوغار وهم وراء آغاهم النعيمي ولد الجديد معسكر العدو في تاغين وفرضوا على الفرنسيين التراجع إلى الشلالة ثم بوغاري. هاجم الأنصار فرندة وهددوا التل. فأرسل سيد العلى مجموعات عديدة في ناحية تيارت وبوغار وقطعوا الخيوط التليغرافية وحرقوا المخيمات. وفي ناحية المدية،

التحق الزناخرة قرب بوغار بالمقاومة. كان الأنصار يتحركون باستمرار ويناوشون مفارز العدو ليجعلوا الصحراء بالنسبة لهم غير قابلة للإقامة.

فأمام انتصار الجزائريين، أرسل الفرنسيون من مدينة الجزائر مفرزة الجنرال يوسف ومن وهران مفرزة الجنرال دولينيي. توجهت الأولى إلى الجلفة ثم إلى الأغواط قبل أن تذهب إلى تاجمونت. فتجمع قوات المقاومة بين قصور غسول وبريزينة هاجم يوسف جَبل العمور (مايو 1864) واحتلّ الريشة التي ذهب سكانها إلى القعدة. وأخيرا وفي هذا المركز لم يجد يوسف إلاّ النساء والأطفال. أمّا مفرزة الجنرال دولينيي فإنها أقامت بين جيريفيل والأبيض سيدي الشيخ وقطعت طريق الشمال واحتلت المدينة المقدسة الأبيض سيدي الشيخ، مهد أولاد حمزة ودمرتها.

فانسحب سيدي محمد بن حمزة وتبعه العديد من الفرسان، وفي الأخير استسلمت القبائل التي كثرث مناوشتها ولم يعد لها تموين (جويليا 1864). وتواصلت المنازلات وفي سبتمبر 1864 انتفضت قبائل منطقة سور الغزلان وبوسعادة وقبائل منطقة قسنطينة -الرزاينة والجعافرة وبني ماثو- التحقوا كلهم بسيدي محمد بن حمزة وسيدي العلى في الشط الشرقي ليدحروا جزءا من مفرزة الجنرال جوليفيي.

وفي أكتوبر 1864 هاجم أولاد نايل معسكر الجلفة والأغواط. وأقام المقاومون مع سي حمزة على وادي مزي حول زنينة

والشارف وتاجمونت. وسيدي العلى الذي كان مقيما قرب الشط الشرقي وصل إلى نواحي بلعباس.

وفي نهاية 1864 تعرضت المقاومة للصعوبات : لقد انعزل العديد من القبائل عن مناطق الرعي. وفي نوفمبر 1864 أوقف سلطان المغرب قادة أولاد سيدي الشيخ في الغرب لأنهم كانوا يساعدون المقاومة الجزائرية. ولم تبق إلا قبائل أقصى الجنوب -الشعانبة والحرازلة وأولاد شعيب- وجزء من أولاد مختار في الثورة.

استئناف الانتفاضة في 1866

. وفي سنة 1865 تجمعت المقاومة في الجنوب الوهراني حيث أقام سيدي محمد ولد حمزة في قصر بن عود. ولكنه قتل في فبراير 1866 وتم تعويضه بأخيه الأصغر سيد أحمد ولد حمزة البالغ من العمر 12 سنة. وفي الواقع فإن عمه سيد العلى هو القائد الحقيقي للمقاومة. كان مقيما في جنوب فقيق وكان يتمتع بدعم العديد من القبائل : أولاد زياد والزراينة وأولاد شعيب وأولاد نايل والأحرار- فنادى القبائل المقيمة على طول الحدود المغربية : زقدوم والعمور وأولاد جيم وذوي منية- واستأنف الهجوم. فالتجأ المقاومون في فقيق بعد أن انتصروا على الفرنسيين في المناووت (30 مارس 1866). ثم انقسم الأنصار إلى عدة مجموعات وذهبوا إلى أقصى الجنوب. فاجأ الفرنسيون معسكر سيدي العلى في المحاريق ولكنهم لم

صورة سيدي العلى وهو يحث الناس على الانتفاضة



يستطيعوا توقيفه. وأولاد سيدي الشيخ الشراقة الملتجئون في المغرب واصلوا هجوماتهم مدّة عدة سنوات. وحرك المرابط بوعزة ولد العربي ناحية وجدة. وقاوم قصر عين الشعير في 1870 هجوم الجنرال ويمبفان. وكان بوشوشة يجوب المنطقة وينادي بالجهاد وهو في نفس الوقت يعدد الضربات الصغيرة ابتداء من 1871. ولم يتم توقيفه إلاّ في نهاية مارس 1874 وحكم عليه بالإعدام ونفّذ فيه. وثارت قبيلة بوعزيد البدوية من دائرة بسكرة في سنة 1876 واحتلت واحة العامري مدّة ثلاثة أسابيع تقريبا.

لم يتحصل الفرنسيون إلاّ على انتصارات صغيرة في بن عود (1871) ونفيش (1874) لأنهم انحصروا في بعض الاستكشافات ولكن قلة الأمن جعلت القبائل سيدة الجنوب. وفي سنة 1879 انتفضت قبيلتان. ولكن انتفاضة الجنوب الوهراني مع بوعمامة كانت هامّة.

انتفاضة بوعمامة

في سنة 1881 كان الجنوب الوهراني تقريبا مستقلا، كان صحراء تجوبها القبائل البدوية المحاربة. كان للفرنسيين مركز في جيريفيل (البيض) وبين هذا المركز وسعيدة طريق واحدة. وناحية مغرار وقصورها كانت ضمن حكم تلمسان.

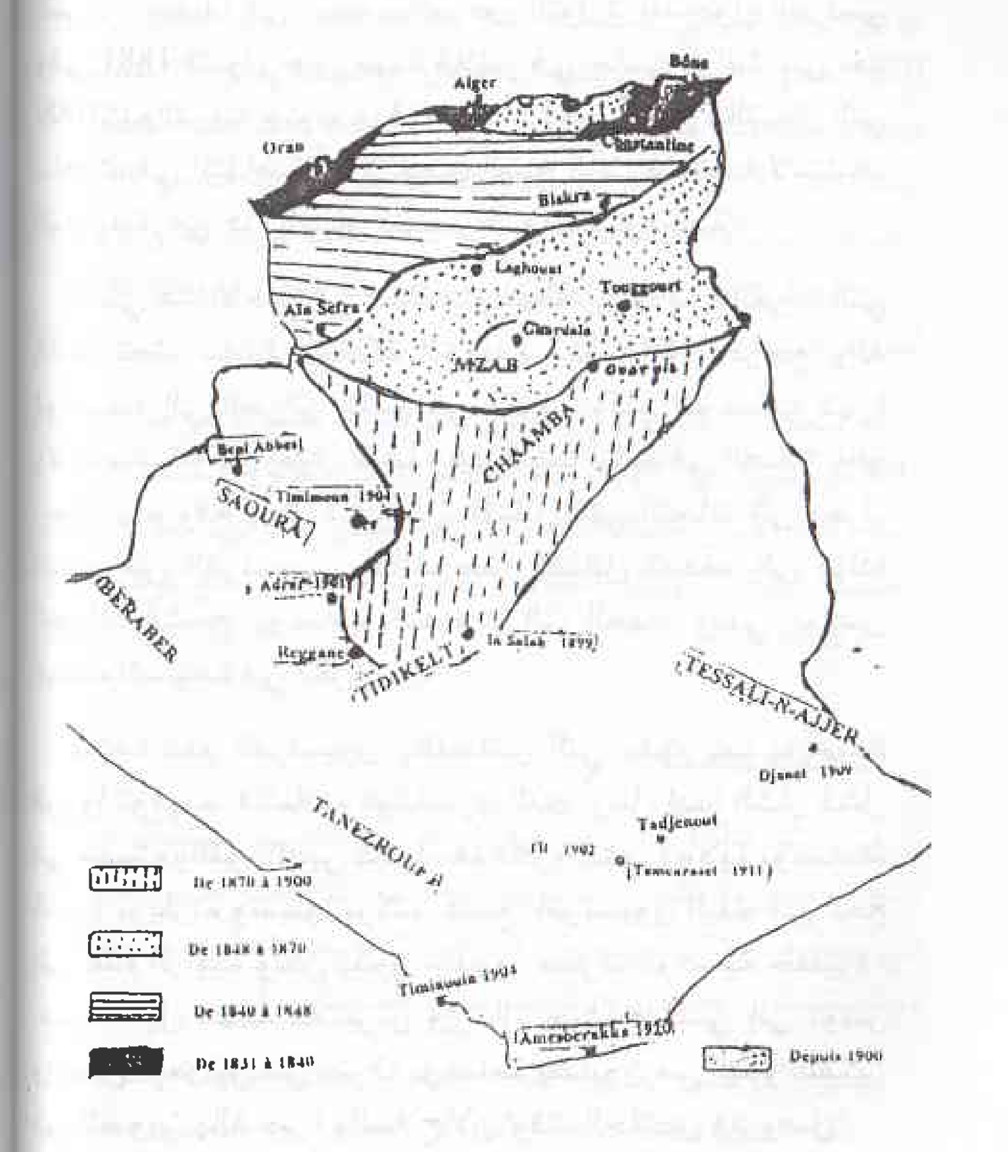
أرسل الفرنسيون إلى التيوت مهمة رسمية مكلفة بدراسة مخطط السكة الحديدية العابرة للصحراء. فبعدما هدد

الفرنسيون فتراجعوا وأحدثوا مركزا عسكريا في التيوت. فانزعجت القبائل الموجودة في دائرة البيض بإحداث هذا المركز. وبعيدا في الجنوب تعرض التوارق للدخول الفرنسي وفي 1881 قتلوا رجال مهمة فلاتير في حاسي غرامة على بعد 1000كلم تقريبا جنوب ورقلة. ومن ناحية أخرى فالقبائل التي ساهمت في انتفاضة أولاد سيدي الشيخ كانت مستعدة لاستئناف المقاومة. في هذا السياق تنحصر انتفاضة بوعمامة.

ينتمي هذا الأخير إلى عائلة متواضعة سيدي التاج الغرابة التي كانت تحت سلطة المملكة الشريفة منذ 1845. فرجع والد بوعمامة إلى الجزائر ليقيم في مغرار. وكان لبوعمامة شهرة ولاية متينة وكان يعيش عيشة زهد قاضيا أيامه في الصلاة. وهو رجل سلم وقع تحت تأثير كل القبائل التي التجأت إلى مغرار لتنجو من الفرنسيين. وكانت هذه القبائل تدفعه إلى قيادة الجهاد. فشجع بوعمامة النداءات إلى الجهاد وبقي يواصل عيشته البسيطة في مغرار.

عندما علم الفرنسيون بالدسائس التي يقوم بها بوعمامة قرروا توقيفه. فالملازم دوكاستري الذي أرسل لهذا الشأن فشل في مهمته والقوم الذين كانوا معه تأثروا بشهرة ولاية بوعمامة، قاموا بزيارته وتقبلوا بركته. فمنع الفرنسيون البدو من الحج إلى هذه الزاوية ولكن بدون جدوى. صارت الوضعية خطيرة: خبر تقتيل مهمة فلاتيرس وإرسال جيش فرنسي إلى تونس وإرسال مبعوثين من طرف بوعمامة يطلبون من البدو التفكير في التموين بالذخيرة والسلاح لأن "وقت الخلاص قد وصل".

خريطة : باب الصحراء



استطاع بوعمامة أن يجمع حوله قبائل الرزاينة وأولاد بودواية وأولاد سرور والعكارمة والجرامنة الذين شكلوا أغلب أنصاره. وكان له في مغرار مخزن مجهز جيدا بالسلاح والبارود. انفجرت الانتفاضة في أفريل 1881، لأن الفرنسيين قرروا توقيف مبعوثي بوعمامة الذين أخبر عنهم بشاغا فرندة سي احمد ولد القاضي. وفي البيض كان الجرامنة يعسكرون على بعد 30 كلم من المدينة، فرفضوا تسليم مبعوثي بوعمامة وقتلوا الملازم الفرنسي والسبايس الذين كانوا معه. وفي تيارت أعدم النقيب الذي كان عليه أن يوقف مبعوثي بوعمامة الذين كانوا عند أولاد حدو. والمفرزة التي بعثت ضد بوعمامة في أفريل 1881 لم تستطع إيقافه. بقي بوعمامة في شعبة وادي زوسفانة.

وفي فبراير 1882 قام الفرنسيون بحملة في الشعبة وتم اللقاء مع الجزائريين في ناحية فرندة حيث تعرّضوا مرّة أخرى للفشل وذهبوا إلى عين الصفراء. وفي بداية 1883، عندما لم يستطع تجنيد بني غيل بعد أن غادره العديد من أنصاره، اقام ابتداء من 1885 في فقيق ثم في قورارة حيث نظم إخوانه في طريقة قوية. وفي سنة 1909، رفض بوعمامة الأمان الذي اقترح عليه وقرر الإقامة في زاويته قرب العيون في المغرب حيث مات في نفس السنة. وتواصلت الاضطرابات في التوات وفي قورارة، فأغلق الفرنسيون على أنفسهم في قلاع بنوها في بيرصوف وحاسي الماي وفورلالمان وفورميشال وفورماك ماهون.

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين حدّد الحزب الاستعماري المتمثل في النواب الفرنسيين من الجزائر والحاكم العام، برنامجا للتوسع في المناطق التي تمتد في الغرب : مهمة فورلامي (1890-1900) التي تذهب من ورقلة إلى التشاد والبعثة العلمية فلامان المتبوعة بكتيبة من الجنود احتلت عين صالح (27 ديمبر 1899) وواحات تديكالت والتوات قورارة والصاورة.

وفي الصحراء الوسطى حيث قاوم التوارق البدو في تيت (7مايو 1902) أمام مفرزة مكونة من القوم الشعانبة، انتهى بهم الأمر أخيرا إلى الهزيمة. وواصل أمين العقال فرحون الكفاح في المنطقة النيجيرية ولكنه انهزم أيضًا على يد توارق الهقار الذين كانوا من جانب الفرنسيين. أحدث لابرين سرايا من الهجانة كانت تتضمن خاصة الشعانبة. واستطاع الأب دوفوكول الذي كان مقيما في تمنراست أن يقوم بعمل المعاينة والاستشارة لصالح السياسة الصحراوية تحت غطاء الأعمال الخيرية وذلك إلى غاية اغتياله سنة 1916. وتواصلت مقاومة التوارق أجّير التي ساعدتها جبالهم إلى غاية احتلال جانت يوم 27 نوفمبر 1911. وكانت الصحراء الجزائرية محتلة بصفة كاملة تقريبا سنة 1914، واستفادت فرنسا بعد ذلك بهيبة سياسية لأنها أقامت الصلة بين إفريقيا الشمالية وممتلكاتها في إفريقيا السوداء.

وأسست فرنسا في الصحراء نظاما خاصا بإحداث "مناطق الجنوب". وقد تم التمييز بين أربعة مناطق : العين الصفراء وحول الأغواط وغرداية وشرق توقرت وحول وارقلة. كانت ميزانية مناطق الجنوب مستقلة ينظمها مرسوم بناء على تقرير وزراء الداخلية والحرب والمالية.

وكانت مناطق الجنوب مقسمة إلى دوائر وملحقات وعلى رأس كل مقاطعة إدارية يوجد ضباط وضباط صف أقوياء. بالنسبة للجنوب كان الرجوع إلى المكاتب العربية ونظام السيف.

نصـــــــوص

بعض الأبيات من شعر سي محمد بلخير،

شاعر أولاد سيدي الشيخ : (ما معناه)

"من بريـد الجنة يحارب الكفـــــار	ومن بريـد الهدوء يصر مرتزقـــــا
ناس التـل يذكـرون فضائلنـــــا	وفي غيـابنا يـذكرون أبطالنـــــا
من هو مسلم في القلب ينام سعيدا	فالفرسان على جيـادهم المتهيجـة
مستعـــدون للمعركـــــة	وسلاحهم بنادق ومسدسات وإيمان.

هذه الأبيات مستنبطة من القصيدة : "الناس يهتفون بمناقبنا"

مهدي سنة 1879

صرح المرابط محمد بن عبد الرحمان، بأنه المهدي ونادى قبائل الحرقطة من ناحية أم البواقي ومسكيانة وسدراتة. ووقع نداءه محمد بن عبد الله، باسم النبي، والذي استعمله العديد من مهديي النصف الأول من القرن التاسع عشر.

إلى أعيان سيدي عيسى

الحمد لله وحده. يسلم هذا الإعلان إلى كل أولاد عيسى، السلام عليكم ورحمة الله وبركته، من قبل من يسلم عليكم

الإمام المهدي. يخبركم بأنه تسلم عون الله لمحاربة الكفار. فقوموا للحرب المقدسة لتكون كلمة الله هي العليا. كل من ينكر هذا الأمر إنما ينكر الله ورسوله ويجازيكم الله جزاءا كبيرا في الآخرة".

"كتب بأمر من السيد محمد بن عبد الله المهدي، نصره الله".

كان نداؤه متبوعا بإعدام القايد بوضياف مسؤول عائلة الدواودة الذي أوقف مرابطا وكذلك بإعدام قايد بني سليمان مصطفى باشطرزي الذي قتل في برجه كما هاجم الأنصار أيضا برج سيدي محمد بن عباس. والأبحاث لوجود المهدي لم تجد شيئا ولم تجد الإدارة إلاّ نداءه.

ذكره لوسياني في : مجلة إفريقيا، سنة 1925.

جامعو رؤوس أبطال المقاومة الجزائرية

أعطى الدكتور ف.ربود لرئيس الجمعية التاريخية الجزائرية المعلومات التالية المتعلقة برؤوس أبطال المقاومة :

"لقد تم حفظ رأس بوزيان الذي كان، حسب السيد فيرود، قد قطع ورفع على رأس حربة في نهاية حصار الزعاطشة. كما حفظ أيضا رأس بوبغلة ورأس الشريف الذي قتل في المعركة التي تمت تحت جدران تبسّة من طرف الملازم جابي ؛ صار جزءا من المجموعات الانسانية في متحف باريس. أنا الذي أرسل هذه الرؤوس إلى تلك المؤسسة الثرية. كل رأس منها مصحوب

ببطاقة، رقعة طويلة، مكتوب عليها اسم الشريف المقطوع رأسه وتاريخ وفاته وخاتم المكتب السياسي لقسنطينة وتوقيع السيد دونوفو أو السيد غريسلي.

كان الدكتور يجمع رؤوسا أتت من كدية عاتي. وسلموه أيضا عشرين رأسا من مختلف الأماكن من المنطقة الداخلية، ومنها كذلك رؤوس أبطالنا الثلاثة.- المجلة الإفريقية 1886.

هل يجب أن ترجع هذه الرؤوس يوما ما إلى الجزائر؟

الفصل العاشر

الانتفاضة الكبرى في سنة 1871

كانت انتفاضة 1871 هي آخر مقاومة مسلحة ضد الاحتلال الفرنسي. فالارتباط بالأرض الجزائرية، ورفض رؤية الإسلام مهددا وإهانة القادة التقليديين الكبار كل هذا قد شكل الأسباب الرئيسية للعديد من الانتفاضات التي عمت أغلب التراب الجزائري. وقد عرف المنتفضون اضطهادًا مريعًا.

أسباب الانتفاضة

كانت الأسباب الرئيسية للانتفاضة الجزائرية ذات طابع ديني أساسًا وبعد ذلك سياسيا. كان المسلمون ينتظرون دائما فرصة سانحة ليتخلصوا من هيمنة الكفار. ألم يعبر عن شعور عام ذلك الرجل الذي صرّح في سنة 1865 : "لقد استغنيت مع الفرنسيين وعدالتهم خير من عدالتنا وليس لي إلاّ أن أحمد (الله) على ذلك، ومع هذا فإن وصلت الانتفاضة إلى شواطئ مدينة الجزائر وإذا لم يكن عليّ إلاّ أن أعطي ضربة كتف مني لأرميهم إلى البحر، فإني سأفعل ذلك".

لقد سبقت الانتفاضة فترة من الورع الديني ؛ في بلاد القبائل كانت مجموعات من الحجاج يزورون الشيخ الحداد في صدوق. "كانوا يتبعون الدروب حفاة تحت قيادة مقدمهم ويهتفون

بالأذكار ويعظمون اسم الله". ولم تكن النسوة اللائي يزرن الشيخ أقل حماسا من الرجال. فالشعور الديني يختلط دائما بالشعور الوطني.

ومن ناحية أخرى فإن حملة التنصير المسيحية قد أزعجت المسلمين. فسيادة الأسقف لافيجري طلب حرية التبشير في القبائل. وخلال مجاعة 1866، تم تمسيح أيتام جزائريين ووضعوا في قرى مسيحية. فأكد رؤساء بعض القبائل إرادتهم للدفاع عن الإسلام : "لن نتخلى أبدا عن ديننا وإذا أرادت الحكومة أن ترغمنا على ذلك سنطلب منها الوسيلة لمغادرة البلاد ؛ فإن لم نجد وسيلة، فإننا نفضل الموت على اعتناق دينكم".

فقد كان الجواب صارما لعقيد طلب من قبيلة أن تستقبل مبشرا كان يريد السكن في ترابها : "الله يحفظنا أن نقبل ذلك إلاّ إذا أرغمتنا السلطة على ذلك. في هذه الحالة سنعطيها ولن نبقى معه أبداً".

لقد التجأ العديد من قادة القبائل إلى الشعور الديني ليطلبوا من القبائل الالتحاق بصفوف الثوار : "إذا كنتم معنا وإن كنتم أبناءنا وإن كنتم تريدون أن تكونوا في صفوفنا، مدّوا أيديكم، باسم الجهاد إلى من يحيطون بكم في ذلك البرج. إذا أردتم الحفاظ على دين الإسلام بادروا بقتلهم وهذا أيضا واجب عليكم. قوموا بالحرب المقدسة، فذلك يحسب لكم، طهروا أجسامكم".

المثل الأعلى الديني يجده المؤمنون في انتسابهم إلى الرحمانية وهي طريقة جزائرية أسست في القرن الثامن عشر

على يد سيدي عبد الرحمان بوقبرين وتجمع الآلاف من الإخوان المنظمين والمنضبطين الذين ينتظرون الفرصة الأولى ليدخلوا في الجهاد. وهكذا وبعد نداء الشيخ الحداد، التحقت 250 قبيلة بالانتفاضة وعبر عن ذلك بوضوح سي عزيز ابن الشيخ : "سيكون ذلك من أجل الخير إذا أحب الله أن ننهض للجهاد لندعم القضية الربانية. نحن مستعدون لمحاربة أعداء الله ورسوله".

ومن ناحية أخرى خاف الفلاحون على أراضيهم. فالنظام المدني يعني بالنسبة لهم انتصار المعمرين وإعادة النظر في النظام العقاري للأراضي القبلية وبالتالي فإن ذلك ينذر باستحواذ المعمرين على ما تبقى من الأراضي. إن هذه المخاوف أثارت العديد من المقاومات المحلية التي حضرت الأرضية للانتفاضة العامة.

توجد الأسباب السياسية في مبادرات الجماهير الشعبية وإهانة القادة التقليديين الكبار والظروف الناتجة عن الحرب الفرنسية الألمانية. بالنسبة للجماهير الشعبية، كان الخضوع شكليّا. فبمجرد ما يتغير ميزان القوى، تنفجر الانتفاضة. في سنة 1864، لاحظ فرنسي ما يلي : "مازالت هناك كلمات سحرية تجعل البلاد ترتعش ؛ كلما تكلمنا له عن الجنسية أو عن الإسلام وعن الأرض المقدسة التي يجب تطهيرها من الكفار، نجده مستعدا للمشي". ففي يناير 1871 انتفض شيخ الحناشة الكبلوطي ؛ فتم الهجوم على سوق أهراس في 14 و15 فبراير 1871، فأغلق 2000 جزائري برج الميلية. وفي مارس 1871 حاصر النمامشة وأولاد سيدي عبيد والشعانبة تبسّة واستولوا

على وارقلة. فتكونت "شرطيات" وهي نوع من المعَاهدات متكونة من 10 أو12 عضوا في بعض مناطق الجنوب القسنطيني لحراسة القياد وتسليط الغرامات وشراء السلاح والذخيرة.

بينت الحرب الفرنسية الألمانية الضعف العسكري الفرنسي، لقد شاهد عمال جزائريون الهزيمة الفرنسية كما شاهدوا كفاح المدنيين ضد العساكر. انهزمت فرنسا وتعبت ولم يبق لها جيش. "شكلت هذه الوضعية الفرصة الوحيدة للتخلص من الفرنسيين. ولم يستطع التردّد إلاّ الكلاب وأبناء الكلاب". كما صرح بذلك رزقي، قائد السبايس الثائرين في سوق أهراس.

ما فتئ آل مقراني المقيمين بالمجانة يرون سلطتهم تتضاءل. لقد تعرض الباشاغا محمد المقراني إلى مجموعة من الإهانات: تنصيب ضابط فرنسي في برج تازمالت سنة 1855 وفقدان الموارد الضريبية التقليدية في 1858 ومصادرة جزء من أراضيه من الأملاك العامة وتعويض وكلائه بقياد وشيوخ تحت إشراف السلطات الفرنسية وتقليص عدد الفرسان المرتبطين بقياده وإلغاء التويزات التي كانت تنظم لصالحه...وتسلم توبيخا رسميا لأنه أبرز تحفظاته على سجن بوعكاز، زعيم الفرجيوة. وفي سنة 1867 اقترض 350.000 فرنك قصد مساعدة الفلاحين ضحايا المجاعة الكبرى. فالإدارة التي ضمنت القرض لم تف بعهدها وفي 1870، تحتم على الباشاغا أن يرهن كل ممتلكاته.

فاستقال المقراني بعد أن أنهكته كل هذه الإهانات، وانتشرت إشاعة عن توقيفه في جويليا 1870. وجواب الجنرال الذي جعله مسؤولا عن كل الاضطرابات التي يمكن أن تحصل في قيادته وتأسيس النظام المدني (نظام المعمرين والتجار) من الأشياء التي حملته على إعلان الحرب على الفرنسيين (14 مارس 1871) وهو إعلان فروسي: "إني أتهيّأ إلى محاربتكم وليأخذ كل واحد بندقيته. بالنسبة لي فأنا لا أقبل لا الخيانة ولا التنحي بدون بارود. لابدّ أن تخضعوني بالقوة، إني أفضل هذا".

هذه هي الأسباب الحقيقية لانتفاضة 1871 وليست ما قدمته صحافة تلك الفترة ومن طرف بعض المؤرخين أي أن الانتفاضة أصلها غضب الجزائريين بعد منح المواطنة الفرنسية لليهود بواسطة مرسوم كريميو والطموحات الشخصية للباشاغا المقراني إذ أن الجزائريين لم تهنهم ترقية اليهود إلى درجة مواطنين فرنسيين لأنهم لا يشعرون بأن المواطنة الفرنسية تستطيع أن تضيف شيئا إلى كرامتهم. لقد بينوا ذلك برفضهم القيام بطلبات فردية للتجنيس. ولم يذكر قادة الجهاد في أي نداء من نداءاتهم مرسوم كريميو ليتكلموا عن اليهود. وأخبر الأعيان المسلمون في قسنطينة مجمع كرادلة المدينة أن مرسوم كريميو لم يثر غضب المسلمين. وأجاب كل قادة الانتفاضة بدون استثناء أمام محكمة الجنايات أن تجنيس اليهود لا علاقة له بالثورة. وأخذ العديد من الثوار بعد توقيفهم محامين يهودًا.

وبالنسبة لرين فالباشغا المقراني هو الذي حرك الثورة والقادة الآخرون الذين تبعوه إنما فعلوا ذلك من أجل مزاياهم.

بالفعل لقد كان دور القادة هامّا ولكن المبادرة جاءت من الجماهير؛ لقد تواصلت الحرب بعد موت القادة الرئيسيين قبل أن تعمم عبر كل البلاد، خارجة بذلك من مجال المقراني.

وقد نجد الأسباب الحقيقية أيضا في رفض الجماهير الريفية والقوات المعنوية والدينية للاحتلال الاستعماري.

المعارك

وقعت في البداية أعمال محلية عديدة مثل رفض الطاعة من طرف العساكر وهجر الخدمة العسكرية من طرف السبايس الذين تجمّع حولهم الغاضبون. وفي ناحية سوق أهراس نادى أحمد صالح بن رزقي، وهو قايد قديم مطرود بالثورة. وجمع كبلوطي من الحنانشة الثوار. وهاجم أولاد عيدم الميلية بألفين من الأنصار. وفي الجنوب، دخل بوشوشة وارقلة وطرد منها الآغا الذي عينه الفرنسيون.

وبعد إعلان الحرب المؤرخ في 14 مارس 1871، الذي قام المقراني، كل قياد دائرة برج بوعريريج (باستثناء اثنين) وكل القبائل التحقوا بجيش المقراني. ودخل الانتفاضة السبايس والقوم من أولاد تبين وأولاد براهم والأرباع. تم استعراض الأنصار تحت زغاريد النساء وبتاريخ 16 مارس 1871 هاجم ستة آلاف منهم برج بوعريريج التي هجرها الفرنسيون.

وجمع أحمد بومرزاق أنصاره في الونوغة وحتم على الفرنسيين الانسحاب إلى أومال (سور الغزلان). ومن مركز

صورة للمقراني



قيادته العام الذي كان في جبل مقرانين على بعد 20 كلم من سور الغزلان، أرسل العديد من الرسائل إلى القبائل في بلاد القبائل يطلب منهم إرسال الأنصار.

أراد المقراني أن يؤسس جامعة من العائلات الكبيرة التي يجب على فرنسا أن تتعامل معهم. ولهذا بعث عدة رسائل لكبار القادة ولكنه لم يستطع إقناع آل بنقانة من بسكرة ولا آل بوضياف من الصحاري ولا الباشغا بن يحيي من الطيطري. وبما أنه لم يستطع تأسيس جامعة الأسياد، فإنه اكتفى بالدعم الشعبي وبدعم رئيس الرحمانية، الشيخ الحداد.

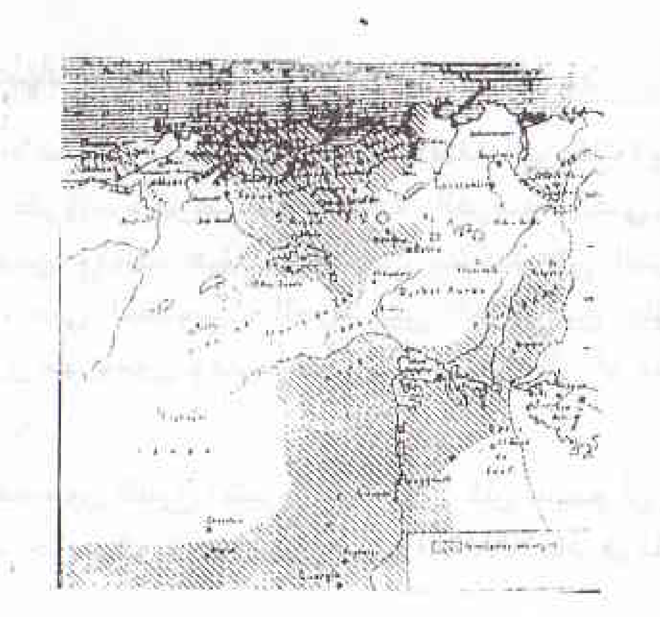
بتاريخ 6 أفريل 1871 استدعي كل المقدمين للرحمانية في صدوق حيث أعلن الشيخ الحداد الجهاد واعتمد على ابنيه عزيز وهو مناهض للفرنسيين وهو رجل سياسي. أكثر منه ديني ومحمود وهو مسلم متحمس وصوفي يحلم بالشهادة في الجهاد. وجاء أنصار من أكثر من 250 قبيلة وكانوا محاربين منضبطين ومنظمين في أفواج وعلى رأس كل فوج قائد ومحافظ سياسي ومقدم يحمل العلم وهو دائما حاضر في المعارك ويؤم الناس في الصلاة الجماعية قبل أيّ معركة. أعلنت بداية الانتفاضة العامة بإشعال نيران بسيطة على الجبال من مدينة الجزائر إلى سكيكدة.

هاجم الأنصار الضيعات والقرى. وفي المجانة وبلاد القبائل الصغرى، تمت قيادة العمليات بمفرزتين. فالأولى فيها 5000 رجل يقودها عزيز مقراني ويساعده عبد القادر الوهراني والبشير بن علي. والأخرى فيها 4000 رجل ويحكمها محمود بن

الحداد والمقدمون عمر أو بوجمعة وابن نعموم. ما يقرب من 10.000 مؤمن احتلوا برج بن علي شريف وهددوا بجاية.

وفي بلاد القبائل الكبرى كان الإخوان والمقدمون هم أهمّ المنظمين للانتفاضة. كما لعبت النساء، أخوات الشيخ الحداد دوراً هاماً. وتميزت إحداهن بصفة خاصّة وهي خديجة بنت كانون. والتحق بالأنصار المرابطون في المتيجة والعائلات الكبيرة وأولاد زاموم وآل محيي الدين في تاورقة وأولاد أوقاسي في التامدة. ووصلت الانتفاضة إلى تيزي وزو وباليسترو ودليس وبودواو والأربعاء... فانسحب الفرنسيون إلى مدينة الجزائر. وفي الجنوب القسنطيني ثارت قبائل بلازمة وقبائل الأوراس. لقد عمت الانتفاضة الجزء الأكبر من الشرق.

انتشار الانتفاضة في 1871



ورغم موت الباشغا مقراني في المعركة (5 مايو 1871) وحرق العديد من القرى فقد ضاعف الأنصار هجوماتهم في الحمزة بين البابور وبوطالب، حول بجاية وفي نواحي القل وميلة. لقد حرق الفرنسيون القرى. ولذلك خضعت القبائل. واستسلم عزيز بن الحداد وأبوه الشيخ الحداد على التوالي في 30 جوان و13 جويليا 1871.

وتواصلت المعارك إلى غاية يناير 1872. وقاد الجهاد مالك البركاني وهو من عائلة البراكنة المرابطة عند بني المناصر (هجومات ومعارك لنوفي وزويخ ومارنقو ومليانة وحمام ريغة في جويليا أغسطس). وقاد الشيخ حسين أحمد بن شريف (مولاي شكفة) عملياته في ناحية جيجل وهاجم السعيد بن بودواو بوسعادة ومسيلة. وقام بومرزاق بآخر معاركه، وتم إيقافه بتاريخ يناير 1872.

الاضطهاد المرعب

كان الاضطهاد رهيبا إلى درجة أن المقاومين كانوا يعتبرون قطاع طرق. وحرضت الصحافة الفرنسية على تقتيل المنتفضين وكانت هيئة المحلفين مشكلة من الفرنسيين فحكمت على المقاومين الجزائريين الموقوفين على أنهم محاربون مهزومون وعلى أنهم رعايا من الأهالي أو على أنهم فرنسيون.

فالمقاومون الذين اعتبروا "محاربين" كان عليهم أن يدفعوا غرامات حرب قوية، ما يقرب من 36.500.000 فرنك. لقد

قبضت الخزينة الفرنسية سنة 1875 مبلغ 31.500.000فرنك. وتمت مصادرة أراضي "الرعايا الأهالي". ومست هذه الإجراءات كل القبائل المنتفضة لأن المجموعة القبلية كانت تعتبر على أنها شخصية مدنية مسؤولة وهذا لم يمنع الفرنسيين من تطبيق هذا العقاب على القبائل التي لم تحارب. وفي المجموع تمت مصادرة 340.000 هكتار بالصفة الجماعية و250.000 هكتار بالصفة الفردية. فصار العديد من الملاكين الجزائريين خماسين أو عمالا فلاحيين في ملكيتهم القديمة. وكـ "فرنسيين" تمت محاكمة المنتفضين أمام محاكم جنائية أمام هيئات محلفين مشكلة من المعمرين. لقد نفي سي عزيز إلى نوميا (كليدونيا الجديدة) وقد نفي كذلك الشيخ الحداد ومات في 1872، أما بومرزاق فقد حُكِمَ عليه بالإعدام وتمّ الإعفاء عليه ونفي إلى نوميا.

لقد كانت انتفاضة 1871 آخر محاولة للانتفاضة العامّة. وقد أظهرت الإيمان الديني ووطنية الجماهير الريفية الجزائرية. فالأراضي التي فقدت والقطعان التي سرقت وضرائب الحرب والغرامات وإغلاق الزوايا والأحكام بالإعدام والنفي قد تألم منها الشعب الجزائري كثيراً.

النصـــــــوص

مذكرة من السيد عزيز بن محمد أمزيان بن الشيخ الحداد إلى قضاته والمدافعين عليه

إن السجن والخزي والموت والنهب والحرق والضرب، وكل هذه الأشياء لا تحمل الناس على الطاعة؛ ربما ستضاعف هذه الأشياء في قلوب الناس وخاصّة منهم السجناء وأقاربهم والذين هم تابعون لهم، الحقد والعداوة ضد الحكومة وذلك على عكس ما يمكن أن يجري بهؤلاء الناس وهم يعيشون بين ذويهم.

لا يمكن أن يرضى أحد بموت أخيه أو أبيه أو ابنه. أمّا الذين نبقيهم بعيدين عن وطنهم، فإن قلب ذويهم يموت من القلق عليهم بسبب طول مدة الفراق. وينتهي بنا الأمر إلى اعتبارهم من الموتى لأنه ما يمكننا أن نشتغل حول الغائبين مثلما نفعل ذلك مع الحاضرين وهو أمر تثبته التجربة. إذْ إلى غاية سنة 1871، كم من الناس كانوا في السجون أو كانوا رهائن بين أيدي الحكومة من اجل الثورات التي جرَتْ في السنوات السابقة والتي يبدو أن القبائل والأهل والإخوان لم ينشغلوا بذلك؟ ومع هذا من يدري إذا كان العدد الأكبر من المنتفضين في 1871 يتألف من أهل أولئك الناس المسجونين الذين يكونون قد ثاروا ضدّ الحكومة وهم يفكرون بصفة حصرية في كل الآخرين لأن قلوبهم كانت ممزقة من وجود إخوانهم في السجن أو تم إعدامهم؟ ورغم أن السجن كان بعيدا، فإن قبائل هؤلاء الناس

المسجونين في فرنسا كانت ربما هي السابقة في الانهماك في الثورة ضد الحكومة بأمل تخليص إخوانهم وأقاربهم وأولادهم.

على الحكومة أن ترجع لهم حريتهم وتغفر لهم لأن ثورة إخوانهم وقبائلهم هنا ليست لها أسباب أخرى.

نداء إلى الجهاد موجه إلى باشغا

إلى بن يحيى بن عيسى باشغا الطيطري

"(بعد الكثير من الثناء) أعلم أننا فتحنا أبواب الجهاد، سنهاجم اليوم برج بوعريريج مع ما يقارب 4000 آلاف فارس. سنستولي، إن شاء الله، اليوم على جزء من المدينة ويسقط الباقي بين أيدينا هذه الليلة. وربما ستقاوم القلعة وحدها بسبب جدرانها ولكن عندما نحصرها، نأملُ أن تسقط بعد ثمانية أيام على الأكثر. وفي حالة خروج المفرزة من سطيف سنترك قلعة برج بوعريريج ونذهب للقائها. الله وحده هو الذي يعطي النصر.

عندنا حماس شامل من أجل الجهاد وإذا انتفض المسلمون من كل جهة، أقسم بالله أنهم لن يكونوا في حاجة إلى الثورة مرّة أخرى.

ولهذا، فإن كنتم تحبون الله ورسوله، فلا تفوّتوا هذه الفرصة

كم من مجهودات قمنا بها في غير سبيل الله! وكل ذلك لنتعرض لإهانات وإذلالات. ولكن الإسلام مازال باقيا!.

في حالة قبولكم اقتراحاتنا، فإننا نرى أنه من المفيد أن ننصحكم بالاستعجال؛ أنت تعرف أحسن منّي أن في عمليات الحرب لا ينبغي تضييع الوقت. والله يهدي إلى الطريق المستقيم.

والسلام عليكم من الحاج محمد المقراني. في ذي الحجة 1287 - مارس 1871.

إعلان الحــرب

رسالة المقراني إلى الجنرال أوجيرو

أشكركم على الأشياء الممتازة التي أخبرتموني بها؛ أشكركم حسن تصرفكم معي. أبقيها كأحسن ذكرى، ولكن لا أستطيع أن أجيبكم إلاّ بشيء واحد: قد سلمت استقالتي للمارشال ماك ماهون الذي قبلها. وإذا واصلت خدمتي لفرنسا فلأنها كانت في حرب مع بروسيا وأنا لم أرد مضاعفة الصعوبات على حريتي. فأنت تعرف وقد قلت لك ذلك: لم يمكنني أن أكون عونا لحكومة مدنية تتهمني بالانحياز وهي قد عينت خلفي. ومع هذا سنرى فيما بعد إن كنا على حق أن نقوم بمثل هذا وإن كنت مخطئا. لقد تم إيقاف أعواني في سطيف وأومال ويؤكد في كل مكان أني ثائر. لماذا؟ لأنهم يريدون الحكم عليّ. ولهذا سوف لن أتبادل مع هؤلاء الناس إلاّ بطلقات البنادق وأنتظر. سأكتب للسيد أوليفيي أني أرفض حوالة شهر فبراير وأن يكون على حذر لأني أتحضر للحرب. وداعًا!".

محمد بن الحاج أحمد المقراني

رسالة ذكرها ل.رين. تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر.

مقتطفات من مطالب بعد 1871

أغنية قبائلية لإسماعيل أزيكيو

ذهب الناس وحملوا الأواني

والأرض استولى عليها الإسبان،

والمالطيون والأعوان غير النزهاء.

فلو كانت أراضي الزمالة،

التي صادرتها فرنسا أثناء الاضطراب،

لكان ذلك جيدا، يا ممثلي الحكومة.

ولكنكم قد استوليتم على المقابر والتراب البلدي

لا نعرف أين نربط حماراً؟

إن ما قلتم هنا غريب.

كل واحد فكره مشغول،

كل الناس تخلوا عن الأعمال الحقلية،

فالعوسج وحده هو الذي ينبت بحرية

إذ المحصول الطيب يتطلب الزبل،

للأعشاب وللحبوب،

اعلموا هذا يا من تحبون الأشياء الصحيحة.

فمن كان يملك ما عزا كرهها،

وباعها بسعر بخس،

منذ منعت الغابة.

قلبك متصلب يا فرنسا

لأنك لا ترين إلا ما لا معنى له،

وتنسين منافع المسلمين.

ذكره لوسياني في المجلة الإفريقية، 1900

الفصل الحادي عشر

المجتمع الجزائري والسياسة الاستعمارية 1914-1870

لقد انقلب المجتمع الجزائري رأسا على عقب وتم تحطيمه من طرف الهيمنة الاستعمارية وكان يتألم من الوضعية الاقتصادية المزرية والتفقير وتفكك البنيات التقليدية...ورغم هذا، فإن شعبها بقي حيّا ولم تتحقق التوقعات المخيفة "لانقراض العرب". بل أحسن من ذلك لقد استقر المنحنى الديمغرافي حول سنة 1872 وبدأ يتحسن وذلك نتيجة لحيوية جنس أكثر من بعض "فوائد الاستعمار". لم يكن للجزائريين حقوق سياسية ؛ كانوا خاضعين لنظام الأهالي الخاص ولإضعاف المؤسسات الدينية. ورغم ذلك فإنهم ظلوا مرتبطين بتقاليدهم مع إبراز محافظة ناقدة.

التفقيــر والتقلــب الاجتماعي

على المستوى الاقتصادي، كان الاتصال بين المجتمعين، المسلم والأوربي كارثيا في فترة الأزمة وللمرّة الأولى، لقد صار الجزائريون متضامنين وذلك بسبب التوسع الاستعماري الذي استولى على أراضي ثوار 1871 واستفاد من قرار مجلس الشيوخ لسنة 1863 وقانون فارنيي 1873 وقانون 22 أفريل 1887 والقانون العقاري لـ 16 أفريل 1897 ليوسع ممتلكاته. فوجد الفلاحون الذين انتزعت منهم أراضيهم تحت رحمة المرابين

الذين كانوا يمارسون نسب فائدة من 20 إلى 200٪ ويطلبون بعض الأراضي ضمانا وتبقى تلك الأراضي بين أيدي أصحابها ولكنها غالبا ما تصادر في حالة عدم تسديد الدين. كان الفلاحون ضحية لقانون الغابات قاس حيث أنه لم يعد لهم الحق في ترك قطعانهم ترعى في الغابة، وكانوا في بعض السنوات يدفعون غرامات تفوق بثلاث مرات المداخيل التي مست 169.000 هكتارًا. وكانت الضرائب التي يتعرض لها العرب على المحاصيل والمواشي باهضة. وامتد العشور منذ 1886 إلى المحاصيل التي يتم حشها وإلى الأشجار وانضافت إلى الرسوم على الدواب. وفي 1890 كان المسلمون يدفعون 40.800.000 فرنك من الضرائب والرسوم مقابل 22 مليونا كمعدّل في سنوات 1860-1870. فماذا يبقى للفلاح ليعيش طوال العام؟ فأيّ أزمة، ولو كانت بسيطة، تحدث القحط وحتى المجاعة في 1877-1878، وهي سنة التجأ خلالها السكان إلى أكل عسقول النباتات البرية والعروق.

لم يكن إنتاج الحبوب يتبع المنحنى الديمغرافي : 6,1 قنطارًا في الهكتار من الحبوب في 1876 و4,2ق في الهكتار في 1901. كان هذا الإنتاج يعبر عن نقص المساحات المحروثة وضعف التقنيات الفلاحية. وإن نقص المواشي ضاعف سوء الوضعية الاجتماعية لحياة الفلاحين.

المعدل السنوي

السنوات	الأغنام	الأبقار	الماعز
1885-1889	9.318.000	تقريبا مليون	4.481.000
1895-1899	7.150.000	حوالي 846.000	3.475.000

وإذا أضفنا إلى هذه العوامل، غياب وسائل النجدة التقليدية : أملاك الأوقاف ومطامر الإدخار سيكون لنا فكرة عن بؤس الفلاحين.

كانت علامات الفقر كثيرة جدا في تلك الفترة ؛ تكاثر الأكواخ - من الأغصان والأحجار اليابسة والطوب والمغطاة بالديس أو القصب أو قشّ السقوف - على حساب الخيمة وخاصّة تخريب المجتمع الريفي. كانت مجموعة الصغار والمتوسطين من الملاكين هم الذين تألموا كثيرا من الاستعمار. فبعد أن خسروا أراضيهم أو أبعدوا إلى أراض سيئة، لم يعد الفلاحون قادرين على الحياة من محاصيلهم. فبينما كانوا في بداية القرن يملكون خمسة هكتارات للفرد، لم يعد لهم إلاّ 2,15 هكتارًا في نهاية القرن التاسع عشر. وهكذا فإن العديد منهم ذهبوا إلى ضيعات المعمرين وفي القرى الجديدة ليعرضوا قوّة سواعدهم. أنصاف بروليتاريا ويد عاملة رخيصة جدًا، فهم تارة عمال موسميون، وتارة أخرى عبيدا عصريين دائمين على أراضيهم القديمة. فوجد المجتمع نفسه مفككا، واختفت المؤسسات القبلية ؛ تبقى

فقط الذاكرة بمناسبة الاحتفالات بالحج أو حول الزوايا حيث تحافظ الطرق على الإيمان. حافظت الرحمانية التي حشدت الثوار في 1871 على العديد من المريدين، بينما واصلت السنوسية التي أنشئت في بداية القرن التاسع عشر تمركزها. وبقي الإسلام هو الملجأ لآمال الفقراء.

استطاع بعض الملاكين الأثرياء وهم غالبا قياد إلى توسيع وعصرنة ممتلكاتهم. ولكن الشيء الأكثر بروزا هو انحطاط العائلات التقليدية الكبيرة التي أفلست إثر المصاريف الكثيرة للضيافة وكان عليهم بيع أراضيهم. والعديد منهم يعيشون في فقر مدقع : صار أعضاء من سلالة المقراني والشيخ الحداد رعاة أو حرّاس غابة أو خوجة بسيطا. فأعضاء العائلات التقليدية الذين يحافظون على مستواهم إنما يرجع ذلك إلى كونهم يدخلون في خدمة الإدارة الفرنسية كقياد أو آغوات أو باشغوات. فيوسعون ممتلكاتهم ويستطيعون زيادة زبنائهم وهم في نفس الوقت يتوسلون إلى الإدارة الفرنسية التي يخدمونها.

الهيمنة الاستعمارية

الرعايا الأهالي

فأمام الأوربيين القادمين من فرنسا أو من بلدان أخرى وهم مواطنون بالاعتماد على القانون وحده، لم يكن للجزائري المسلم من الناحية القانونية لا فرنسيا حقيقيا ولا مواطنا جزائريا. بالفعل قد جعل قرار مجلس الشيوخ لـ 1865 من

الجزائري المسلم فرنسيا ولكن دون أن يستفيد من المواطنة وبالتالي من الحقوق والمزايا الممنوحة للمواطنين : لا تمثيل له في البرلمان، ولا تمثيل متساو له في المجالس البلدية والمجالس العامة ولا دخل له في الحقوق إلى الحرية والمساواة مثل ما هو الحال بالنسبة للمواطنين الفرنسيين، ولكن بالعكس يخضع لقوانين وتدابير خاصّة تتمثل في قانون الأهالي. حقيقة كان قرار مجلس الشيوخ لـ 1865 ينص على إمكانية الحصول على المواطنة الفرنسية. وفي نفس الوقت ترفض كل المزايا الممكنة التي يمنحها طلب التجنيس (وهو كلمة غير صالحة لأن قرار مجلس الشيوخ كان قد أكّد أن المسلمين الجزائريين فرنسيون) علما بأن هذا التجنيس يعتبر ردة وكفرا لأنه يتضمن التخلي العمدي عن القانون الإسلامي، الشريعة، وبالتالي القانون الشخصي. وبالفعل فقد كانت الطلبات قليلة : لقد تم تسجيل ثلاثين طلبا في الشهر من 1865 إلى 1900. بقي المسلم الجزائري أهليا وهو معنى مستهجن أكثر من أن يكون لغويا، فقد كان رعية فرنسية في الحقيقة ولكنه أقل قيمة من المواطن الفرنسي. ولهذا فإن الجزائري كان منزعجا أمام المطبوعات. فماذا يكتب أمام كلمة جنسية ؟ أهلي ؟ أو رعية فرنسية ؟ أو مسلم غر مجنس؟ أو غير مواطن ؟ ودام هذا الأمر إلى غاية 1962.

كان على الجزائريين أن يتحملوا القرارات المصوت عليها من طرف العنصر الأوربي لأنه لم يكن لهم نواب، وكان تمثيلهم في المجالس المحلية بصفتهم أقلية. وبالفعل فقد كان تمثيلهم في المجالس البلدية يساوي ثلث الأعضاء منذ 1866 وفيما بعد الربع

فقط من الأعضاء، ولا يمكن أن ينتخب أحدهم شيخ بلدية. وفي المجالس العامّة، لم يكن هناك إلاّ ستة مساعدين معينين، ولم يتم انتخابهم إلاّ في سنة 1906. وكل هذا يعني أنهم لم يكونوا إلاّ ممثلين صوريين يفرض عليهم قانون القوة العددية أن يكتفوا بما تقرره الأغلبية الأوربية.

السياسة الاستعمارية

تعطينا حياة المسلمين على المستويين الإداري والقانوني فكرة عن الممارسات الاستعمارية.

كان المسير الفرنسي يحكم البلدية المختلطة أي الحاكم وتساعده لجنة بلدية مؤلفة من منتخبين فرنسيين وبعض المساعدين الأهالي المعينين. وفي الدواوير كانت الإدارة تعيّن الجماعات (من 6 إلى 16 عضو). والسلطة الحقيقية كانت بين أيدي القياد الذين يتم اختيارهم حسب مرونتهم ولا يطلّب منهم أي كفاءة إدارية، فقد كانوا في الغالب أميين وكانوا يرتكبون تجاوزات غالبا ما يتم التنديد بها ؛ كالأعمال المجانية لصالحهم ودفع الرشاوي وتقسيم الضرائب العربية التي يأخذون منها العشر بصفة شخصية...وعليه فقد كان أولئك القياد في الأرياف البعيدة ويلقبون بـ"القروش الحمر" يرمزون إلى عملاء النظام الاستعماري. فالحاكم يمثل الإدارة وكان هو الرئيس الحقيقي للبلدية المختلطة وكان يتمتع بسلطة غير محدودة عمليا، لأنه يستطيع أن يسلط حكما بدون أيّ دليل وأن يفرض غرامات هي في الواقع غير مراقبة وأن يأمر بالسجن الإداري.

وفي البلديات الكاملة الممارسة حيث كان يعيش من 5 إلى 17٪ من الجزائريين، كان شيوخ البلدية لا يهتمون أبدا بمحكوميهم المسلمين. فقد كانت التجاوزات لا تحصى والضرائب المدفوعة من طرف المسلمين كانت تخدم مصالح الأوربيين عوض أن تحسن ظروف حياة المسلمين.

فالمظهر الأكثر جورا في الظروف الاستعمارية هو تأسيس الإجراءات الخاصة خارج القانون العام وتعرف بالمخالفات الخاصّة بالأهالي وتعطي للسلطات الإدارية الممثلة للسلطة التنفيذية وهذا يخالف تماما القانون الفرنسي، القدرة بالحكم وتطبيق الأحكام والعقوبات القاسية. وهذا ما نسميه فيما بعد قانون الأهالي الذي أسسه قانون 28 جوان 1881 في عهد وزارة جول فيري.

فبينما كان الجزائريون يريدون البقاء تحت القضاء الإسلامي، كانت الإدارة تقلص من صلاحيات القضاة وتقوي صلاحيات الحكام (قضاة). ولهذا فإن عددا كبيرا من المسلمين كان يلتجئ إلى المصالحين والحكام وهم في الغالب أشخاص دينيون كانوا في الواقع يشكلون عدالة سرية يجهلها الفرنسيون.

فالسياسة الدينية الفرنسية هي التي صدمت المسلمين أكثر من غيرها. فالإدارة سرقت الأملاك الوقفية، ولم ترجع الميزانية التي خصصت للشعائر الدينية ما يعادل الفوائد من رأس المال المنهوب. كان أعضاء الشعائر المعينين من طرف الإدارة المؤلفة من المسيحيين مدجنين من طرف السلطات الاستعمارية. كانت

الأعياد الدينية والحج إلى مكة خاضعة لرخصة إدارية. وكانت الإدارة تحارب المدارس القرآنية. الزوايا التي كانت في السابق مراكز للإشعاع الثقافي صارت أنشطتها تتقلص. كما كان يتم إزعاج الطرق فيوقف شيوخها في الغالب كما كان الأمر بالنسبة للسيد أحمد التيجاني (بين 1870 و1872) والشيخ طكوك من السنوسية (مرتين) والمسؤولين عن الرحمانية. فرغم العداوة الإدارية بقي عدد المنتسبين مرتفعًا جدًا. تعطي إحصاءات 1895 : "295.000 منتسبا منهم 221.141 مريدا و27112 مريدة". البحث عن الحياة الروحانية والأخوة الدينية والتضامن المناهض للاستعمار : كل هذه العوامل تفسر انتساب سكان الأرياف إلى الطرق التي كانت الإدارة تحاول حراستها ومراقبتها وتدجينها.

نجحت الإدارة في تفتيت الطرق لكون العديد من المشايخ يبحثون عن الاستفادة من الإدارة. وكان الجزائريون يرون هؤلاء على أنهم خونة و"مستغلون للجهل والتطير".

سياسة التفرقة

لقد تم استغلال العبارة القديمة "فرق تَسُدْ" من طرف الإدارة الاستعمارية وخاصّة في السياسة البربرية التي ترمي إلى المجابهة بين البربر والعرب. قدر بعض علماء الأجناس والعساكر أنه من الممكن الاعتماد على البرابر لتدعيم الفرنسة وحتّى القيام بالتمسيح. فتم تقليص سلطات القادة والإكثار من عدد الأمناء (تقريبا 541)، تم حذف محاكم القضاة، وتدوين القانون العرفي الذي تم تطبيقه من طرف القضاة الفرنسيين.

وقد حسن هذه السياسة كميل صباتيي وهو حاكم (مسير) على أمل إدماج القبائل. فاستعمل الوسائل التالية : تحريك عقلية الصف وإصلاح بعض القوانين وبرنامج للعلمنة وتشجيع البربرية على حساب العربية، وإعادة تسمية القرى في بلاد القبائل (مشلي عوض عين الحمام وميرابو عوض ذراع بن خدة...) ومشروع نيابة مالية مع عدد النواب القبائل مما يقرب من ضعف عدد النواب العرب وإرغام القضاة على تحرير عقودهم بالفرنسية وليس بالعربية، وقد فشلت كل هذه السياسة، فقد بقي الرجل القبائلي هو المقاوم الأبدي.

السياسة المدرسيـة

في سنة 1870 كان عدد المدارس العربية الفرنسية 96 مدرسة وكانت تعلم العربية في الصباح والفرنسية في المساء لـ 1300 تلميذا. وثانويتان واحدة في مدينة الجزائر والأخرى في قسنطينة مع 200 تلميذ جزائري، ومدرسة للفنون والمهن في فورناسيونال وثلاث مدارس رسمية فيها تقريبا مائة طالب ومدرسة للمعلمين مع فرع للأهالي : بينما كان التعليم التقليدي أقل أهمية مما كان عليه في سنة 1830 لأنه تقهقر.

فبعد سنة 1871 تحرش المعمرون ضد المدارس الفرنسية والمدرسات وتقلص عدد التلاميذ (1150 تلميذا في سنة 1880، و81 تلميذا ثانويا في 1889). يمكننا الحديث عن فشل السياسة المدرسية. فمن ناحية كان المسلمون يرفضون إرسال أولادهم

إلى المدرسة الفرنسية ؛ ومن ناحية أخرى كان المعمرون يعارضون ذلك لأن أيّ تعليم يعطى للجزائريين يصير سلاحا مناهضًا لفرنسا. وأفشلت إرادة شيوخ البلدية الأوربيون مشاريع بناء المدارس الموجهة للجزائريين رغم حماس بعض الرجال مثل ماكير ومدير الأكاديمية جانمير وبعض المعلمين المخلصين.

وفي سنة 1914 بقيت حصيلة تمدرس الجزائريين ضعيفة ؛ 47.263 تلميذا أي أقل من 5 ٪ من الأطفال المسلمين و89 ثانويا سنة 1899 (180 في 1910 و386 في 1914) وكانوا ينتمون في الغالب من العائلات الكبيرة وأقل من مائة في التعليم العالي. هذه النتائج ضعيفة ولم تستطع المدرسة أن تكون آلة حقيقية للهيمنة الاستعمارية والتعليم بالفرنسية الذي قدّم لم يكن بصفة إجمالية إلا خميرة ضعيفة لتغيير المجتمع الإسلامي الذي بقي في العديد من المناطق وخاصّة في الجنوب مرتبطا ارتباطًا قويا بثقافته الإسلامية.

ردات الفعل الجزائرية

في المجال السياسي كانت الشكاية ضد الظلم والتجاوزات هي أول صيغة للتعبير من قبل الأعيان. وتدققت بطلب المساواة وصارت سياسة أكثر في بداية القرن العشرين عندما طلب من نسميهم بالشبان الجزائريين حقوق المواطنة مقابل قبولهم للتجنيد.

فالشكايات التي كان يتم تحريرها من قبل شخصيات أو مجموعات كانت تعبر عن الاستياء من ثقل الضرائب ونقص التموين أو تطلب فتح طريق أو عين. والشكايات الأكثر جرأة كانت تستنكر تجاوزات الموظفين الصغار وخاصة القياد. وبعضها كانت تحوّل إلى لوائح تذكر المطالب العامة مثل التي وقّعها 1700 جزائري سنة 1887 يرفضون التجنيس. عشية الحرب وبعد المرسوم المؤرخ في 3 فبراير 1912 المتضمن تأسيس التجنيد بالنسبة للمسلمين، وجّه أعيان إلى السلطات عريضة تتضمن عدة لوائح ضدّ ذلك الإجراء. كان الرأي العام التقليدي يندد بالمستحدثات التي تهدد الإسلام. وفي هذا المجال تذكر لائحة تم توقيعها سنة 1895 من قبل 1900 من أعيان ناحية قسنطينة : "فأعزّ رغبة لدينا والشيء الذي نتمسك به أكثر من أي شيء آخر هو المحافظة على الشريعة".

الهجرة من الأرض التي دنسها الكفار كانت هي الوسيلة التي لجأ إليها التلمسانيون للتخلص من التجنيد. بين 1910 و1911، غادر 526 جزائريا تلمسان متوجهين إلى المشرق. حاول التقليديون بعث جرائد ولم ينجحوا في ذلك بصفة كاملة. فبعث احدهم وهو محمد بن رحال فكرة لنهج جديد : الوفاء للعقيدة والثقافة الإسلامية وتبني العلوم والتقنيات العصرية للغرب. ولكن المستقبل السياسي كان بين أيدي الشبان الجزائريين والشبان المثقفون المتكونون باللغة الفرنسية والذين بدأوا في بعض المدن يطالبون باسم المبادئ الفرنسية : المساواة مع فرنسيي الجزائر والارتقاء إلى الوظائف العمومية وتنمية

المدارس والاستيقاظ الثقافي للأهالي والتمثيل البرلماني لأن "شعباً غير ممثل" لا يتم الدفاع عليه. وتجمع هؤلاء الشبان في جمعيات (الراشدية في مدينة الجزائر ونادي صالح باي في قسنطينة...)

والبعض منهم نشروا جرائد: المصباح في وهران والهلال في مدينة الجزائر 1906-1907 والمسلم في قسنطينة والإسلام في عنابة 1909، والعلم الجزائري سنة 1910 في عنابة والراشدي في جيجل والحقّ مع عنوان فرعي المصري الصغير في وهران سنة 1911.

وابتداء من سنة 1908 ركز الشبان الجزائريون كفاحهم على التعويضات التي ينبغي الحصول عليها بتطبيق التجنيد. وفي سنة 1909 أقاموا أول تجمع إسلامي كبير.

الشبان الجزائريون -ألف شخص فقط- الممثلون للنخبة والمعولون على الدفاع عن المطالب المعتدلة في الإطار الفرنسي تم اتهامهم على أنهم وطنيون مناهضون لفرنسا. أما المثقفون بالعربية فإنهم توجهوا إلى الشرق، إلى النهضة العربية الإسلامية وأول أعمال الوطنيين المصريين.

جلب الشبان الجزائريون تعاطف بعض الأحرار الفرنسيين، فالنائبان آلبان روزي وماسيمي مثلا قد طلبا بتفهم أكثر تجاه المسلمين. فالجريدة "لوتان" قامت في 1907 بحملة ضد نظام الأهالي. ففي مقالاتها سنة 1912 طالب بول بورد بالمساواة للمسلمين في العديد من المجالات والحريات ومكانة في الحياة

السياسية الفرنسية، الشيء الذي هول غضب المعمرين. فالفرنسيون الذين جمّعوا حول جورج لايغ وآلبان روزي وماسيمي، صحفيين من "الكفاح الاجتماعي" و"الاشتراكي" و"الحرب الاجتماعية" وخاصة "لوتان" كانوا رائعين لأنهم نددوا بتجاوزات النظام الاستعماري واقترحوا إصلاحات. لقد حتمت كل هذه الحملات على الحكومة أن تمنح عشية الحرب بعض الإصلاحات: الزيادة في عدد المنتخبين وعدد المستشارين العامين وتليين قانون الأهالي.

نصـــــوص
ضدّ التجنيـس

رسالة - لائحة من قسنطينة في 10 جويليا 1887 إلى أعضاء مجلس الشيوخ والنواب، تم توقيعها من قبل 1700 من الأعيان والمنتخبين المسلمين الذين رفضوا اقتراح ميشلان وغولي اللذين اقترحا إدماج المسلمين بصفة شاملة في الأمة الفرنسية بواسطة التجنيس":

"هذا الاقتراح لا يليق بنا للأسباب التالية:

"وجهة النظر الأولى:

يكون للدخول في الجنسية الفرنسية نتائج بالنسبة لنا وهي الإلغاء الكامل لقانوننا وشريعتنا سواء في مستوى المسائل المادية (المنقولة والممتلكات) أو في مسألة قانون الأحوال الشخصية. والكل يعلم عندنا أن الشريعة هي أساس الدين وأنه لا يسمح لنا بأن نبتعد عن الطريق المستقيم".

"فإذا أخضعتمونا بصفة شاملة وبدون استثناء إلى التجنيس الفرنسي، فإنكم بالتالي تحملوننا على التخلي عن عاداتنا وتدخل علينا اضطرابات في سلوكنا لأن القوانين الفرنسية تتضمن ترتيبات يكون تطبيقها متنافيا بصفة مباشرة مع سلوكاتنا وحتى مع كُنْه معتقدات المسلمين".

وجهة النظر الثانيــة:

"قد تكون الحقوق الممنوحة للمسلمين ذات وجهين مختلفين: 1/ الدخول في الوظائف والمناصب المختلفة. 2/ المساواة المطلقة مع الفرنسيين في مجال الحقوق السياسية وأمام القوانين الانتخابية.

بيد أنه ولا مراء في ذلك، إذا أراد المسلمون أن يتم تعيينهم في المناصب، يجب عليهم أن تتوفر فيهم الشروط المطلوبة من كفاءة وأهلية، وأن يتحصلوا قبل كل شيء على المراتب الجامعية الفرنسية وأن يستوعبوا التعليم الكافي والمعارف الضرورية لهذه الوظائف. وبالضبط فإن ما يميزهم هو عدم الاستطاعة وغياب الكفاءات الخاصة.

وفيما يخص ممارسة الحقوق الانتخابية بالكيفية الأكثر نظامية والتي لا توفر لهم إلاّ المزايا، فلا يمكن أن يتم ذلك دون أن يوجه عتاب إلاّ عندما يجمعون في أنفسهم الشروط التالية: المعرفة، والتبصر والحرية والاستقلال. مع الأسف فإن مسلمي الجزائر متخلفون من وجهة نظر الحضارة الفرنسية فالأغلبية منهم، أعني سكان الأرياف أميون يغطون في الجهل المطبق ولا يتحركون إلاّ بالإرادة المتغيرة لرؤسائهم وقادتهم لأنهم يخشونهم كثيرا وبصفة فطرية.

فالسكان المعنيون ليسوا محضرين لمثل هذه الظروف؛ إنهم عاجزون عجزا مطبقا عن استعمال هذه الحقوق الانتخابية وباعتبار هذه الحالة المنحطة فإنهم لن يستطيعوا قطف المزايا والاستفادة من منافع التجنيس؛ وبالتالي فإن الهدف المقترح لن يتم بلوغه".

"والشيء الذي نريده :

فاعتبارا لكل هذه الملاحظات وتفاديا لأي التباس في أذهان سيادتكم فإننا بادرنا بعرض هذه الحجج وأن نصرح في هذا الكتاب، نحن المسلمين الأهالي من الجزائر أن شيئا واحدا يليق بنا : المحافظة على حالتنا الاجتماعية وعلى شريعتنا (المدنية والدينية) وعلى سلوكاتنا، وكل هذه الأشياء لم تتوقف الحكومة الفرنسية عن حمايتها منذ أكثر من خمسين عاما، وهي تفعل هذا بروح عالية من العناية السياسية ولتنفيذ بنود معاهدة استسلام مدينة الجزائر في 1830 وهي الفترة التي مرّت فيها بلادنا تحت الهيمنة الفرنسية.

ونحن متيقنون أن الحكومة الفرنسية، باعتبارها روح العدالة المبنية على مبادئ الحرية، لن ترفض على رعاياها إجراء خطيرا مثل هذا دون أن يسبقه طلب معبر عنه من طرف السكان خاصة وأن الباب مازالت مفتوحة حسب القوانين المعمول بها لمن يريد الاستفادة من التجنيس وذلك بناء على إرادته الحرّة.

بعض الجنح من قانون الأهالي

- كلام ضدّ فرنسا والحكومة
- رفض أو عدم امتثال لخدمة حراسة أو رقابة.
- رفض الأعوان المساعدين تسلم مقابل الدفع في الحين للمؤن ونقل الموظفين.

- عدم تنفيذ الأوامر المتعلقة بقوانين 1873/07/26 و1882/03/23 و1887/04/2.
- عدم التقيد بالقرارات الإدارية المتضمنة الاستفادة من الأراضي الجماعية.
- تأخر في دفع الضرائب ؛
- رفض الاستجابة لاستدعاءات القابضين.
- إخفاء المادّة القابلة للضريبة.
- حيازة حيوانات ضائعة أكثر من 24 ساعة.
- إيواء أي شخص أجنبي يتحرك بدون رخصة في أماكن محظورة.
- الذهاب من البلدية دون إنذار ؛ التنقل من الإقامة بدون جواز سفر.
- نسيان التأشير على الرخصة في المكان الذي نقيم فيه أكثر من 24 ساعة.
- ضجيج وفضائح وأي أعمال عنف أخرى.
- رفض أو إهمال القيام بأعمال أو خدمات أو مساعدة في حالات الانتفاضة.
- اجتماع بدون رخصة لأكثر من عشرين شخصا بمناسبة زردة أو زيارة (حج أو أكل عمومي).

- فتح أي مؤسسة دينية أو تعليمية بدون رخصة.

- ممارسة غير مرخصة لمهنة دراس أي معلم ابتدائي.

- عدم الحضور أمام ضابط الشرطة القضائية.

ذكره م.سماتي في : تكوين الأمة الجزائرية. ص : 204-205.

الأسماء العائليـة

بعد قانون 1873 عن الملكية الفردية، فرض الفرنسيون اسمًا عائليا لكل مالك. وهكذا تم التصويت على قانون في 1882، يتضمن وجوب بطاقة التعريف مع الإسم العائلي. وأغضب هذا القانون الجزائريين عندما طبق من طرف موظفين عنصريين.

أوّلا لأن الأسماء التي أعطيت لهم كانت مضْحكة أو مهينة ؛ أسماء فرنسية أو عربية لحيوانات مثل شادي (قرد) أو رأس الكلب أو خَامج أو فرطاس أو عقون بغض النظر عن الأسماء الفاحشة. وفيما بعد لأن العائلات الجزائرية كانت ترى في تلك الإجراءات الجديدة شكلا مخفيا للإحصاء من أجل دفع الضريبة أو الخدمة العسكرية.

كما نلاحظ أن بعض الأسماء تأتي من الجزائريين أنفسهم الذين كانوا عندما يسألون فإنهم يجيبون الضابط بشتيمة للضابط الجاهل للعربية والمكلف بتسجيل الاسم العائلي : يمّاك، كلب...

مقتطف من محاضرة الأمير خالد في باريس في ديسمبر 1913

الصيغ الأولى للأفكار السياسية للأمير.

عرض الأمير في هذه المحاضرة على جمهور باريسي أفكاره السياسية الأولى عن المسألة الجزائرية في الوقت الذي كثر فيه الحديث عن الإصلاحات التي تمنح للمسلمين.

طالب خالد لأخوانه في الدين نفس الحقوق الممنوحة للفرنسيين بما أنهم كلهم ملزمون بنفس الواجبات. وأكد في هذا المجال أنه إذا أنجزت تغييرات في الجزائر فذلك لأن العمل الذي قام به العمال والفلاحون كان له معنى. ولهذا فإنه دافع لصالح استعجال الإصلاحات السياسية التي تمنح للمسلمين. وبرهن خالد على هذا مثل جميع الشبان الجزائريين بل ذهب أبعد منهم شيئا ما. فندد بالنظام الاستعماري الذي ليس لا حماية ولا نظاما اندماجيا وذكر أنه ينتمي إلى جنس لم يكن ماضيه إلاّ مجيدا وإلى شعب لا شك في ارتباطه بدينه وبتقاليده ولكنه استطاع خاصّة أن يحافظ على شخصيته. ثم وصل خالد إلى الإلحاح على ضرورة اقتراح سياسة مشاركة بين الشعبين والبلدين وهي فكرة لم تستأنف من طرف المنتخبين إلا بعد سنة 1939.

"أن نكون كلنا رجالا قادرين على التفكير وعلى العمل وعلى القتال، فهذا أمر لا ريب فيه. فبعد الفتح تأتي المشاركة ولأستعجل هذا التطور الطبيعي حسب ما أتيح لي من إمكانيات ولأعلّمكم كيف تعرفون هؤلاء العرب الذين قيل لكم عنهم إنهم

ليسوا إلاّ متوحشين ورجال بارود وسرقة، لهذا أتيت إليكم. إن دمي لا يجبرني على السكوت وصفتي كرعية مخلصة قد سمحت لي، بعد المرور على "سان سير، أن أقوم بالخدمة في صفوف الجيش الفرنسي وفي الصف الأول وهو الأمر الذي يجب أن يسمح أيضا ألاّ أتخذ موقفا مهينا جدّا للحديث أمامكم عن الأفكار التي تهم كثيرًا مستقبل الجزائر ومستقبل فرنسا..."

"ولكن، اسمحوا لي أن أجعلكم تلاحظون أنكم إن حملتم لنا محاريث وأدوات محسنة، فإن عمّالنا في أغلب الأوقات وفلاحينا هم الذين كانوا يشدون المقود.

لم تكن يدنا العاملة الأهلية أقل مساهمة في المعجزة من الروح التجارية التي حملها الاستعمار.

كثيرا ما أسمع القول: "إن المعمرين يوزعون كل سنة كذا مليون في الأجور حولهم ويعطون هكذا وسائل العيش للأهالي". ولكننا نظن على الفور أن رقم الأجور لا يمكن أن يوزع هكذا وحده.

خذوا في الاعتبار وضعية فلاح كروم أوربي يتحصل على مليون من الأرباح السنوية من كرومه التي تمت غراستها وفلاحتها بـ 1,50 فرنك أو فرنكين لليوم. فالأجر الذي لا يعطيه ليس إلاّ: "أقرضك واحدا وأسترجع واحد بفوائد ضخمة. وحينئذ لنتكلم عن الإزدهار وليس على الاعتراف لأنه قد يكون علينا أن نتسائل عمن سيطلب الدين؟

إن التمثيل الوطني - حيث لا نقبل كرعايا فرنسيين- سيكون عليه أن يتساءل هل يحسن أو هل هو مرغوب أن يخضع الأهالي في الجزائر إلى كل الضرائب الأوربية ثم إلى إضافة ضرائب أخرى ثقيلة وخاصّة. إذا كان مقبولا أن أرض أغنى أوربي معفاة من أية ضريبة، بينما نجد الحقل والمحراث والقطيع وشخص الأهلي المسكين كلها مواد قابلة للضريبة. ثم نتفحص وضعيتنا أمام المحاكم وأمام الإدارة لتنحية التعسف دون المساس بالنظام الجيد.

بقي قانون الأهــالي

لم يتم أبدا الإعلان عنه رسميا إلاّ على أساس التجربة والانتقالية ولمدة زمنية محددة. عن قريب سيأتي للمراجعة لدَى المجلس التشريعي. ونحن يراودنا الأمل أن مشرّعيكم وقتئذ قد يأخذون في الاعتبار الأدلة المتواصلة عن إخلاص الأهالي والسلم السائد والعميق في كل المناطق والحاجة إلى العدالة في كل يوم وبصفة متأكدة، وفي نفس الوقت إن ضروريات الليبرالية التجارية تحملنا إلى الحق العام دون تعسف وإلى القانون العادي الذي من شأنه أن يقبل المراقبة والاستئناف متخلصا من كل الانتقادات المعبّر عنها ضد وضعية للأشياء لا يمكن أن تبررها إلاّ متطلبات الفتح.

قضت الظروف بأنكم توصلتم إلى الحصول على إمبراطورية إفريقية مسلمة بصفة أساسية عندما وعدتم باحترام ديننا

وسلوكاتنا. وهكذا فإننا ارتبطنا بكم بناء على إرادتكم أكثر مما هي على إرادة أبائنا.

اعتبروا أنه يجب علينا الآن أن نواصل طريقنا معا"

وحينئذ فإن هموم مصلحتكم وإدارتكم وكذلك رغبتكم في تسهيل العدالة والنظام واللطف الذي تتضمنه الشراكة المخلصة لأنشطتنا الفرنسية العربية.

لا شيء يتعارض مع هذه الشراكة في المصالح مادامت تعترف بقيمة الفرديات المتعاملة ولا تضحي بأي شخص".

نصوص ذكرها محفوظ قداش، في "الأمير خالد"

الفصل الثاني عشر

الجزائريون والحرب 1914- 1918

لقد كان للحرب أثر عميق في الجزائريين وأثر سطحي في البلاد. قد استطاعت السلطات الاستعمارية أن تأخذ 30.000 جزائري كجنود وعمال. وقد أدت مقاومة الجزائريين للتجنيد إلى ثورات بني شقران في المنطقة الوهرانية وثورات الجنوب القسنطيني قد تم دحرها. ولم تؤد الدعاية التركية الألمانية ضدّ فرنسا إلى الانتفاضة المرجوة. وأخيرا شارك الجزائريون في حرب لا تهمهم. لقد انفتح الجزائريون في فرنسا على آفاق جديدة وشعروا بانتمائهم إلى الجزائر الجزائرية ووجدوا أنفسهم مستعدين للنشط بصفة كاملة في الحركة الوطنية. لقد أبرزت الحرب جزائر جديدة وصار المنتخبون يتكلمون عن التضحيات التي قدمها الجنود والعمال الجزائريون في فرنسا ليطالبوا بإصلاحات تعويضية ؛ وأكثرهم جرأة في هذا المجال هو الأمير خالد الذي طالب بمكان للجزائر في عصبة الأمم.

مجهود الجزائريين في الحرب

لقد شارك الجزائريون في الحرب العالمية الأولى بصفتهم جنودا أو عمّالاً. إلى غاية 1912، كان التجنيد يقع عن طريق التطوع التلقائي. في 1870 استعمل الجزائريون في الصفوف الأولى أي كلجم للمدافع. وبالفعل فمن بين 8000 متطوع، قتل

5000. ففكر رجال سياسيون فرنسيون في تنظيم التجنيد ولكنهم واجهوا معارضة المعمرين الذين رفضوا التخلي عن يد عاملة رخيصة. وأسس مرسوم 3 فبراير تجنيدا تكميليا (إضافة إلى التطوع) بواسطة استدعاء لمدة 3 سنوات مع امكانية التعويض الفردي وتقديم منحة 250 فرنك. قبل الشباب الجزائري هذا التجنيد ولكنه طالب بالمساواة في زمن الخدمة أي سنتان مثل الفرنسيين والاستدعاء على 21 سنة عوض 18سنة وحذف المنحة ولكن مع التعويضات السياسية : المواطنة مع القانون الخاص بالمسلم لقدماء المحاربين، وزيادة المنتخبين في المجالس الجزائرية والمساواة الضريبية واستعمال عادل للميزانية. ولكن على عكس الأقلية المتمثلة في الشبان الجزائريين، لقد بقي السواد الأعظم من الجزائريين مناهضا للتجنيد. كان الشبان يرفضون المثول أمام مجالس التجنيد ، فمثلا في عين التوتة استجاب 25 فقط من أصل 402 مستدعى. وفي العديد من المدن وخاصّة في ناحية وهران في تلمسان والرمشي وندرومة وقعت مظاهرات، والمزابيون القاطنون في الشمال ذهبوا إلى الجنوب لتفادي التجنيد وقامت الإدارة بقمع المتظاهرين. وتم تجنيد 173.019 جزائري أثناء الحرب أي 3,7٪ من عدد السكان ومن بينهم 120 إلى 125.000 حاربوا على مختلف الجبهات ومات 25000 منهم وجرح أكثر من 5000. ومن جهة الفرنسيين الأوربيين فقد تم تجنيد 73000 رجل وقتل منهم 13000.

كان في فرنسا في بداية الحرب 13300 عاملا جزائريا. إلا أن إنشاء مصانع الحرب ونقص اليد العاملة والحاجة إلى العمال لحفر خنادق الخط الثاني، كل هذا يسمح بالتفكير في استعمال اليد العاملة من المستعمرات. وبدأت اليد العاملة تأتي إلى فرنسا عن طريق التوظيف من طرف الإدارة ومن طرف الخواص، فبلغ عددهم في مدة الحرب 109.000. وواجه توظيف العمال تحفظات في العديد من المناطق ولكن خاصّة معارضة المعمرين الذين يرغبون في الاحتفاظ باليد العاملة الرخيصة. وهكذا فقد استطاعت السلطات الاستعمارية استقدام ما يقرب من 300.000 جزائري.

فهل يعتبر هذا إخلاص أو روح مقاومة، ينبغي أن يطرح السؤال فقد كان هناك العديد من الجنود الجزائريين الذين حاربوا في الجيش الفرنسي.ولكن كان هناك أيضا مقاومات وهروب. لم يكن الجزائريون في الجيش يعاملون مثل الفرنسيين. لقد كانوا تحت الحراسة الكاملة إذ كانت رسائلهم مراقبة، وكان الحذر من الضباط الأهالي" قائما وقد لعب التمييز دورا في منح الإجازات الشيء الذي أدى إلى الغضب والمظاهرات والهروب. كان العمال أيضا مؤطرين بصفة لصيقة وكانوا محروسين ومستخدمين خاصّة في المسابك ومصانع الخراطيش وفي مخازن المدفعية وفي الصناعة البحرية ومصانع المواد الكيماوية... لقد فتحت الاتصالات مع السكان المدنيين لمهاجرينا رغم ظاهرة العزلة المتفاقمة، آفاقا جديدة : التأهيل المهني وروح المطالبة المؤكدة.

الحرب في الجزائر

ظهرت الحرب في الجزائر بواسطة الدعاية التركية الألمانية عن الأحداث العسكرية البسيطة والصعوبات الاقتصادية. وفي سنة 1914، بالغت الصحافة الفرنسية في عدد الجواسيس الألمان أو الأتراك الذين كانوا يعملون بالجزائر. للقد كان هناك معسكرات للسجناء الألمان واتخذ الفرنسيون إجراءات للحد من اتصالاتهم مع الجزائريين. وفي الواقع اعتمد الألمان على نشاط نفساني : الظهور إلى جانب الأتراك على أنهم المدافعون عن الإسلام. لقد أرسلت مناشير وكتيبات تم تحريرها بمصالحهم الاستخباراتية وباللجان المدعومة من طرفهم إلى الجزائر. يمكننا أن نذكر الكتيب "الإسلام في الجيش الفرنسي" الذي حرره كابويا وهو معلم قديم وضابط هارب ويعرض فيه مآخذ الجنود الجزائريين ضد الفرنسيين ويطالب فيه تحرير المسلمين في العالم وبالتالي استقلال الجزائر. لقد كان هناك العديد من اللجان : لجنة استقلال الجزائر تونس المؤسسة في بداية 1916 في برلين، ولجنة الدفاع الإسلامي المحدثة في اسطنبول. كانت الدعاية التركية الألمانية تلتجئ إلى التضامن الإسلامي وتعتبر الحرب فرصة لتحرير البلدان الإسلامية المحتلة وتقدم ألمانيا على أنها حليف للمسلمين. ولم تهدد هذه الدعاية بصفة جدية الفرنسيين في الجزائر لأنهم استطاعوا جعل العديد من الجزائريين يحاربون ويعملون في فرنسا.

لقد نسف الألمان سفنا فرنسية وابتداء من سبتمبر 1915 صارت الغواصات الألمانية تتردد على الشواطئ الجزائرية : تم نسف 34 سفينة وإغراق 23 في الأشهر الثلاثة التي تلت إعلان الحرب. في شهر أغسطس 1916 تم إغراق 18 سفينة بخارية. وحاول الفرنسيون في جريدتهم الدعائية "أخبار الحرب" أن يقنعوا بمناعتهم البحرية. لقد أبهرت حرب الغواصات الجزائريين وأثقلت وتيرة التطوعات. وأعطت استعراضات "الغوبن" و"البرسلو" الفرصة للعديد من التعاليق.

لقد عرفت الجزائر مع الحرب أزمة اقتصادية حقيقية، وقبل كل شيء أزمة في النقل : حجز السفن لنقل الجنود وإغراق سفن وصعوبات في نقل السلع، وبصفة إجمالية كانت الجزائر فيما بين 1914 إلى 1918 ناقصة الخدمات. وبالتالي فإن التجارة الخارجية قد عرفت صعوبات كثيرة. كانت الاستيرادات غير كافية وبالتالي نقص السكر والفحم والبترول. وكذلك كانت الأمور بالنسبة للتصديرات ولكن بأقل حدّة. وتضررت الفلاحة من الجفاف. صارت الجزائر تنتج أكثر فأكثر وليس من أجل تغذيتها وإنما من أجل التصدير. لقد تراجعت الصناعات الاستخراجية (المنجمية) وتطوّرت الصناعات التحويلية وخاصّة الغذائية. لقد أثر ارتفاع الأسعار خاصّة في الجزائريين فأسعار المواد المستهلكة من طرف الجزائريين قد ضربت في 2,5. وفي المجموع استطاع المعمر الكبير والتاجر الكبير مقاومة هذه الأزمة التي تسلطت على المعمر الصغير والتجار الصغار وخاصة الفلاحين. مازالت الجزائر بلدا فلاحيا فقيرا قد تدعمت تبعيته للرأسمالية الفرنسية.

المقاومات الجزائرية من رفض التجنيد إلى الثورات

لقد واجهت فرنسا مقاومات مسلحة في الصحراء وفي ناحية وهران وفي الجنوب القسنطيني. إذا كان التجنيد قد قبل من طرف الإقطاعيين الذين كانوا في الغالب أعوانًا للإدارة ومن طرف الشبان الجزائريين - مجموعة قليلة - الذين رأوا في ذلك إمكانية للحصول على الحقوق، فإن الأمر يختلف بالنسبة للسواد الأعظم من الجمهور وخاصة جمهور الأرياف. لقد تم التعبير عن رفض التجنيد منذ الأشهر الأولى من الحرب.

لقد كانت سنة 1914 فتاكة بالنسبة للجزائريين. فتحدث الرأي العام الإسلامي عن العمال الذين يشكلون لحم المدافع وإمكانية ذهاب الفرنسيين من الجزائر ومجيئ "الحاج غيوم" (يعني الألمان). وتدخلت عائلات ضد الإحصاءات. وهكذا وفي أغسطس 1914 أوقفت الجماهير قرب بريكة موكبا من 27 شابا وهربوهم. والتجأ متمردون إلى الغابات في جبال الونشريس والضهرة وبلاد القبائل والإدوغ وفي جزء كبير من الجنوب القسنطيني. وامتدت الحركة من تبسة إلى معسكر.

كانت الانتفاضة في 1914 تقريبا عامة. لقد كانت المقاومة كبيرة عند بني شقران وفي الأوراس. وفي سبتمبر 1914، صاحبت حشود معادية 40 شابا من دوار سيدي دحو تم استدعاؤهم في مقر البلدية المختلطة. وقعت اشتباكات مع الحشود وتم العديد من التوقيفات. وفي أكتوبر لم يتقدم أي مجند في بيرغو. فالحشد قاوم وظهر رجال مسلحون على القمم وأطلقوا النار

على الفرنسيين. فقام ألف من الزواف بدوريات في المنطقة ولكنهم وجدوا الدواوير فارغة، فأحرق الجيش الدواوير وكان القمع داميا وتمت الإشارة إلى وقوع معارك في الغابات وجابت المفارز الأراضي بين تيارت وفرندة والونشريس والجنوب القسنطيني وناحية سوق أهراس. فلاحظت الإدارة أن كلفة الخدمة العسكرية ليست مقبولة وإنما هي مفروضة" (حسب تصريح الحاكم لوتو). ولهذا أجلت التجنيد المسبق لـ 1915 ونظمت العديد من حملات الدعاية. ولكن الثورات استؤنفت في 1915 في بلاد القبائل الكبرى وفي الإيدوغ قرب سوق أهراس. فأرسلت مفارز هناك وتحدث تقرير رسمي عن توقيف "248 مجرمًا وسارقا وعاصيا من طرف مفرزة في الضهرة". وفي دائرة باتنة أخذت الثورات شكلا واسعًا. لقد بدأت الثورة في 1914 في ناحية بريكة. وفي 1916 اتخذت مقاومة التجنيد هيئة حركة عامّة في الاحتجاج: كان أرباب العائلات يعارضون تجنيد أبنائهم. فتكونت مجموعات مسلحة وعمت المقاومة بَلَزْمَة والأوراس فهاجم 1000 إلى 1500 جزائري من دوار عوف في نوفمبر 1916 عين التوتة وكمائن في بريكة ومواصلات مقطوعة بين نقاوس وبريكة... كانت المجموعات الجزائرية تتحكم في المرتفعات: جبل بوسدان وجبل مستوى وجبل بلزمة. وتم الهجوم على العديد من القرى. فتحتم على الفرنسيين طلب المدد فسحبوا من الجبهة لواء واستقدموا الطائرات من تونس. فكان لهم في يناير 1917 تقريبا 14000 رجلا، فكثفوا المفارز والتمشيطات. وكان القمع وحشيا: قرى

محروقة، والتحريق والتعذيب والغزوات وتوقيف ما يقارب من 3000 شخصا و805 أحكاما بالإعدام... فرغم عنف القمع بقي الشاوية معادين للتجنيد. وفي 1917 رفض أكثر من نصف المدعوين الذهاب إلى دائرة باتنة أي 2289 من أصل 3655 مدعوين.

سيبقى الجنوب القسنطيني منطقة من المناوئين فدوار أولاد عوف الذي كان المركز الرئيسي للمقاومة في البلدية المختلطة لعين التوتة، انتفض في 1926، والمتمردون مثل مسعود بن زلمات ومحمد أمزيان المسمى بومزران كانا مشهورين في الأوراس. فقدْ حمل السلاح في 1954 متمردون في الجبال من 1916. فثورات 1914 و1916 تعتبر أعمال مقاومة لأنها بنت الطاقة القتالية للجماهير الريفية التي لم ينقصها إلا التنظيم والتنسيق على المستوى الوطني.

نصـــــوص

خدمة الجزائريين العسكرية كما رآها الفرنسيون

"لنقل ذلك صراحة فإذا ظهر أن الأهلي، كما ندعي ذلك، يقبل الخدمة العسكرية فذلك فقط لأنه مدفوع من بعض المناوئين الذين ينظرون إلى البعد. وفي الحقيقة لا هو ولا نحن نرغب في ذلك.

هو؟ لأن هذه الخدمة تنتزعه من عاداته ومصالحه ونسائه اللائي يحرسهن بكثير من الغيرة. وبعبارة أخرى لأنه يشكل حملا جديدا يؤثر فيه سلبا. نحن؟ لأننا نرى في ذلك أخطارا...

وحينئذ ومادمنا، هذه الجهة والأخرى، نرغب في التخلي عن هذه الضريبة، أليس من الطبيعي أن الذي تقع عليه الكلفة يدفع مقابلها؟ ونحن شخصيا ألم ننشر الخدمات؟"

رأي لجنة "جمعية الدراسات السياسية والاجتماعية" بمدينة الجزائر.

"وفيما يتعلق على وجه الخصوص الخدمة العسكرية الإجبارية، فمن المؤكد أن الأهالي لا يمكنهم استقباله بحماس، في كل مكان سيواجهوننا جماعيا بقوة الجمود التي يحسنون استثمارها بامتياز، إلاّ إذا طرأ حادث غير متوقّع لصالح المقاومة المفتوحة ليغير فجأة هذه الانتفاضة المعنوية إلى انتفاضة حقيقية".

رأي برونيل، شيخ بلدية مدينة الجزائر مستقبلا.

التماس يتعلق بالتجنيد

أمام هذه الوضعية، فإن الأعيان الموقعين أسفله وهم لسان حال عدد كبير من المواطنين رأوا أنه من المفيد أن يتوجهوا إلى حكومة الوطن الأم لينوروها بأن يقدموا رغبات المسلمين الذين يعتبرون بأن هذه الكلفة الجديدة التي أضيفت إلى الكلفات الأخرى التي مازالت ثقيلة، ينبغي أن يكون لها مقابل لتحسين مصيرهم.

يستلهم هؤلاء الممثلون من العديد من اللوائح المعبر عنها في العمالات الثلاثة للجزائر ليقنعوا أن كل أولاد فرنسا يجب عليهم أن يلبوا نداءها ويصرحون أن أهالي الجزائر مستعدون أن يؤدوا للوطن الأم كل واجبات الرجل الوطني. ولكنهم، من جهة، يرون انه من الضروري :

أ- تقليص الخدمة العسكرية إلى سنتين مثل الفرنسيين.

ب- الاستدعاء على 21 سنة عوض 18 سنة، لأن المدعوين في هذا السن ليسوا مكونين جيدا من الناحية الجسدية.

جـ- إلغاء المنحة لأن العائلات تكون فخورة برؤية أبنائها يخدمون في صفوف الجيش الفرنسي بدون تعويض مالي.

ومن جهة أخرى فإنهم يطلبون أن تمنح لهم التعويضات الحقيقية التالية :

1- إصلاح النظام القمعي.

2- تمثيل جدّي وكافٍ في المجالس بالجزائر وبالوطن الأم.

3- التوزيع العادل للضرائب.

4- تخصيص موارد الميزانية بكيفية عادلة بين مختلف عناصر السكان في الجزائر.

بناء على النتائج التي حملها الموقعون إلى العاصمة، فإن السكان المسلمين يطلبون :

1- توسيع الهيئة الناخبة لضمان نجاعة الانتخاب وإخلاصه.

2- أن يرفع عدد الممثلين الأهالي في المجالس الجزائرية إلى خمسي عددها.

3- أن تتشكل الهيئة الانتخابية بنفس الكيفية للمنتخبين في كل المجالس الجزائرية ؛ وفي الحالة التي يكون الانتخاب للدرجة الثانية ضروريا لتعيين المستشارين العامين والممثلين الماليين، يكون حق الانتخاب ينحصر في المستشارين البلديين باستثناء مساعديهم الأهالي.

4- أن يكون للمستشارين البلديين الأهالي الحق في المشاركة في انتخاب شيوخ البلدية ومساعديهم.

5- أن يتم التصريح بأن العهدات العمومية غير متلائمة مع وظائف قايد ومساعدين أهالي.

رأي برونيل، شيخ بلدية مدينة الجزائر مستقبلا.

التماس يتعلق بالتجنيد

أمام هذه الوضعية، فإن الأعيان الموقعين أسفله وهم لسان حال عدد كبير من المواطنين رأوا أنه من المفيد أن يتوجهوا إلى حكومة الوطن الأم لينوروها بأن يقدموا رغبات المسلمين الذين يعتبرون بأن هذه الكلفة الجديدة التي أضيفت إلى الكلفات الأخرى التي مازالت ثقيلة، ينبغي أن يكون لها مقابل لتحسين مصيرهم.

يستلهم هؤلاء الممثلون من العديد من اللوائح المعبر عنها في العمالات الثلاثة للجزائر ليقنعوا أن كل أولاد فرنسا يجب عليهم أن يلبوا نداءها ويصرحون أن أهالي الجزائر مستعدون أن يؤدوا للوطن الأم كل واجبات الرجل الوطني. ولكنهم، من جهة، يرون انه من الضروري :

أ- تقليص الخدمة العسكرية إلى سنتين مثل الفرنسيين.

ب- الاستدعاء على 21 سنة عوض 18 سنة، لأن المدعوين في هذا السن ليسوا مكونين جيدا من الناحية الجسدية.

جـ- إلغاء المنحة لأن العائلات تكون فخورة برؤية أبنائها يخدمون في صفوف الجيش الفرنسي بدون تعويض مالي.

ومن جهة أخرى فإنهم يطلبون أن تمنح لهم التعويضات الحقيقية التالية :

1- إصلاح النظام القمعي.

2- تمثيل جدّي وكافٍ في المجالس بالجزائر وبالوطن الأم.

3- التوزيع العادل للضرائب.

4- تخصيص موارد الميزانية بكيفية عادلة بين مختلف عناصر السكان في الجزائر.

بناء على النتائج التي حملها الموقعون إلى العاصمة، فإن السكان المسلمين يطلبون :

1- توسيع الهيئة الناخبة لضمان نجاعة الانتخاب وإخلاصه.

2- أن يرفع عدد الممثلين الأهالي في المجالس الجزائرية إلى خُمُسَيْ عددها.

3- أن تتشكل الهيئة الانتخابية بنفس الكيفية للمنتخبين في كل المجالس الجزائرية ؛ وفي الحالة التي يكون الانتخاب للدرجة الثانية ضروريا لتعيين المستشارين العامين والممثلين الماليين، يكون حق الانتخاب ينحصر في المستشارين البلديين باستثناء مساعديهم الأهالي.

4- أن يكون للمستشارين البلديين الأهالي الحق في المشاركة في انتخاب شيوخ البلدية ومساعديهم.

5- أن يتم التصريح بأن العهدات العمومية غير متلائمة مع وظائف قايد ومساعدين أهالي.

6- أن يكون للأهالي تمثيل في البرلمان الفرنسي أو أن يحدث في باريس مجلس يكون فيه التمثيل للمسلمين الجزائريين من طرف وكلاء ينتخبونهم.

7- أن يكون للذين قاموا بالخدمة العسكرية سواء بطريق الاستدعاء أو عن طريق التطوع الحق في اختيار صفة المواطن الفرنسي دون أن يخضع للإجراءات الحالية وبواسطة تصريح بسيط فقط.

الموقعون :

- الدكتور بن تامي، مستشار بلدي لمدينة الجزائر.
- المختار حاج سعيد، محامي قسنطينة.
- بن شريف علاوة، مستشار بلدي، قسنطينة.
- الحاج عمار، مستشار بلدي، جيجل
- جودي، مستشار بلدي، بسكرة
- بن عثمان، مستشار بلدي، بيوجو.
- بن ددوش، مستشار بلدي، تلمسان.
- قارة علي، أحد أعيان عنابة.

دعايات ومطالب جزائرية في الخارج أثناء الحرب

- من إسطنبول كتيبات ومناشير بالعربية ضد الهَيْمَنة الفرنسية، موقعة باسم اللجنة "وحدة ورقي"، تم إرسالها إلى شخصيات جزائرية.

- وثائق مرسلة من ألمانيا من طرف باشحمبا علي : عرض عن الأفعال المشينة لفرنسا ضد الإسلام، مرارة الاحتلال، إعلان الحرب المقدسة، شكاية الأعيان الجزائريين، كلام من القرآن عن الخونة.

- مؤلفات نشرها في اسطنبول الملازم الهارب بوكابويا رابح تحت اسم الحاج عبد الله : الحرب المقدسة ودور الجيش الأسود في الجزائر، الإسلام في الجيش الفرنسي (حرب 1914-1915) ؛ مسلمو إفريقيا الشمالية والجهاد.

- نشرية "الواجب" حررها هارب آخر محمد الجزائري، كان يرسل من إشبيليا إلى الجزائر.

- لجنة فرعية للاتحاد والرقي القاطن بسويسرا ومكلف بتنظيم الثورة في البلدان الإسلامية. كتبت نشرته في نوفمبر 1915 : "الجزائر للمسلمين الجزائريين، وتونس للمسلمين التونسيين".

- الجمعية الدولية الإسلامية المحررة من طرف عباس الحلمي نشرت في 1916 مجلة شهرية : نشرية الجمعية من اجل رقي الإسلام، وفيما بعد مجلة شهرية بالفرنسية مجلة المغرب (العربي).

- في 7 يناير 1916، في برلين إحداث لجنة من اجل استقلال الجزائر وتونس.

- وفي 1916 نشر الشيخ صالح الشريف قاض سابق في تونس والشيخ اسماعيل الصفايحي كتابين : "ملاحظات عن فرنسا في تونس والجزائر" و"عرض عن الوحشية الفرنسية في تونس وفي الجزائر وما نتج عن ذلك من آلام". نُشِرَ الكتاب الثاني مرتين بالعربية وترجمة إلى الألمانية وواحدة إلى الفرنسية في 1917 تحت عنوان مطالب الشعوب المضطهدة : تونس والجزائر.

- الأمير علي باشا، ابن الأمير عبد القادر ونائب رئيس الغرفة العثمانية نشر : نداء إلى المسلمين الذين يخدمون في جيوش الحلفاء لنجدة الخليفة وتخليص الإسلام والمدن المقدسة وتحرير الجزائر وتونس والمغرب.

- الندوة الثالثة للجنسيات المضطهدة، والمعطوبة المنعقدة في لوزان بتاريخ 27 جوان 1916 حيث عرض ممثلون تونسيون رغبة سكان الجزائر : "نحن جزائريون مسلمون وسنبقى جزائريين مسلمين".

- ميثاق الشعب الجزائري المنشور في سبتمبر 1917 من طرف مجلة المغرب (العربي).

- مذكرة موقعة من قبل 4 تونسيين وثلاثة جزائريين يطالبون فيها عشية افتتاح مؤتمر فارساي، الاستقلال الكامل للشعب الجزائري-التونسي.

حسب آجرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا.

مقتطفات من لائحة وجهها الأمير خالد إلى الرئيس ويلسون (1919)

"في حرب غير متكافئة ولكنها كانت مع ذلك تضاعف شرف آبائنا، حارب الجزائريون مدة 17 سنة بطاقة وإصرار لا مثيل لهما لردّ المعتدي وللعيش في الاستقلال. إلا أن مصير السلاح لم يكن لصالح أجدادي.

منذ 89 سنة ونحن تحت الهيمنة الفرنسية، فإن الفقر لا يتوقف عن الارتفاع عندنا، بينما لا يعرف ثراء المنتصرين حدّا للزيادة على حسابنا...

وبالفعل ومثل ما فعله الرومان في عهدهم، فإن الفرنسيين بدأوا يطردون بالتدريج المنهزمين ويستولون على السهول الخصبة والمناطق الأكثر ثراء.

مازال الأهلي طيلة 89 سنة يرزح تحت وطأة الضرائب : ضرائب فرنسية وضرائب عربية سابقة للاحتلال والتي تم إقرارها من طرف الفاتحين الجدد...

في نظام يعتبر نفسه جمهوريا، مازالت أغلبية السكان تسيرها قوانين خاصة يستحي منها المتوحشون أنفسهم. والشيء الذي يعتبر خاصا هو أن بعض هذه القوانين التي تؤسس لهذه المحاكم الاستثنائية (محاكم قمعية ومجالس جنائية) يعود تاريخها إلى 29 مارس 1902 و30 ديسمبر 1902.

إن مئات الآلاف من أبنائنا سقطوا في مختلف ميادين المعركة رغما عنهم وهم يحاربون شعوبا لم تُهَدِّدْ لا حياتهم ولا أملاكهم، وبما أننا مغلوبون فإننا تحملنا كل هذه المصائب على أمل أن تأتينا أيام أحسن من هذه.

إن التصريح الرسمي التالي : "لا يمكن أن يفرض على أيّ شعب أن يعيش تحت السيادة التي يرفضها (يطلبها)" علما بأنكم قد أعلنتم عنه في مايو 1917 في رسالتكم إلى روسيا، فإن هذا يسمح لنا أن نأمل أن تلك الأيام الحسنة قد جاءت في نهاية الأمر.

ولكن تحت الوصاية القاسية للإدارة الجزائرية وصل الأهالي إلى درجة من الاستعباد أنهم صاروا غير قادرين على اللوم؛ فالخوف من قمع وحشي لا يرحم أغلق كل الأفواه.

رغم كل هذا فإننا باسم مواطنينا وجهنا لكم هذا النّداء لنستعطف المشاعر النبيلة لرئيس أمريكا الحرة : نطلب إرسال ممثلين نختارهم نحن بكل حرّية ليقرروا مصيرنا في المستقبل تحت إشراف عصبة الأمم. إن شروطكم الأربعة عشر (14) من أجل سلم عالمي، سيدي الرئيس، قد قبلها الحلفاء والقوات (العظمى) المركزية، ينبغي أن تكون أساسا لانعتاق كل الشعوب الصغيرة المضطهدة دون تمييز لا في الجنس ولا في الدين.

م.قداش، الأمير خالد، ص 121- 124.

الفصل الثالث عشر

نحو الأوج الاستعماري ؛

المنتخبون الجزائريون: 1919-1930

بالإضافة إلى اليهود الذين صاروا مواطنين فرنسيين بفضل مرسوم كريميو، بدأت تشعر بخصائصها وامتيازاتها.

وتبرز هذه الفترة بادئ ذي بدء على المستوى الاقتصادي انتصار الاستعمار. ويشرح هذه التطورات الاقتصادية تجهيز عصري و نمو حركة المرور وتوسع السكك الحديدية وعصرنة الموانئ وبناء السدود- تزايد الإنتاج الفلاحي ؛ تطور الحبوب وزراعة الكروم (الجزائر تشغل المرتبة الرابعة في العلم بعد فرنسا وإطاليا وإسبانيا)، والحمضيات. أما الإنتاج المنجمي والفوسفاط والحديد فإنه تضاعف بالنسبة لإنتاج 1914. إن بقاء روح "المعاهدة الاستعمارية" لا يسمح بنشأة صناعات حقيقية. لم تنجز إلاّ معامل للمنتوجات الغذائية وورشات للميكانيك الصغيرة. إن التبادلات التجارية كانت تتم أساسا مع فرنسا وخاصة لصالح الأوربيين. هذا ويثبت المواطنون الفرنسيون تفوقهم على المستوى السياسي بوجه خاص. كان التمثيل في البرلمان للأوربيين المواطنين الفرنسيين وحدهم. وكانت لهم الأغلبية في كل المجالس المحلية في الجزائر الشيء الذي كان يسمح لهم بالتصويت على الإجراءات التي تخدم قبل كل شيء مصالحهم. فالكثير منهم، إن لم نقل الأغلبية كانوا يعتبرون أنفسهم أعلى درجة من الجزائريين المسلمين. وبما أن الرأي العام الأوربي وفرنسا منقسم بين اليمين واليسار، كما لا يخلو من منافسات فردية، إلا أن كل التيارات باستثناء بعض الأوساط اليسارية، كانوا يشكلون وحدة مقدسة للدفاع عن مصالحهم الاقتصادية في الجزائر وخاصة لمعارضة مطالب المسلمين.

ففي 1927 و1928، "كانت الساعة الاستعمارية تضبط المشي في الجزائر ؛ وفيما بعد كانت الذكرى المئوية "لسقوط مدينة الجزائر" مناسبة للاحتفال بنجاح الاستعمار الفرنسي في الجزائر. لقد كانت الاحتفالات الضخمة : استعراض جيش أفريقيا الذي أعيد تكوينه، وسفر رئيس الجمهورية مع العديد من الاستقبالات وتدشين نصب تذكارية في بوفاريك وسيدي فرج وعرض بحري كبير مع 66 سفينة ومؤتمر لأغلب الشركات والمؤسسات الاستعمارية لإبراز الحصيلة الإيجابية للحضور الفرنسي. كان ذلك بالفعل أوج الاستعمار، ويظهر فيما بعد أنه "أوج كاذب". لم يعر أي اهتمام للإصلاحات التي طلبها المنتخبون المسلمون، وهاجت الصحافة الأوربية ضد كل المشاريع، وخاصة نذكر التمثيل البرلماني للجزائريين. قام بعض المجموعات من اليسار باقتراحات إصلاحات محتشمة، مع الإلحاح على الصفة الفرنسية للجزائر.

صعوبات ما بعد الحرب

عرفت فترة ما بعد الحرب صعوبات اقتصادية كبيرة. لقد تضررت الجزائر من الحرب : تقلص الحركة مع فرنسا مما أدى إلى بعض الاختناق، وارتفاع الأسعار وضعف الأجور. لقد أثرت الأزمة خاصّة على العالم الريفي ؛ بالفعل لقد كان الحصاد عدة مرات كارثيا وعلى وجه الخصوص في 1920 و1922 و1924. كما أن الجوع ظهر والفقر العميق فالناس يتغذون بالحشيش ومن جُثَثِ الحيوانات. فقطعان الماشية التي كانت تفوق 9 ملايين

رأس في 1914 نزلت إلى 5 ملايين ونصف سنة 1922. والإعانات للمساكين غير كافية، لقد اندلعت اضطرابات في الشلف وتيزي وزو وسطيف... لقد ساد اللاأمن في الأرياف. صار قطاع الطرق الشرفاء، والخارجون عن القانون في نظر الرأي العام يتحدون الشرطة ويستفيدون من مساعدة السكان وحتى القياد. يمكننا أن نذكر منهم أسماء مثل بنزلمات في الأوراس وكزولي عيسى بن عمر في بلاد القبائل... تحسنت الوضعية ابتداء من 1925 ولكن تهديدات الأزمة كانت تشغل الجماهير الجزائرية.

لقد أعطت السلطات الفرنسية خلال الحرب العديد من الوعود للجزائريين : توسيع الهيئة الانتخابية، تخفيف الضرائب، تمثيل أوسع.... بقيت الإصلاحات في الانتظار. فمرسوم 30 نوفمبر 1918 أسس المساواة الضريبية بإلغاء الضرائب العربية. وقانون 14 فبراير 1919 رفع عدد المنتخبين من 57000 بالنسبة للمجالس البلدية، صار العدد 425000 ومن 5090 بالنسبة للمجالس العامة صار 103149. ولم يعد الناخب خاضعا لقانون الأهالي. كما رفع القانون أيضا عدد المنتخبين المسلمين. ومع هذا، ليس هناك أيّ تمثيل للجزائريين المسلمين في باريس. إن هذه الإصلاحات لم تعجب الفرنسيين الأوربيين في الجزائر كما أنها لم ترض مع ذلك الجزائريين المسلمين.

إن الأعيان والمنتخبين الجزائريين، صارت لهم الأولوية على الإطارات التقليدية وتشجعوا بنشاط الأمير خالد ولكن، بمجرد ما نفي فإنهم تراجعوا إلى مطالب معتدلة.

صارت الإطارات التقليدية نادرة التمثيل، فالعائلات الكبيرة التي التحقت بالمقاومة ضعفت والعائلات التي حاربت إلى جانب فرنسا أو صارت أعوانا لإدارتها، لم يعد لها اعتبار أدبي. إن بعض الشخصيات من هذه العائلات الكبيرة خاصّة الحضرية، يتجرؤون على تقديم الشكايات. فبن رَحّال من تلمسان كان مدافعا متحمسا للإسلام والحضارة العربية.

إن الأعيان المنتخبين المتشبعين بأفكار "الشبان الجزائريين" الذين تعرضنا لظهورهم في بداية القرن بقوا مخلصين لبرنامج المطالب الذي تم التعبير عنه قبل بداية الحرب. كانوا لا يناقشون مسألة السيادة الفرنسية ويمتنعون أن يكونوا وطنيين. ولكنهم كلهم يؤكدون استمساكهم بالإسلام وبالحضارة العربية وبالتاريخ الذي يواجه الذهنية الفرنسية بالنظرية الفلسفية القرآنية، حسب "صدى الجزائر"، ويطالب بتعليم اللغة العربية. وكان الأكثر تسيّبا منهم لا يترددون في تأكيد تضامنهم مع الجماهير الشعبية، الشيء الذي يبرز بوضوح في "الشاب الجزائري" لفرحات عباس : "يدخل الرجال في الأكواخ حفاة وهم مقملون وبؤساء. يربطني بهؤلاء الناس البسطاء الذين يحبونني وأحبهم علاقة لا انفصام فيها. فدمهم هو دمي". كانت مطالب المنتخبين معتدلة، وتلح على المساواة في الخدمة العسكرية وفتح المدارس وحريّة السفر وعدد أكبر من المنتخبين المسلمين في المجالس المحلية. والمطلب الأكثر ثورية كان مطلب تمثيل الأهالي في البرلمان الفرنسي. أما النقد المعبّر عليه من طرف الجزائريين القاطنين خارج الجزائر فإنه كان

أعنف. كما هو الحال بالنسبة للملازم الحاج عبد الله بوكابويا الذي نشر مؤلفا "الإسلام في الجيش الفرنسي". وأعطى الأمير خالد في الجزائر نفسها أكثر حيوية لحركة "الشاب الجزائري".

الأمير خالد

ظهر الأمير خالد، حفيد الأمير عبد القادر، غداة الحرب على أنه رئيس الحركة "الشاب الجزائري". ففي اللائحة التي وجهها في مايو 1919، إلى رئيس الولايات المتحدة ويلسون، فإنه ندد بالاحتلال الفرنسي وطلب أن يقرر ممثلون جزائريون مصير الجزائر تحت إشراف عصبة الأمم وظهر هكذا أنه وطني جزائري.

فالانتخابات البلدية في 1919 التي انتصر فيها مع أصدقائه (خالد في مدينة الجزائر وقايد حمود في المدية والدكتور موسى في قسنطينة والخولي أحمد في سطيف وعبورة في معسكر وبن رحال في وهران. تلمسان) أبرزت برامج قوية وحيوية جديدة. ففي جريدتهم "الإقدام" ندد خالد وأصدقاؤه بتجاوزات الإدارة والقياد وبتلفيق الانتخابات وفضائح الاستعمار. في المجالس المحلية قاموا بصفتهم منتخبين بالعديد من الاقتراحات التي تطالب بالقانون المشترك والتمثيل البرلماني للجزائريين المسلمين. فقد كان للأمير الفضل في 1924 في تدقيق برنامج "الشبان الجزائريين" والإلحاح على التمثيل البرلماني للجزائريين المسلمين: "أيمكن أن نتصوّر في بلد

صورة للأمير خالد



ديمقراطي أن أربعة أخماس (5/4) السكان الجزائريين يتركون بدون تمثيل، بينما تطبق عليهم القوانين الضريبية والعسكرية مثل ماتُطَبَّقُ على الأقلية المفضلة". ونادى خالد بالوحدة: "قبائل وميزابيين وعرب يجب أن يشكلوا حزبًا واحدا في كل الأماكن التي يتواجدون فيها معا".

ويبدو أنه حاول تشكيل حزب، الأخوة الجزائرية، للدفاع عن برنامجه. كما طرح الأمير خالد القضية الجزائرية في إطار الحركة الدولية للبلدان المستعمرة التي تكافح من أجل تحريرها. وندرك ذلك في التصريحات التي يذكر فيها بكفاح جدّه ضد الاحتلال الفرنسي وذلك في الوثيقة التي يطلب فيها حماية دولية على الجزائر والتي قدمها للرئيس ويلسون في 1919 بمناسبة ندوة السلم، وفي تهجمات الإدارة الفرنسية التي رأت فيه الممثل "للحزب العربي المناهض لفرنسا" والذي يشخص "الاستقلال الإسلامي في الجزائر". رأى الرأي العام الجزائري والعديد من الكتاب في خالد "الزعيم"، والقائد السياسي الوطني الجزائري الأول. ألم يتجرّأ على كتابة: "يتطلع فرنسيو الجزائر وليس من غير مرارة إلى اليوم الذي يتحتم عليهم فيه أن يَغْلِقُوا شنطهم للإلتحاق ببلد مسقط رأسهم". وقد جعل منه نجم شمال إفريقيا في سنة 1926 رئيسه الشرفي.

عندما نفي خالد، تبنى أصدقاؤه في مدينة الجزائر سكوتا حذرا حول المسألة الوطنية. وعلى عكس المودة التي عبرت عنها الجماهير الشعبية تجاه عبد الكريم في الريف، فإن بعض المنتخبين أكدوا دعمهم للجنود الفرنسيين. فالمنتخبون الذين

استهوتهم في وقت من الأوقات الهبة الوطنية للأمير، تخلوا عن النهج الذي سطره لهم.

وحينئذ هيمن المنتخبون على الحياة السياسية المسلمة، وصار فرحات عباس هو لسان حالها الرئيسي. إن ما كتبه بين 1926 و1930 والذي تم نشره في 1931 في "الشاب الجزائري"، تذَكّر بالمطالب الإسلامية وتشير إلى السبل والوسائل: الحصول على المواطنة الفرنسية بدون الالتجاء إلى التجنيس وإتباع المراحل الآتية: المدرسة، الطريق والمستشفى" يعني السبل التي تؤدي إلى التعلم بالعربية وبالفرنسية وإلى الرقي وإلى الصحة. إن مؤتمر المنتخبين المجتمع في سبتمبر 1927، تبنى برنامجا للمطالب رَجَع إلى ما عبّر عنه "الشبان الجزائريون" وألح على "تمثيل الأهالي في البرلمان".

أحدثت اتحادية المنتخبين في يناير 1928. وتختص أنشطة هذه الاتحادية في الوفود إلى فرنسا والمحاضرات في كل الجزائر ومقالات في الجرائد المسلمة.

إن ما ينبغي أن نؤكد عليه في سنوات الثلاثينيات هو هدوء هذه الفترة أمام التحركات المنتصرة للاستعمار. فالجماهير خاضعة وصامتة وممثلوه باستثناء الشيوعيين ونجم شمال إفريقيا حتّى عندما يقدمون مطالب فإنهم يبرزون رغبتهم في البقاء فرنسيين والحياة في إطار السيادة الفرنسية.

نصـــــوص

الإصلاحات الضعيفة لسنة 1919

-.القانون عن إعادة تركيب الجماعات (فاتح أغسطس 1918)، صار لهذه الجماعات إمكانية قبول أو رفض أي تغيير في الأملاك البلدية. يخصص المرسوم التطبيقي مداخيل هذه الأملاك فقط للأعمال ذات المنفعة العامة لصالح الدواوير.

- قانون 4 فبراير 1919 يرفع عدد الناخبين الأهالي، ليصير الشخص ناخبا يجب أن يكون عمره 25 سنة، وأن يكون مقيما مدة (2) سنتين في البلدية وأن تتوفر فيه إحدى الشروط التالية : جندي قديم، ملاك أو صاحب مزرعة أو تاجر مرخص له ومقيم أو موظف أو حاصل على شهادة التعليم الابتدائي أو عضو في الغرفة الفلاحية أو التجارية أو أن يكون له أوسمة فرنسية أو تحصل على جائزة في مسابقات أو معارض فلاحية. فالتيسجيلات المباشرة أحدثت هيئة انتخابية بلدية من 425.000 مسلمًا.

- ومر عدد المستشارين البلديين من 930 إلى 1540. وكان عددهم في كل مجلس بلدي لا يتجاوز الثلث من العدد الإجمالي ولا يمكن أن يتجاوز عدد 12.

- قانون 30 نوفمبر 1918 ويتضمن إلغاء الضرائب العربية.

- المرسوم المؤرخ في 6 فبراير 1919 يرفع عدد المستشارين العامين المسلمين من 18 إلى 29 (ربع العدد الإجمالي. ومرّت الهيئة الانتخابية من 5090 إلى 103.149.

- استثني الناخبون المسلمون الجزائريون من قانون الأهالي.

- ويسمح قانون 1919 للمسلمين بالارتقاء إلى الوظائف العمومية (باستثناء 42 وظيفة سلطوية يوضحها مرسوم 26 مارس 1919).

رسالة وجهها خالد في 1924 إلى السيد إيدوار هيريو، رئيس مجلس الوزراء، باريس

سيدي الرئيس

يرى المسلمون الجزائريون في ارتقائكم للسلطة بشير خير وعهدا جديدا لدخولهم في طريق الانعتاق وبصفتي أحد وأبسط المدافعين على قضية الأهالي الجزائريين، وأنا منفي لأنني أخذت الدفاع مباشرة عن مصالحهم الحيوية، يشرفني أن أضع بين يدي رئيس الحكومة الفرنسية الجديد برنامج مطالبنا :

1- التمثيل في البرلمان بنسبة متساوية مع الأوربيين الجزائريين.

2- الإلغاء الكامل والشامل لقوانين وإجراءات الاستثناء والمحاكم القمعية والغرف الجنائية والمراقبة الإدارية مع العودة البسيطة إلى قانون الحق العام.

3- نفس الواجبات ونفس الحقوق فيما يتعلق بالخدمة العسكرية.

4 – ارتقاء الأهالي الجزائريين إلى كل الرتب المدنية والعسكرية دون أي تمييز ماعدا الاستحقاق والكفاءات الشخصية.

5– التطبيق الكامل على الأهالي لقانون التعليم الإجباري مع حرية التعليم.

6 – حرية الصحافة والجمعيات.

7– أن يطبق على الدين الإسلامي قانون عزل الكنائس عن الدولة.

8 – العفو العام.

9 – أن تطبق على الأهالي القوانين الاجتماعية والعمالية.

10– الحرية المطلقة للعمال الأهالي من كل الأصناف في السفر إلى فرنسا.

علمًا بأننا لسنا في تناقض مع البرنامج الليبرالي لوزارتكم ولحزبكم، فإن أملنا ثابت بأن رغباتنا الشرعية المذكورة أعلاه قد تؤخذ في اعتباركم السامي.

التوقيع : الأمير خالد في المنفى.

سياسة المراحل حسب فرحات عباس

لابد أن نعمل حسب المراحل، والمرحلة الأولى والمستعجلة هي مرحلة المدرسة والطريق والمستشفى. لا شك أن البعض منا

قد بلغ مستوى السيارة والمرقص وزجاجة الشامباني. وهذه هي إحدى انحرافات الرجال التي لا ينبغي أن تنسينا الواقع.

مرحلة المدرسة

– المدرسة باللغة الفرنسية.

يوجد في الجزائر 800.000 طفل في سن التمدرس. وتعطي الإحصاءات الأخيرة للحكومة العامّة لِـ 6 ملايين أهلي 543 مدرسة مع 40.000 تلميذ مسجل وللأوربيين 1130 مدرسة لحوالي 110.000 تلميذ. لابد إذن أن تكون لنا مدارس بنسبة عادلة يعني على الأقل 6.000 مدرسة يكون جزء منها مخصصا لبنات المسلمات. لأن تعليم المرأة أمر أساسي. كان علينا أن نبدأ بها لأن تأثيرها على نظافة المنزل وتربية الأطفال أكبر ولأن دورها الاجتماعي أهمّ. وعليه لابد من المدارس لكل الناس ولكل طبقات المجتمع. كما كان ذلك في عهد انعتاق الإسلام.

– المدرسة باللغة العربية

لا ينبغي أن تنسى فرنسا بأنها تريد أن يكون لها أبناء يشرفونها، ولكن أبناء مسلمين. ولكن لغتنا وحدها هي التي تستطيع إعطاء تربية إسلامية. غير أنه وفي كل سنة، يتوجه المسلمون من "جنسية فرنسية" إلى مكة وسيقومون بذلك عبر العصور. ولهذا ينبغي أن يكون هؤلاء المسلمون مسلمين حقيقيين قادرين، نستطيع مقارنتهم مع باقي المسلمين وليس أشباه مسلمين "تشتم منهم رائحة الردة".

- المدرسة المهنية

تشكل المدرسة المهنية المكمل اللازم للتعلم. عندما لم يعد ممكنا للفلاح عندنا أن يعيش بتربية المواشي باستغلال المراعي الشاسعة لبلادنا، صار عاطلا وكسولا. لقد كان ذلك أكبر اختلال توازن اجتماعي سجلته البشرية. وبالتالي يجب علينا أن نعلمه العمل واستعمال يديه لأنه لم يعد ممكنا بالنسبة له أن يكون راعيا أو حرفيا. يمكنه أن يصير بناءا أو نجارا أو ميكانيكيا أو صيادًا أو بحارًا... والمسألة إذن تعود إلى بناء المدارس المهنية.

مرحلة الطريق

لتناول الطريق. تملك الجزائر نظاما للطرقات رائعا. لقد تم ربط كل مراكز الاستعمار، كل ضيعات المعمرين مع الطرق الوطنية الكبيرة. وهذه نتيجة هائلة. ولهذا يجب الآن أن نفكر في اقتصاد القبيلة والدوار. يجب أن تربط بهم التجمعات السكانية بدورها. فالطريق هي عون المدرسة. فمدرسة بغير طريق، مدرسة ميتة. فالطريق هي نهج الرقي. فبفضلها يغير الأهلي وسائل نقله ويضاعف نشاطه ومبادلاته، فأهمية الطريق أساسية.

مرحلة الطب

بقي المستشفى والصحة الاجتماعية. حسب شهادة طبيب عسكري وبالمقارنة مع ما تم إنجازه في الكوشانشين، فإن الإسعاف الطبي غير موجود في الجزائر. غير أنه يجب مداواة

الأهالي ولا يمكن أن نتوقف عند مستشفيات المدن الكبيرة. فالأهلي موجود في البلاد (القرى). كل بلدية يجب أن يكون لها مستشفى وكل دوار يجب أن يكون له مستوصف : مستشفى لكل 50.000 نسمة ومستوصف لكل 3000 نسمة. وهذا لا يعني أننا نطلب الكثير. ينبغي كذلك أن يُضاعف عدد المقاطعات الطبية. إنها كبيرة جدًا. لا يستطيع طبيب أن يكفي بلدية تساوي مساحتها دائرة فرنسية.

النتيجة النهائية

ليس هناك أيّ شيء في كتابنا المقدس يستطيع أن يمنع جزائريا مسلما أن يكون بصفة وطنية فرنسيا له سواعد قوية وذكاء نبيه وقلب نزيه"، لأنه مدرك للتضامن الوطني. ليس هناك أي شيء إن لم يكن الاستعمار نفسه مع مصالحه الأنانية، وضوابطه وتعاليمه الحقيرة التي أضيف إليها خطأ محاولة الإدماج بكل بساطة.

فرحات عباس، الشاب الجزائري، ص 156-159.

الفصل الرابع عشر

أصل الطليعة المناهضة للاستعمار

– الشيوعيون والعلماء والوطنيون 1919–1933

في بلد مستعمر تتكون الطليعة من الذين يطالبون بنهاية الامبريالية والاستقلال السياسي والثقافي والتنمية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية. عندما تبقى هذه الطليعة وفية لبرنامجها وتكافح بكل الوسائل، بما في ذلك السلاح لتحقيقه، فإنها تصل إلى الاستقلال. لهذا يكون من الأهمية بمكان أن نحاول فهم أصول هذه الحركات والأحزاب التي تناولت القضية الوطنية. لقد رأينا التلعثمات مع الأمير خالد ونرى في هذه الفترة الذين تناولوا هذه المشكلة في الإطار الماركسي والذين تناولوها في المستوى الثقافي والديني والذين طرحوها بوضوح وصراحة بصفتهم وطنيين أو بعبارة أخرى: الشيوعيون والعلماء والوطنيون.

الشيوعيون

غداة الحرب لم يستطع الشيوعيون وأغلبهم أوربيون، أن يعرّفوا بوضوح سياستهم الجزائرية. وكانوا يعتقدون أن التحرير يأتي من انتصار الثورة في فرنسا وكانوا يقدرون أنه يجب محاربة الوطنية الجزائرية. وهكذا فإنهم اتخذوا موقفا مناهضا لأطروحات الدولية الثالثة التي كانت لصالح تحرير المستعمرات وطرد الامبرياليين. انطلاقا من 1924، منحت تحليلات الحزب

الشيوعي الفرنسي مكانة تَزَايَدَت أهميتها شيئا فشيئا للمسألة الوطنية في المستعمرات، معترفين لها بِحَرية الانفصال ومدعمين مطامحها للاستقلال. دعم الحزب الشيوعي الحرب التي خاضها عبد الكريم في الريف واقترح تنسيق كفاح بروليتاريا مع كفاح أهالي المستعمرات ضد المضطهدين الإمبرياليين وساند بقوة الحركة الوطنية من البرجوازية الأهلية "الدواء الوحيد هو إزالة التمثيليات المالية وتعويضها ببرلمان جزائري منتخب بالاقتراع العام من طرف كل سكان هذا البلد ابتداء من سن 18 سنة." في نهاية 1924. ندد الحزب الشيوعي بكل الإصلاحيين سواء كانوا مسلمين أو أوربيين حالة عدم دعمهم لقضية الاستقلال. وفي سنة 1930 رأى الشيوعيون في احتفالات المئوية "تظاهرة امبريالية" ونشروا مجموعة من المناشير ضد "مائة سنة من الاستعباد تحت الهيمنة الفرنسية".

ونشروا الشعارات التالية: "استقلال الجزائر" و"جلاء الامبريالية عن البلد" و"جمعية وطنية شعبية". ولقد جلبت لهم هذه الشعارات صاعقة القمع البوليسي الشيء الذي أدهش بعض المناضلين الأوربيين وجلب إليهم أول المناضلين الجزائريين. ورفض الشيوعيون السياسة الإدماجية المقترحة من طرف فيوليت والاشتراكيين والقادة الدينيين والإقطاعيين والبرجوازية. ولكن وبصفة عملية لم يكن الشيوعيون مستعدين للكفاح من أجل الاستقلال، لأن الشيوعيين الأهالي كانوا قلّة. فهل يستطيعون قيادة حزب شيوعي يؤطر الجماهير الشعبية؟ كان السؤال مطروحا بالنسبة لبعض المناضلين. وفي 1930

جمع مؤتمر سرّي للعمّال العرب في الجزائر 75 ممثلا منهم 69 جزائريا. وهكذا فإن الرأي العام الأوربي والإدارة الفرنسية قد أزعجها اتساع الحيز الذي احتله الشيوعيون بين المسلمين وخاصّة إمكانية التعاون بين الوطنية والشيوعية. والشيء المبتكر في هذا حزب جاء من تركيبته - أوربيين وجزائريين وفي إدارته- أغلبها أوربية وخاضعة للحزب الشيوعي الفرنسي.

الإصلاح : جمعية العلماء

ظهرت النهضة الجزائرية بقليل من التأخر بالنسبة للنهضة في الشرق التي ترمز إليها أسماء جمال الدين الأفغاني وشكيب أرسلان ومحمد عبده. وقد كان لبعض الجزائريين فرصة متابعة دروسهم في المشرق واستلام رسالة الإصلاح. وبعد عودتهم إلى الجزائر أسسوا مدارس حرة ونشطوا محاضرات في النوادي. فبرز رجال من الإصلاح الجزائري. استقر ابن باديس كمعلّم في قسنطينة سنة 1914 وفي 1925 أصدر جريدة "المنتقد" وفيما بعد "الشهاب". ودخل العقبي من الحجاز سنة 1920 واستقر في سيدي عقبة وأسس جريدة وجاء للإقامة في مدينة الجزائر ابتداء من 1929 حيث تميّز بمحاضراته في نادي الترقي. ودخل البشير الابراهيمي من الشرق سنة 1922 ودرّس في سطيف ثم التحق بمجموعة الشهاب. والتحق بهؤلاء الرجال العديد من المعلمين الأحرار ومنهم مبارك الميلي ومحمد العيد والسعيد زهيري والعربي التبسي والعديد من المثقفين الآخرين ومنهم توفيق المدني والأمين العمودي...

أعطى هؤلاء الرجال فيما بين 1925 و1930 قفزة حاسمة للنهضة الجزائرية التي اتخذت خاصة مظهرا دينيا وثقافيا تأسيس مساجد ومدارس حرة، والحث على حياة اجتماعية وثقافية في إطار الوفاء العربي الإسلامي، هذه هي الأهداف التي كانت تحرك رجال الإصلاح. وكل هذا بمساعدة "فرنسا الديمقراطية" التي كان يطلب منها ترقية الظروف العقلية والأخلاقية للمسلمين الجزائريين والمشاركة في تسيير الشؤون الاقتصادية للوطن الجزائري". ومن هنا تأتي الصعوبات مع الإدارة الفرنسية لأن الإسلام والعروبة يتعارضان بصفة حتمية مع النظام الاستعماري. إن رجال الإصلاح كانوا حذرين جدّا في هذا المجال وكانت مواقفهم السياسية تشبه مواقف المنتخبين، ويظهر حماسهم والتزامهم الوطني خاصة في أشعارهم وفي تجديد دراساتهم التاريخية. وقد أبْرَزوا ذلك خاصّة في مناقشاتهم المتعلقة برفض التجنيس.

لقد أدت المجهودات التي قام بها المثقفون باللغة العربية في سنة 1931 إلى تأسيس جمعية العلماء. كان "الشهاب، منذ 1925، قد طالب بتكوين "حزب ديني فقط" قصد تطهير الدين والرجوع إلى المنابع القرآنية والنبوية. لقد انعقدت الجمعية العامّة الأولى بتاريخ 5 مايو 1931 في نادي الترقي بمدينة الجزائر وعينت اللجنة المديرة برئاسة بن باديس ويساعده كنائب رئيس البشير الابراهيمي والأمين العمودي كأمين عام والعقبي كأمين مساعد ومبارك الميلي كأمين للمال وإبراهيم بيوض كأمين مال مساعد. اقتصرت الجمعية على المجال الديني،

صورة لابن باديس والإبراهيمي





"نعدكم بأننا سنواصل على النهج المعروف يعني : نشر الرسالة القرآنية، ممارسة الأخوة، الحث على العلم والعمل والرقي في النظام والسلم، والبحث عن الإحسان والمساهمة فيه لصالح الجميع"، كُتِب في الشهاب في فبراير 1830.

الهجرة الجزائرية ونجم شمال إفريقيا

لقد نشأت أو ل منظمة سياسية وطنية جزائرية في أوساط الهجرة في فرنسا. بدأت الهجرة الجزائرية في بداية القرن العشرين وتَسارعت الحركة خلال الحرب العالمية الأولى (116.616 ذهابا بين 1914-1918). فحاجات إعادة البناء وحاجة الصناعة وارتفاع الأسعار جلبت فيما بعد تكاثر المهاجرين الشيء الذي أقلق المعمرين الراغبين في بقاء اليد العاملة الرخيصة. وفي فرنسا اهتمت المنظمات النقابية - وخاصة الكنفدرالية العامة للعمال الموحدة- والشيوعيون بهذه الهجرة ودعموا مطالبها. وتعلم المهاجرون من الاتصال بتلك الحركات مبادئ التنظيم ومَنْهَجِيَّته. من هذه الاتصالات نشأ نجم شمال إفريقيا.

فالشيوعيون ومن بينهم الحاج علي عبد القادر، والأمير خالد وأعضاء من مجموعة العمال الجزائريين ومنهم بلغول ومصالي وجفال وسي الجيلاني، لقد كان هؤلاء الرجال في بداية تأسيس نجم شمال إفريقيا في 1926. واشتغلت هذه المنظمة الجديدة في البداية كجمعية غير مصرح بها وهي مفتوحة لعمال بلدان المغرب العربي الثلاثة وتقودها لَجنةٌ مركزية مكونة من

الجزائريين. فمنذ السنوات الأولى برزت بعض الأسماء، مصالي الحاج والحاج علي عبد القادر وهو مناضل في الحزب الشيوعي الفرنسي وكان أول رئيس، وسي الجيلاني وبنون أكلي... وكانت التعبئة أساسا من الجزائريين، 3000 منخرط في سنة 1927، و4000 في 1929. وكانوا خاصة من بين العمال الشيء الذي يفسر استمرارية محققة وانسجاما حقيقيا بين المناضلين الذين كانت لهم أنشطتهم الاجتماعية والثقافية والسياسية تندرج في الحزب. فأول برنامج يستلهم من البرنامج الذي وضعه خالد ولكن منذ 1927، بدأ النجم يوضح ميولاته الوطنية : استقلال البلدان الثلاثة للمغرب العربي وطالب النجم بالنقاط التالية للجزائر :

1 - استقلال الجزائر.

2 - الانسحاب الكامل للجيش الفرنسي المحتل.

3 - تكوين جيش وطني جزائري.

4 - تسليم البنوك والمناجم والأراضي..إلى الدولة الجزائرية على أساس أنها ملك لها قد استحوذ عليها المحتلون.

حاول النجم أن يربط علاقات مع منظمات تهتم بالمشاكل الاستعمارية : "اللجنة السورية-الفلسطينية" لشكيب أرسلان و"لجنة الدفاع عن المغرب العربي" و"الاتحاد من أجل تحرير المغرب العربي". وشارك النجم في فبراير 1927 في المؤتمر المناهض للاستعمار في بروكسال والمنظم من طرف الجامعة ضدّ الاضطهاد الاستعماري" والذي حضره نهرو (الهند) ولمين

سنغور (إفريقيا السوداء) ومحمد حطة (أندونيسيا). فباسم النجم ندد مصالي بالسياسة الاستعمارية الفرنسية وأكد إرادة منظمته الكفاح من أجل استقلال البلدان الثلاثة في شمال إفريقيا. كما أكد قادة النجم في 1928 إرادتهم أن يكونوا مستقلين عضويا عن الحزب الشيوعي الذي ساعد النجم في بدايته بأن وضع تحت تصرفه مناضلين ومحلات.

منذ 1927 تعرض النجم للقمع البوليسي، إذْ تَحتَّم عليه بالفعل أن ينشط في السرية. وفي سنة 1929 أعلنت محكمة عن حلّ النجم الذي واصل نشاطاته تحت اسم آخر وهو "نجم شمال إفريقيا المجيد" وعلى رأسه دائما مصالي. وفي سنة 1930، وجه النجم رسالة طويلة إلى عصبة الأمم للاحتجاج ضد احتفالات الذكرى المئوية والتذكير ببشاعات الفتح الاستعماري. فالتحليل الذي قام به القادة الوطنيون كان يقترب من التحليل الذي تقوم به الجماهير الشعبية بصفة غامضة. وفي أكتوبر 1930، أنشأ النجم جريدة الأمّة التي أضفت الشعبية على شعارات الحركة الوطنية. وتكونت مجموعات من أصدقاء "الأمة" في بعض المدن في فرنسا وفي مدينة الجزائر حيث بلغ ذلك إلى حدّ إنشاء حزب وطني ثوري لدعم "الأمّة". وبهذا صاروا أول المناضلين الوطنيين في الجزائر.

في ملتقى الطرق : الأزمة الجزائرية : 1932-1935

بالنسبة للمسلمين الجزائريين، انتهت سنة 1930 في طريق مسدود : الصعوبات الاقتصادية التي زادتها خطورة تهديدات

مضاعفات الأزمة العالمية التي لها أخطر تأثير على الجزائريين. كانت الجماهير جدّ منشغلة بالحياة اليومية. لقد حضرت وهي غير مبالية بتظاهرات الذكرى المئوية. ولكنها كانت تحِسّ بالتهديدات التي يواجهها الإسلام في البلدان المجاورة، في المغرب مع الظهير البربري وفي تونس مع المؤتمر الأفخارستي الذي تنشطه روح الحروب الصليبية وأنجلة المسلمين. واقترحت عليهم عدة سبل، سبيل المنتخبين المهانين الذين خيبت آمالهم لأن المئوية لم تأت بأي إصلاح. وسبيل الشيوعيين ولكنها غير موثوق فيها لأنها تقدم تحليلا بعيدا عن الإسلام. أمّا سبيل العلماء فإنها أكثر جاذبية لأنها تعلن ولو بصورة ضعيفة نظرية العروبة والإسلام وسبيل نجم شمال إفريقيا الذي يقترح الوطنية المرتكزة على الإسلام واللغة العربية والشخصية الجزائرية والذي يعارض بصرامة الجنسية الفرنسية. كانت سنة 1930 نقطة انطلاق لجيل جديد من الجزائريين.

إن فترة 1932-1935 كانت فترة اضطراب جزائري كبير : صعوبات اقتصادية وتجاوزات استعمارية ومظاهرات احتجاجية من طرف المسلمين وتصلب الأحزاب السياسية الجزائرية.

لقد تطور عدد السكان المسلمين بصفة محسوسة ومرّ من 5.190.756 في سنة 1932 إلى 6.201.144 سنة 1936. صار التهديد العددي واقعا بالنسبة لكل السكان الأوربيين. ونضيف إلى هذه الصعوبات الاقتصادية لأن الجزائر بدأت منذ 1931 تشعر بمضاعفات الأزمة العالمية. صارت الوضعية الفلاحية منذرة بالخطر ابتداء من 1933، وقع فائض في الإنتاج العالمي

الشيء الذي أدى إلى انخفاض الأسعار وهذا ما أدى إلى انهيار السوق الريفية في الهضاب العليا. فاستحوذ المضاربون على محاصيل الفلاحين بأسعار زهيدة. فاستوطن الفقر والبطالة في المدن، وهددت المجاعة الفلاحين. وقد تضررت بلاد القبائل بصفة خاصّة بقلة بيع التين وانخفاض أسعار الزيت وعودة المهاجرين البطالين. فلامبالاة الإدارة وصرف الاعتمادات التي وُعدَ بها المسلمون في غير محلها وضعف عدد الورشات للبطالين وإضرابات العمال المسلمين المتعددة، كل هذا يعطي فكرة عن الاضطراب الاجتماعي. وبالإضافة إلى الفقر تزيد تجاوزات الإدارة : ارتشاء القياد ونقص الاعتبار والفضائح الانتخابية والإجراءات ضد حرية الخطبة في المساجد والتهديدات ضدّ اللغة العربية وضد الصحافة المسلمة.

يقدر العديد من الجزائريين أنه من الضروري التحرك ضدّ هذهِ الوضعية السيئة لمواطنيهم. ففي جريدة معتدلة (الفجر) يرسل أحد الجزائريين نداء قاسيا ضد فرنسا : "لا يا فرنسا. أبدا إسلامنا هنا، إسلام إفريقيا لم يعرف قبل سيادتكم مثل هذا التدهور؟ فكّري ! مازال لديك الوقت في تاريخ هذا البلد وقولي لي أين قرطاج وروما وبيزنطة والعرب والترك؟" كانت الأذهان متحمسة الشيء الذي يفسر العديد من المظاهرات من 1933 إلى 1934. الأولى بتاريخ 24 فبراير 1933 عند الخروج من مسجد مدينة الجزائر، ضد قرار الحاكم العام الذي يمنع العلماء من الخطبة في المساجد، ورفض منتخبي قسنطينة المشاركة في احتفالات 14 جويليا 1933، محاصرة منتجات الديار الأوربية،

استقالة بعض المنتخبين، مظاهرات عنيفة في مدينة الجزائر في فبراير 1933، إضراب العديد من العمال المسلمين إلى جانب العمال الأوربيين، احتجاجات ضدّ اللجنة ما بين الوزارات التي أرادت اتخاذ إجراءات ضد العلماء والصحافة واللغة العربية. وفي مايو 1934 تم تنظيم مظاهرات في المدن الرئيسية : تلمسان وعنابة وجيجل وبسكرة وقالمة تطالب بإلغاء القوانين الخاصّة وتلبية طلبات المسلمين.

عرفت قسنطينة في 1934 سنة مضطربة . لقد طرأ حادث تسممت بسببه العلاقات بين العرب واليهود. فرغم التهدئة التي نادى بها بن باديس والدكتور بن جلول، اندلعت مشاجرات يوم 5 أغسطس. وقد مات وجرح العديد من الطرفين. أما المنتخبون وبعد أن تجاوزتهم الأحداث فإنهم استنكروا على المشاغبين. وقد رأى الكثير في هذه الأحداث المأساوية انعكاسات لمشكل عام وهو أن الجماهير المنغمسة في الفقر لم تجد حلا إلاّ بالانهماك في العنف. أمّا الشيوعيون فإنهم ألحوا على الطاقات الثورية الكامنة التي أبرزتها أحداث الناحية القسنطينية. وانفرد نجم شمال إفريقيا بتأكيد تضامنه مع "المكافحين الأمجاد الذين ردوا على انتهاك حرمة المسجد وعلى التحدي الامبريالي".

تصلبت مواقف الأحزاب السياسية. فندد الشيوعيون بشبه الإصلاحيين لأنهم انتبهوا إلى سوء تقديرهم للحركة الوطنية الجزائرية. وفي جوان 1933 طلب موريس توريس من الشيوعيين مساعدة المنظمات الوطنية. إلا أن أغلبية المناضلين

الأوربيين كانوا يقدمون المطالب الآنية على الكفاح الثوري من أجل الاستقلال ويرفضون إنشاء حزب شيوعي جزائري وهذان الخطآن في التحليل يفسران فشل الحزب في الوسط الإسلامي.

وفي سنة 1934 غيّر الشيوعيون، بعد اللقاء سطالين/لفال، سياستهم في الدفاع الوطني وسياستهم الاستعمارية. وفي أغسطس 1935 اقترحوا إنشاء تجمع للقوات الإسلامية إلى جانب الجبهة الشعبية المناهضة للفاشية محالفة للجبهة الشعبية.

لقد اتخذ العلماء مواقف صارمة فيما يخص رفض التجنيس والدفاع عن اللغة العربية ونقد المرابطية. وتم رفض الإدماج لأنه يعتبر "تخليا عن الجنسية واللغة ونبذا للتقاليد الإسلامية. أما وصف الذين يتخلون من تلقاء أنفسهم عن التشريع الإسلامي بالمرتدين ومحاربة المرابطية وأعوان الشعائر الدينية الرسميين هي في الواقع مواقف سياسية. وهكذا فإن الثقافة العربية تنفتح على للعروبية السياسية والدفاع عن الإسلام يؤدي إلى الجامعة الإسلامية. وفي الميدان استطاع العلماء أن يفتحوا العديد من المدارس والنوادي وتفوقوا على المرابطية.

وتقوت الوطنية الجزائرية بالتقدم الذي أحرزه نجم شمال إفريقيا ابتداء من 1933 بناء على الدفع القوي الذي بذله ثلاثة مناضلين راجف بلقاسم وعماش عمر وخاصّة مصالي الحاج. انعقد اجتماع عام في باريس سنة 1933 فعين لجنة مركزية مكونة من 30 شخصا، وجعلت من النجم حزبا سياسيا وأثبتت له برنامجه على وجه الخصوص. وفي مرحلة أولى مخصصة

للمطالب العاجلة تبنى النجم الإصلاحات التي دافع عليها الأمير خالد ولكنها تجاوزتها بطلب الاقتراع العام وتطبيق القوانين الاجتماعية والبرلمان الوطني. وفي الجزء الثاني تم التأكيد على الاستقلال والتعريف به بدقة: حكومة وطنية، جيش وطني وجمعية تأسيسية منتخبة بالاقتراع العام وسياسة اقتصادية واجتماعية طلائعية تطلب الإصلاح الزراعي والتأميمات والقوانين الاجتماعية الأساسية.

رغم أن النجم ممنوع منذ 1929 إلاّ أنه كان ينشط تحت اسم "نجم شمال إفريقيا المجيد". كان يكثر من نشاطاته في المدن الرئيسية في فرنسا. اجتماعات ومناشير وملصقات كانت تتكاثر وتعرف الحزب إلى المهاجرين. اختار النجم رمزا وهو علم بالألوان الثلاثة الأخضر والأبيض والأحمر. وجريدة كانت تسحب من 2000 إلى 3000 نسخة. وتهاطل القمع على القادة، وتم حل "النجم المجيد في فبراير 1935. ورجع من جديد تحت اسم الاتحاد الوطني لمسلمي شمال إفريقيا. ورغم كل تغييرات الأسماء، كل الناس يتحدثون وينشطون باسم النجم الذي كان يرمز له بكلمة الاستقلال وبالعلم وبالزعيم مصالي.

استوطن الحزب في الجزائر خلال هذه الفترة. بعث مناضلون من أصدقاء "الأمة" ممثلا للجمعية العامّة المنعقدة في باريس سنة 1933، وبعثت فروع في مدينة الجزائر والبليدة وبوفاريك تجمع فيها عمّال وموظفون في التراموا ي وتجار صغار. وفي سنتي 1934 و1935 أحدثت فروع تلمسان وقسنطينة وسكيكدة. لقد أزعجت أنشطة النجم وتصريحاته السلطات الفرنسية وحتى

المعتدلين : الشيوعيين والمنتخبين والعلماء. كان النجم يظهر أنه الأكثر تمثيلا للمهاجرين وكان يجلب الشبان في الجزائر.

وفي 14 جويليا 1935 استجاب 40.000 جزائري لنداء النجم وشاركوا في الاستعراض إلى جانب منظمات اليسار مؤكدين هكذا على الصفة الوطنية المناهضة للفاشية لحزبهم.

الخاتمة

لقد بدأ جوّ من الاضطراب يخيم على الجزائر في 1935، أحداث في سطيف في فبراير وإشاعات ثورات فطلب المعمرون استتباب الأمن، وقام وزير الداخلية ريني بجولة انتهت بإجراءات قمعية ومنها المرسوم الشهير الذي يحمل اسمه وهو ضدّ "أي مساس بالسيادة الفرنسية". لاحظ المنتخبون عجزهم ولكنهم بقوا مخلصين لبرنامجهم الإصلاحي المعتدل ويتبعهم في ذلك العلماء رغم ميولهم المكتسب إلى القومية العربية. وكان الشيوعيون، وهم أعضاء في التجمع الشعبي المشكّل في باريس مع الأحزاب اليسارية، أكثر ميولا إلى الكفاح المناهض للفاشية منه إلى استقلال الجزائر. ومع انتصار الجبهة الشعبية في 1936، هل سيحل اليسار الفرنسي المسألة الجزائرية ؟

نصـــــوص

برنامج انتخابي شيوعي

انتخابات المجلس الجهوي وهران 1928

فالحزب الشيوعي يطلب لاسيما الاستقلال الكامل للجزائر والمستعمرات الأخرى، والأقاليم الواقعة تحت الإدارة الفرنسية أو تحت حمايتها، ولكن يطلب أيضا الحث بأن تقرر كل الشعوب الخاضعة حاليا لسيطرة فرنسا مصيرها بنفسها. وبالنسبة للإجراءات المستعجلة التي ينبغي منحها، فإنه يطلب :

1) سحب كل جيوش الاحتلال والموظفين الفرنسيين.

2) تنظيم جمعية وطنية منتخبة بالاقتراع العام وإدراة مستقلة وجيش وطني شعبي في كل مستعمرة.

3) إلغاء كل القوانين الاستثنائية (قانون الأهالي).

4) أن يمنح القانون النقابي الكامل للأهالي.

5) منح الحق في الصحافة والجمعيات للأهالي.

6) تطبيق الـ 8 ساعات وكل القوانين الحامية للعمل والتأمينات الاجتماعية الموجودة في الوطن الأم.

7) المساواة في الخدمة العسكرية بين الأهالي والفرنسيين.

8) بالنسبة للعمال الأهالي في فرنسا، مساواة في الحقوق والتعامل مع العمال الفرنسيين وحرية الهجرة.

يحيا الاستقلال الكامل للجزائر. في "الكفاح الاجتماعي"، 20/04/1928

إدانة احتفالات المئوية من طرف الشيوعيين

"أيها الجندي الجزائري،

من اجل استقلال بلادك تآخ مع العمّال في فاتح مايو

أيها الجندي الشمال إفريقي،

لقد أعطاك الاستعمار الفرنسي الجهل والخمر والفساد والاضطهاد الاستعماري...

إنكم تقاتلون في المغرب وفي سوريا.

إنكم تؤدون (6) أشهر أكثر من الجنود الفرنسيين...

إن المعمرين يحتفلون باستعبادكم في الذكرى المئوية...

في أول مايو تآخوا مع إخوانكم العمال الفرنسيين وتظاهروا ضد المئوية".

لوتان، 27 مايو 1930

تصريح النائب الشيوعي توريس في غرفة النواب 1 جويليا 1933

لا يقصد من هذا هنا فعل صدقة وتشريع اجتماعي نحو العمال الجزائريين. لابد من تحسين ظروفهم السياسية بإلغاء قانون الأهالي. يجب أن يسمح لهم بالتجمع والتنظيم ليستطيعوا

هم أنفسهم تحقيق مطالبهم. نطلب لهم حق تسيير أمورهم والنضال وحق الإضراب وحرية الاجتماع وحرية الصحافة باللغة الفرنسية واللغة العربية...

نطلب أن يعطى التعليم بالعربية وإلغاء البلديات المختلطة والقياد.

ثم هناك طلب كبير : الأرض للفلاحين الأهالي والإيقاف الفوري لنزع الملكيات ودفع التعويضات لمن طردتم من أراضيهم، وتسليم الأراضي للقبائل المسلوبة.... وأنا أعرف جيدا أن كل هذا لا يتم الحصول عليه في النهاية إلا بتحالف عمال فرنسا مع أهالي الجزائر. كل هذا يطرح مشكل استقلال الشعب الجزائري وانعتاقه من نير الامبريالية الفرنسية".

ذكره جوركي، (مذكور سابقا)، ص : 316-317.

مطالب نجم شمال إفريقيا (1927)

مطالب الجزائريين :

يطلب نجم شمال إفريقيا الذي يمثل مصالح السكان العاملين من شمال إفريقيا، تطبيق المطالب الآتية بالنسبة للجزائريين ويطلب من المؤتمر أن يتبناها :

- "استقلال الجزائر،
- سحب كل القوات الفرنسية المحتلة ؛

- تشكيل جيش وطني

- مصادرة الممتلكات الفلاحية الكبرى التي تم الاستيلاء عليها من طرف الإقطاعيين أعوان الامبريالية والمعمرين والشركات الرأسمالية الخاصة وتسليم هذه الأرض المصادرة إلى الفلاحين الذين حرموا منها. وعودة الأراضي والغابات المستولى عليها من طرف الدولة الفرنسية إلى الدولة الجزائرية.

- إن هذه المطالب الأساسية التي نكافح من أجلها لا تستثني عملا قويا وفوريا لننتزع من الامبريالية الفرنسية :

- الإلغاء الفوري لقانون الأهالي والإجراءات الاستثنائية.

- العفو عن الذين سجنوا أو هم تحت حراسة خاصة أو منفيين بسبب مخالفتهم لقانون الأهالي.

- حرية الصحافة والجمعيات والتجمع والحقوق السياسية والنقابية المساوية لحقوق الفرنسيين الذين هم في الجزائر.

- تبديل الممثليات المالية المنتخبة بالاقتراع الخاصّ ببرلمان جزائري منتخب بالاقتراع العام.

- مجالس بلدية منتخبة بالاقتراع العام.

- الالتحاق بالتعليم في كل المراحل ؛ إحداث مدارس باللغة العربية ؛

- تطبيق القوانين الاجتماعية

- توزيع القرض الفلاحي إلى الفلاح الصغير.

ليس لهذه المطالب الحظ في الإنجاز إلا إذا أدرك الجزائريون حقوقهم وقوتهم وتوحدوا وتجمعوا في منظمات لفرضها على الحكومة الفرنسية".

مقتطفات من خطاب مصالي في مؤتمر بروكسال (فبراير 1927، في الكفاح الاجتماعي 11 مارس 1927.

برنامج نجم شمال إفريقيا (1933) الذي صوتت عليه الجمعية العامة (28 مايو 1933)

الجزء الأول :

1- الإلغاء الفوري لقانون الأهالي البشع وكل الإجراءات الاستثنائية ؛

2- العفو عن كل الذين سجنوا أو وضعوا تحت حراسة خاصّة أو تم نفيهم بسبب مخالفتهْم لقانون الأهالي أو من أجل جنحة سياسية ؛

3- حرية السفر المطلقة إلى فرنسا أو إلى الخارج ؛

4- حرية الصحافة والجمعيات والتجمع والحقوق السياسية والنقابية.

5- تبديل الممثليات المالية المنتخبة بالاقتراع الخاص ببرلمان وطني جزائري منتخب بالاقتراع العام ؛

6- إلغاء البلدية المختلطة والمناطق العسكرية. وتبديل هذه التنظيمات بمجالس بلدية منتخبة بالاقتراع العام ؛

7- ارتقاء كل الجزائريين إلى كل الوظائف العمومية بدون تمييز ؛ وظيفة متساوية وراتب متساوي للكل.

8- التعليم الإجباري باللغة العربية ؛ الارتقاء في التعليم **إلى** كل المراحل ؛ إنشاء مدارس عربية جديدة. يجب أن تنشر كل العقود الرسمية مباشرة باللغة العربية والفرنسية.

9- وفيما يخص الخدمة العسكرية يجب احترام الآية القرآنية احتراما كاملا والتي تقول ما معناه : "من يقتل نفسا مسلمة متعمدا مصيره جهنم وغضب الله عليه ولعنه".

10- تطبيق القوانين الاجتماعية والعمالية ؛ والحق في البطالة للعائلات الجزائرية في الجزائر والمنح العائلية والمنح الفوري للتأمينات الاجتماعية ؛

11- توسيع القرض الفلاحي للفلاحين الصغار وعقلنة تنظيم الريّ. تطوير وسائل الاتصال ومساعدة الحكومة لضحايا المجاعات الدورية بصفة مجانية (أي لا تسترجع).

الجزء الثاني :

1- الاستقلال الكامل للجزائر.

2- السحب الكامل لقوات الاحتلال.

3- تكوين جيش وطني

حكومة وطنية ثورية

1- مجلس تأسيسي منتخب بالاقتراع العام

2- الاقتراع العام في كل الدرجات وقابلية الانتخاب في كل المجالس وبالنسبة لكل سكان الجزائر ؛

3- تعتبر اللغة العربية لغة رسمية

4- تسليم البنوك والمناجم والسكك الحديدية والموانئ والمصالح العمومية التي استولى عليها المحتلون إلى الدولة الجزائرية في شكل ملكية كاملة.

5- مصادرة الممتلكات الفلاحية الكبرى التي استولى عليها الإقطاعيون المتحالفون مع المحتلين والمعمرون والشركات المالية، وتسليم الأرض المصادرة إلى الفلاحين. احترام الملكية المتوسطة والصغيرة. رجوع الأراضي والغابات التي استولت عليها الدولة الفرنسية إلى الدولة الجزائرية ؛

6- التعليم المجاني والواجب في كل المراحل باللغة العربية.

7- اعتراف الدولة الجزائرية بالحق النقابي، والتحالف والإضراب، وإعدادها للقوانين الاجتماعية.

8- مساعدة فورية للفلاحين بتزويد الفلاحة بقروض بدون فائدة لشراء الآلات والبذور والأسمدة وتنظيم الريّ وتحسين مسالك الاتصالات...

حملات قام بها العلماء ضدّ المساس بحريات المسلمين، في مايو (1934)

من كل أنحاء الجزائر ارتفعت أصوات ضد مشاريع ميرانت الرامية إلى القتل المعنوي لستة ملايين رجل ونظمت مظاهرات في المدن الرئيسية وأرسلت صرخات عنيفة :

"أيها المسلمون في مدينة الجزائر،

إن عجز المنتخبين ونذالتهم.. ! والخوف الدنئ لأكبر أعيان مدينتنا !... كل هذا قد منعكم من إظهار استيائكم الشامل. لا تعتمدوا إلاّ على أنفسكم! نظموا أنفسكم! أوقفوا كل النشاط. أغلقوا دكاكينكم ومؤسساتكم. من أجل حرية الصحافة المسلمة باللغة العربية والفرنسية.

من أجل حرية التعليم العربي.

من أجل سلامة الدين الإسلامي الحقيقي.

ضدّ الكمائن والخيانات من طرف اللجنة الوزارية المشتركة وضدّ من لا كفاءة لهم. فإن الخونة وحدهم هم الذين يفتحون، غدا الأحد."

برقية أرسلها ابن باديس :

"حزين بسبب إعلان إجراءات خطيرة جدّا مقترحة من طرف اللجنة الوزارية المشتركة الرامية إلى القضاء الكامل على حريات المسلمين الجزائريين، تحتج جمعية العلماء المسلمين

الجزائريين بشدّة ضدّ إجراءات اقترحها بعض الأشخاص غير الأكفاء ويعملون ضد المصلحة الحقيقية لفرنسا، تعيق تطور المسلمين الجزائريين. ترفض الاعتقاد أن قادة فرنسا، بلد الحرية والأنوار يصادقون على اقتراح يهدف إلى إلغاء حرية الممارسة الدينية وحرية التفكير وحرية التعليم. شعب كامل يطمح إلى العيش بكرامة وشرف تحت إشراف أمّة متحضرة- يغتنم الفرصة لجلب انتباه حكومة فرنسا إلى تنكيدات واضطهادات من أنواع مختلفة يتعرض لها شعب مسلم وخاصّة مثقفوه الأحرار."

قداش : تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية - ص 298.

الفصل الخامس عشر

المؤتمر الإسلامي (1936-1939)

كانت الفترة 1936-1939 حاسمة في تاريخ الإصلاح السياسي. وأظهرت عجز اليسار الفرنسي على تلبية طلبات المؤتمر الإسلامي الذي طرح المشكلة الجزائرية في إطار ارتباطها السياسي بفرنسا والإدماج الذي شخصّه مشروع بلوم-فيوليت. وكان نجم شمال إفريقيا وحده هو الذي يدافع على قضية الاستقلال وبالتالي كان مستهدفا بصواعق الإدارة وكذلك الرأي العام الأوربي والإصلاحيين المسلمين. فقامت حكومة الجبهة الشعبية بحله ولكنه ولد من جديد تحت إسم حزب الشعب الجزائري. وعشية الحرب العالمية الثانية فكّر المنتخبون الذين كانوا مستائين، في نهج آخر، وهكذا صار حزب الشعب الجزائري أملا للشبان الجزائريين.

إجتماع المؤتمر الإسلامي

في 1936 وبعد انتصار الجبهة الشعبية، في فرنسا، التي تجمع الأحزاب والحركات والنقابات اليسارية. كانت وحدة هذا اليسار نموذجا للأحزاب والتجمعات الجزائرية. كانت الوحدة ضرورية خاصّة وأن اليسار كان من المفترض أن يكون له نوع من التعاطف مع المسألة الجزائرية. فساعة الاختيار حانت بالنسبة

للجزائريين. فارتفعت أصوات تطلب الوحدة. وتحدث ابن باديس عن فكرة مؤتمر للحصول على رأي الشعب الجزائري في مشاريع الحكومة. وتناول هذه الفكرة عدد من المنظمات الإسلامية، وتشكلت لجان في عدة مدن جزائرية لتسمع الجبهة الشعبية صوت الشعب الجزائري. كان المنتخبون موافقين على عقد مؤتمر وكانوا في نفس الوقت يعددون تصريحات الوفاء ليبرزوا اعتدالهم. ففي هذا السياق كان تصريح فرحات عباس: "فرنسا هي أنا" وفيها يؤكد أنه لم يكتشف الأمة الجزائرية وأنه لا يموت على الوطن الجزائري لأنه لا يوجد. وصدم هذا التصريح وطنيي حزب الشعب الجزائري والعلماء. وفتحت المجال لجدل غزير ومن بينها جواب ابن باديس الشهير الذي وضع ماذا يعني بالاستقلال.

اجتمع المؤتمر الإسلامي لأول مرة في 7 جوان 1936 في قاعة سينما الماجستيك (اليوم الأطلس) مع ممثلين يمثلون المنتخبين والأعيان والعلماء والشيوعيين. وهكذا فإن المؤتمر كان يمثل الإصلاحيين السياسيين وهم زعماء هذا التيار. فرحات عباس والدكتور سعدان والعمودي وبوقرط والعقبي وابن باديس...هم الذين قدموا مطالب المسلمين المختصرة في ميثاق مطالب الشعب الجزائري. ويتناول هذا الميثاق من ناحية الإصلاحات التي طلبها الأمير خالد يعني المساواة في كل المجالات والحق العام وبكل بساطة الارتباط بفرنسا ومن ناحية أخرى التمثيل البرلماني.

كان برنامج المؤتمر: نصير فرنسيين مع البقاء مسلمين- معتدلا وكان في الإمكان أن تقبله الجبهة الشعبية. كان المنتخبون راضين والشيوعيون كذلك لأنهم استطاعوا أن يصنعوا من المؤتمر جبهة موازية للجبهة الشعبية. كان موقف العلماء غامضا لأننا عندما نصير فرنسيين مع البقاء مسلمين وطنيا لا يتطابق مع التأكيد على وجود أمّة جزائرية. فالمؤتمر، بعد أن وضع ميثاقه، قام بإرساء بنيته، نوع من اللجنة المركزية مكوّنة من 22 منتخبا و19 من العلماء و6 من الشيوعيين و14 مستقلا مع مكتب مركّب من الدكتور بن جلول رئيسا والأمين العمودي نائب الرئيس وبن حاج أمين عام وبوكردنّة أمين المال. أما وطنيو النجم الذين لم يحضر منهم في المؤتمر إلا ثلاثة أعضاء، فقد أبعدوا لأن المؤتمر كان يخشى تطرفهم. وهكذا فإن المنتخبين قد نجحوا في تكوين حركة سياسية معتمدة على الشيوعيين الذين هم أعضاء الجبهة الشعبية والذين كانوا يستفيدون من الدعم المعنوي للعلماء. فنجاحهم يتوقف على موقف حكومة الجبهة الشعبية.

صعوبات المؤتمر

تعرّض المؤتمر للعديد من الصعوبات: تحفظات الحكومة الفرنسية، الاضطراب الاجتماعي واستفزاز الإدارة الجزائرية وانقسامات داخلية داخل النجم.

أرسل المؤتمر وفدا قويا ومن بينهم الزعماء الرئيسيون للإتصال بقادة الحكومة الفرنسية ليقدموا لها النقاط الرئيسية

للميثاق. كان بلوم ودلاديي في استقبال الوفد. وقام بعض أعضاء الوفد بزيارة موريس طوريس. وبعد الرجوع إلى مدينة الجزائر يوم 2 أغسطس 1933 قدم الوفد تقريرا عن سفره خلال تجمع كبير في الملعب البلدي. لقد ذكر المؤتمر للحكومة في عدة مرات المطالب التي قدمها الوفد. ومع الأسف لم تأخذ الجبهة الشعبية أيّ قرار.

وزاد الاضطراب الاجتماعي من استفحال نفاذ الصبر، اندلعت عدة إضرابات اشترك فيها المسلمون بصفة واسعة وانضاف إلى هذه الاضطرابات الاجتماعية نزاعات من نوع سياسي ومظاهرات مناهضة للسامية ذات صيغة ثورية واضرابات فلاحية في منطقة مدينة الجزائر ومناورات اليمين لجعل المؤتمر ينحرف وذلك بدفع المسلمين ضد اليهود.

أعطى اغتيال المفتي كحول الفرصة للإدارة بالقيام بعملية قضائية ضدّ المؤتمر. استطاعت الإدارة أن تجعل مفاتي مدينة الجزائر يوقعون برقية تنفي لأعضاء وفد المؤتمر الذين سافروا إلى باريس، أن يتكلموا باسم المُسلِمين. وتم اغتيال المفتي بن دالي المسمى كحول في يوم التجمع في الملعب البلدي.

وأوقف القاتل المزعوم وهو من الحق العام، عكاشة الذي اتهم العقبي وأحد رعاة العلماء عباس تركي. فصاحوا بالاستفزاز السياسي خاصّة بعد تراجع عكاشة عن اتهامه.

وبعد الاستقلال أخبرت من طرف جزائري بسر مفاده أنه كان هو الفاعل لما اعتبره إعداما سياسيا. وبقي السّر كاملا إلى

اليوم عن هذه القضية. والشيء المؤكد هو فشل العملية ضد العلماء.

فالجو المشحون الذي عاشه المؤتمر شرح تراجع الدكتور بن جلول : تراجع ناتج على مناهضة للشيوعية، بعد اغتيال المفتي وبعد تطور الوطنية. وهكذا فإنه ندد بالشيوعية والوطنيين في الجرائد الفرنسية. فقام المؤتمر بتنحيته من الرئاسة واقتربَ ابن جلول من الإدارة.

لم يتلق المؤتمر أي تشجيع من الحكومة الفرنسية التي لم تأخذ في الاعتبار أيّ نقطة هامة من ميثاق المطالب واكتفت فقط بطلب دراسة مظاهر المشكل الجزائري وخاصّة مشكل التمثيل البرلماني للجزائريين. ويكون مشروع "فيوليت" هو عنوان المعركة في المؤتمر الإسلامي.

المؤتمر ومشروع فيوليت

التمثيل البرلماني للمسلمين مطلب قديم، قدمه في بداية القرن "الشبان الجزائريون" وكذلك فيوليت في 1927-1928 وتمت إعادة دراستها بالعديد من المشاريع : غيرنوت ودوروكس وتاتينغر... وقدمت حكومة الجبهة الشعبية مشروعها في نهاية 1936. والهدف من مشروع بلوم/فيوليت كان الإندماج السياسي للجنة الجزائرية قصد إيقاف الوطنية. والمقصود منح المواطنة الفرنسية في إطار احترام القانون الشخصي الإسلامي لـ 25000 جزائري تقريبا، تشكل في نظر الحكومة نخبة : حاملي

شهادات لهم على الأقل الأهلية (شهادة التعليم المتوسط) أو من كانوا ضباطًا أو ضباط صف، أو ممثلون رسميون للتجارة أو الفلاحة أو المنتخبون أو الممثلون النقابيون وحائزو ميداليات العمل.

لقد تم استقبال المشروع بكيفيات مختلفة من طرف الفرنسيين والمسلمين. أمّا المنتخبون فإنهم أعطوا موافقتهم الحماسية وأكّدوا تعلقهم بفرنسا ؛ وقد أكد ذلك رئيس المؤتمر، الدكتور بشير في بيان بتاريخ 20 يناير 1937. أمّا أنصار المؤتمر الآخرون أي العلماء والشيوعيون والاشتراكيون فإنهم عددوا التصريحات لصالح المشروع. لقد تصلب موقف العلماء الذين أزعجتهم سياسة الارتباط وانتقادات النجم والذين خيب أملهم عدم تحرك الجبهة الشعبية. فنشر ابن باديس قصيدته المشهورة : "شعب الجزائر مسلم" التي يذكّر فيها بميزة الإسلام والعروبة في الشعب الجزائري. وفي "الشهاب" عرّف الوطنية الإسلامية الجزائرية على أنها هي استفاقة الأمة التي تريد البقاء على قيد الحياة والمحافظة على ميراث ماضيها.

إن مشروع بلوم/فيوليت وسياسة الارتباط السياسي للجزائر قد تم التنديد بها وبكيفية عنيفة من طرف وطنيي نجم شمال إفريقيا. لقد تميز النجم عن المنتخبين وعرض برنامجه الوطني على الجبهة الشعبية : "إن سياسة الإدماج لا يمكن أن تتحقق لأنها منبوذة من طرف العقل والعدالة والتاريخ. والحل الوحيد هو الانعتاق الكامل لإفريقيا الشمالية." ندد النجم بسياسة الارتباط وبثّ الشعار "برلمان جزائري واستقلال" وكثف حملته ضد سياسة المؤتمر.

في 2 أغسطس 1936، عرض مصالي الحاج في الملعب البلدي في مدينة الجزائر سياسة حزبه وطالب أمام وفد المؤتمر الراجع من باريس و8.000 مستمع، تكوين أمّة جزائرية مسلمة. وهكذا فإن النجم، الذي بدأت فروعه تتنظم في الجزائر، دخل في نزاع من جهة مع المنتخبين والعلماء المدافعين على مشروع بلوم/فيوليت ومن جهة أخرى مع الشيوعيين الذين كانوا ينظرون بعين الرضا إلى الوطنيين العرب والجامعة الإسلامية الذين كانوا يغذون إيديولوجية النجم. هذه النزاعات هي التي شرحت قرار الجبهة الشعبية بحل نجم شمال إفريقيا في 26 يناير 1937. وواصل النجم نشاطاته تحت اسم "أصدقاء الأمة" وقد تم تعويضه في 11 مارس 1937 بحزب وطني جديد، حزب الشعب الجزائري مع نفس الرجال ونَفْس البرنامج تقريبا.

المؤتمر الثاني وصعود حزب الشعب الجزائري

الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية والمعارضات العديدة لمشروع بلوم/فيوليت وسكوت الحكومة، كل هذه العوامل تفسر انعقاد المؤتمر الإسلامي الثاني. ولقي هذا الأخير نفس الصعوبات التي لقيها الأول وانتهى إلى فقد نفوذه لصالح حزب الشعب الجزائري المدعوم من طرف الشباب. وكانت وضعية الفلاح مأساوية وتحدثت جرائد كثيرة عن مجاعة في 1937 واضرابات عمال فلاحيين وعمال مناجم تمت الإشارة إليها في منطقة قسنطينة. وتحدثت صحافة المعمرين عن عدم الأمان. كما نددت عدة اجتماعات نظمها أنصار المؤتمر جمود الحكومة

وأرادوا تقوية الوحدة المنجزة خاصة وأن برنامجها كان منتقدا من طرف الوطنيين واليمين الأوربي. فانعقد مؤتمر ثان في جويليا 1937 وجمع 154 مشاركا في نادي الترقي في مدينة الجزائر. لم تكن له أهمية المؤتمر الأول. فقرر أن يبقى تجمعا مرتبطا بالجبهة الشعبية وعاملا من أجل إنجاز مطالب ميثاق مشروع بلوم/فيوليت. وتقوى المؤتمر بإنشاء شباب المؤتمر الإسلامي الجزائري تحت رئاسة بن باديس والأمين العمودي. ولم يتم تناول المسألة الوطنية بل تم الاكتفاء بميثاق المؤتمر الأول، وتم التأكيد على أن الجزائر أرض فرنسية وأن المسلمين الجزائريين فرنسيون. وهكذا تم انتقاد المؤتمر بصفة عنيفة من قبل حزب الشعب الجزائري.

وبقي المنتخبون هم القوة الرئيسية للمؤتمر. أمام جمود الجبهة الشعبية، اقترحوا الاستقالة لجلب انتباه الحكومة والمكافحة ضد صف المعمرين المناهضين لأي إصلاح. فالأمر بعدم التعامل مع الإدارة (19 سبتمبر 1937) قد عمل به معظم المنتخبين في منطقة قسنطينة. فلم يشاركوا في احتفالات الذكرى المئوية لاستيلاء الفرنسيين على قسنطينة. ولكن المنتخبين لم يثبتوا على استقالتهم، فانْتُقِدَ تراجعهم من طرف الوطنيين والعلماء.

إن فشل المؤتمرين الناتج عن ضعف تحاليل المشكل الجزائري من طرف الجبهة الشعبية، قد جعل تطور الوطنية الجزائرية أمرا لا مناص منه. وظهر أن موقف حزب الشعب الجزائري متين، وأنه سيترسخ بكل جدّية. وكان التجنيد شعبيا : العمال

والتجار الصغار وخاصّة الشباب. فنظمت فروع في المدن الرئيسية ومادام القمع دائما ممكنًا فكر القادة في أشكال تنظيمية سريّة.

وفي سنة 1937، حسب تقرير من الحكومة العامة، تم تنظيم 31 فرعًا في المدن الرئيسية في الجزائر بقطع النظر عن فروع فرنسا. أما البرنامج فإنه يتناول ثانية ما جاء في برنامج النجم مع الإلحاح على تحويل الممثليات المالية إلى جمعية جزائرية منتخبة بالاقتراع العام بدون تمييز لا في الجنس ولا في الدين. كان حزب الشعب الجزائري يرغب في جعل الجزائر دومنيون (أي دولة مستقلة) لها برلمانها وبالتالي فإنه يرفض الاندماج والارتباط. لقد أقام حملة واسعة على قرار مشروع بلوم/فيوليت. فإنها بعد شهر أو شهرين طالبت باستقلال الجزائر.

فشل الإصلاح السياسي وقمع الوطنيين

لم تقم حكومة الجبهة الشعبية بأيّ شيء ملموس بصالح المطالب الجزائرية. تمت مطاردة المضربين الجزائريين وكأنهم مجرمون من الحق العام ولم يطبق العفو للمحكوم عليهم بناء على مرسوم رينيي وقد ألغيت تقريبا حرية الصحافة ولم يتم التصويت على مشروع فيوليت.

اكتفت الحكومة بتنصيب لجان دراسية. وقام المنتخبون الأوربيون من مدينة الجزائر بحملة عنيفة ضد مشروع فيوليت الذي قد تم دفنه بالفعل في سنة 1939.

قامت الإدارة بدفع قادة الزوايا على معارضة العلماء وقامت بعملية غش في الانتخابات. بقي اليسار غير فعال. فعدد المنتخبون أعمالهم لحمل الحكومة على اتخاذ إجراءات لصالح المسلمين. فإنهم تارة يهددون وتارة أخرى ينادون بالصبر ويتحدثون عن الرد على إثارة المعمرين ويأملون في أن تردّ الجبهة الشعبية وتلبي رغباتهم في نهاية الأمر. فكر فرحات عباس في حزب سياسي وأعلن عن إنشاء "الاتحاد الشعبي الجزائري" في جويليا 1938. وحينئذ تفطن العلماء لفشل المؤتمر؛ وقدّر ابن باديس ضرورة إيجاد نهج جديد للدفاع عن الإسلام واللغة العربية والجنسية ونددّ بقوة بالتجنيس لقد اعتبر مرسوم 8 مارس 1938 المتعلق بتعليم اللغة العربية بأنه مساس ونيْل من حرية التعليم ونتيجة لذلك فإنه مناهض للغة العربية والقرآن والإسلام. فاستنتج العلماء عندئذ أنه من الضرورة بمكان تغيير المنهجية وقدّر بيانهم المؤرخ بـ 27 مارس 1939 بأنه لم يكن لهم إلاّ خيبات أمل سواء مع اليمين أو مع اليسار.

حاول الشيوعيون الإبقاء على انسجام المؤتمر وأرادوا أن يجعلوا من تنظيمهم هذا حزبا جزائريا ولكن سياسة التعريب في الحزب الشيوعي لقيت نوعا من التحفظ لدى المناضلين الفرنسيين الجزائريين. ومن ناحية أخرى فإن نظرية الأمّة الجزائرية التي هي في طريق التكوين كما عرفها طوريس، لم يكن في وسعها أن تسمح للحزب الشيوعي الجزائري أن يكون محركا لحركة وطنية محددة. وبالتالي فهناك مجموعة من الأسباب التي تشرح فشل المؤتمر وفي نفس الوقت فشل

الإصلاحيين. لكن بقي هناك طريق آخر للشباب الجزائري وهو أن يلتحق بالوطنية في حزب الشعب الجزائري.

فحزب الشعب الجزائري هو أوّل من أبرز الحصيلة السلبية للجبهة الشعبية التي كانت قد حلت نجم شمال إفريقيا الذي كان مع ذلك عضوا في التجمع الشعبي. فنادى حزب الشعب الجزائري بالتنظيم والكفاح ضد الامبريالية الفرنسية ولا يعتمد في ذلك إلاّ على الشعب الجزائري. لقد أنشأ مناضلون مقتنعون بأن الالتجاء إلى القوة هو الوسيلة الأكثر ضمانا لتحرير البلاد، لجنة العمل الثوري لشمال إفريقيا (CARNA) في سنة 1939، وكان هدفها الأول هو الحصول على السلاح. فاتصل مسؤولون من هذه اللجنة بألمانيا. أمّا مصالي الحاج فإنه لم يوافق على هذه المبادرة لأنه كان لا يعتقد أن تنتصر النازية.

لقد تم جدال حماسي بين هؤلاء وقادة حزب الشعب الجزائري الذين لم يتخلو عن النداء إلى الوحدة حول برنامج وطني ولكن من غير فائدة. على الأقل فإن حزب الشعب الجزائري توصل إلى جلب بعض المسؤولين مِنْ شباب المؤتمر وبعض الشخصيات من العلماء إلى هذه الفكرة.

فأمام تصاعد الوطنية، لم تر الإدارة إلاّ وسيلة واحدة لتوقيفها : القمع، فتم إيقاف القادة الرئيسيين وحكم عليهم في نوفمبر 1939، ومُنِعَت المظاهرات الوطنية والجرائد "البرلمان الجزائري" و"الأمّة" تم تعليقهما. وقد اعتبر حزب الشعب الجزائري هذه الإجراءات على أنها خيانة من طرف الجبهة

الشعبية. والحكم على مصالي جعل من رئيس حزب الشعب الجزائري زعيما وطنيا.

عشية الحرب، انتهت فترة: فترة الإصلاح السياسية وأمله أن يرى فرنسا، في ظل اليسار، تمنح إصلاحات عميقة للجزائر.

نصـــــوص

نص مشروع قانون بلوم/فيوليت

المادة الأولى: يقبل الأهالي الجزائريون الفرنسيون من عمالات الجزائر الثلاثة في ممارسة الحقوق السياسية للمواطنين الفرنسيين دون أن يطرأ أي تغيير لقانونهم الشخصي أو حقوقهم المدنية ماعدا تطبيق التشريع الفرنسي إسقاط الحقوق السياسية، وذلك شريطة استيفاء الشروط المذكورة في الفقرات التالية:

1- الأهالي الجزائريون الفرنسيون الذين خرجوا من الجيش برتبة ضابط؛

2- الأهالي الجزائريون الفرنسيون ضباط الصف الذين تركوا الجيش برتبة رقيب أول أو رتبة أعلى بعد أن أدى فيه خدمة مدّة 15 سنة وخرج منه بشهادة حسن السيرة.

3- الأهالي الجزائريون الفرنسيون الذين أدوا خدمتهم العسكرية وتحصلوا بصفة جماعية على ميدالية عسكرية أو صليب حرب.

4- الأهالي الجزائريون الفرنسيون الحاصلون على الشهادات التالية: شهادة تعليم عالٍ أو بكالوريا التعليم الثانوي أو شهادة الأهلية العالية أو شهادة الأهلية المتوسطة أو شهادة نهاية الدراسات الثانوية أو شهادة المدرسات أو شهادة التعليم المهني أو الصناعي أو الفلاحي أو التجاري وكذلك الموظفون الذين تم توظيفهم بمسابقة.

5- الأهالي الجزائريون الفرنسيون المنتخبون في غرف التجارة والفلاحة أو المعينون من طرف مجلس الإدارة للناحية الاقتصادية ومن طرف غرف الفلاحة الجزائرية في إطار الشروط المنصوص عليها في المادة الثانية ؛

6- الأهالي الجزائريون الفرنسيون الممثلون الماليون والمستشارون العامون والمستشارون البلديون في البلديات ذات الممارسة الكاملة ورؤساء الجماعات الذين مارسوا وظيفتهم مدة عهدة.

7- الأهالي الجزائريون الفرنسيون، باشغوات وآغوات وقياد قد مارسوا وظائفهم مدة ثلاث سنين على الأقل.

8- الأهالي الجزائريون الفرنسيون (المرشحون) برتبة قائد من الصف الوطني في جوقة الشرف أو معينون في هذه الرتبة بصفة عسكرية.

9- العمال الأهالي الحاصلون على وسام العمل وأمناء نقابات العمال المشكلون بصفة نظامية بعد عشر سنوات من ممارسة وظيفتهم.

المادة الثانية : 200 تاجر أو صناعي أو حرفي معينون من طرف مجلس الإدارة للناحية الاقتصادية الجزائرية و200 فلاح معينون من طرف الغرف الفلاحية الجزائرية الثلاثة.

لماذا يناهض حزب الشعب الجزائري مشروع فيوليت ؟

"إخواني

دعوني أخبركم لماذا يناهض حزب الشعب الجزائري مشروع فيوليت الرامي إلى منح حقوق المواطنين الفرنسيين إلى 25000 من الأهالي الجزائريين. هناك ظلم صارخ : 7 ملايين من البؤساء يستحقون الانتباه أكثر من 25000 رجل هم بعد مفضلون الآن وليسوا في حاجة إلى شيء ولا يستحقون أيّ شفقة. أتعرفون أن القياد والآغوات والمستشارين العامين والبلديين والممثلين الماليين والملاكين الكبار والتجار الكبار والطلبة والأطباء والمحامين، أتعرفون لماذا تستحق إحدى هذه الأنواع العناية من طرف الحكومة بينما أغلبية الشعب الجزائري تموت جوعا في أكواخها البئيسة؟ نعطي المزايا لمن ليسوا في الحاجة وهم مستعدون لبيع إخوانهم في الجنس من أجل مزايا بئيسة؟

إخواني الأعزاء ! إن الشعب الجزائري لا يريد مشروع فيوليت لأنه سيتوصل إلى إنشاء انقسامات بيننا ولأن هذا المشروع يحمل بؤسا أكثر بانقسام نخبتنا التي، عندما تصير فرنسية بالكامل، حينئذ تمحقنا باحتقارها أكثر مما يفعل ذلك المهيمنون علينا الآن. فمنذ 107 سنوات لم يستطع مضطهدوا بلادنا أن يجعلوا الجزائريين يتخلون عن الإسلام. لقد استعملوا التهديد، واستعملوا القوة واستعملوا الحيلة واستعلوا المخادعة ولم ينجح لهم أي سلاح من كل هذا إلى اليوم، فوجدوا وسيلة

لإرضائهم : ربط النخبة الجزائرية كلما تكونت بالمزايا وورقة الانتخاب. ولكن وليعلموا أن هذه الوسيلة تفشل لأن الشعب الجزائري لا ينخدع بمثل هذه السهولة. ليعلموا أنه إذا كان منتخبونا مستعدين لبيع أنفسهم، فإن الشعب الجزائري لن يبيع نفسه وسيبقى مسلما. أما الشعب الجزائري فإنه يتفطن إلى أنهم كانوا يخدعونه وقد بدأ في لفظهم.

إن النجاح الصاعق لحزب الشعب الجزائري والانتخابات الحديثة في المجلس العام تبين ذلك بوضوح. لسنا فرنسيين، نحن شعب استولى علينا الفرنسيون فالأشياء مختلفة.

لقد احتلت فرنسا الجزائر لإحلال السلم بها حسبما يظهر، ولتمدينها ومساعدتها على النهوض معنويا وماديا. عليها أن تربينا في إطارنا الخاص. وأن تقوم بالدور الذي كلفها به فرنسيو 1789-1848 و1870. عندما يرتفع هذا الشعب إلى درجة الأمم المنعتقة، سيعرف كيف يختار طريقه بنفسه.

فحزب الشعب الجزائري وحده هو الذي نهض ضد أي سياسة إدماجية. هو وحده الذي صرّح بأنه يريد سياسة انعتاق حقيقية وهي وحدها الممكنة في الجزائر وفي شمال إفريقيا.

إن حزب الشعب الجزائري مع مصالي على رأسه سيهزم كل الإدماجيين...مع مصالي وعلال الفاسي وبورقيبة ستنتصر الوطنية في إفريقيا الشمالية على الامبريالية الجشعة".

فليتة أحمد، العمل التونسي، 11 ديسمبر 1937.

جدال حول تصريح فرحات عباس

"فرنسا هي أنا" (لانتانت 23 فبراير 1936)

"فرنسا هي أنا : إذا اكتشفت الأمة الجزائرية، سأكون وطنيا. ومع هذا لن أموت من أجل الوطن الجزائري لأن هذا الوطن لا يوجد. لم أكتشفه. لقد سألت التاريخ، سألت الأحياء والأموات وزرت المقابر : لم يحدثني عنه أحد بدون شك وجدت الإمبراطورية العربية والإمبراطورية الإسلامية اللذين يشرفان الإسلام وجنسنا. ولكن هاتين الإمبراطوريتين قد انطفأتا. فهما يشبهان الإمبراطورية اللاتينية والإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة في فترة القرون الوسطى، لقد ولدوا لفترة ولبشرية لم يعد لها وجود عندنا... لقد أزحنا مرّة واحدة كل الضباب والأحلام لنربط مستقبلنا بصفة نهائية مع مستقبل العمل الفرنسي في هذا البلد. لقد كتبنا هذا. فالمحافظة على هذا العمل هي محور نشاطنا السياسي.

نقد الوطنيين (الأمة مارس/أفريل 1936)

تساءلت الأمة كيف يستطيع عربي أن يكتب مثل هذه الفواحش وبدأ يبرهن على وجود الروح العربية والأمّة الجزائرية. فطرحت الجريدة بوضوح المسألة الوطنية وهي مطلب لملايين الجزائريين قبل أن تكون مسألة تاريخ : ماذا يصير عبد القادر والاعتراف له بالسيادة في معاهدة التافنة ؟

ما هو معنى مقابر بلاد القبائل في 1871؟ والعديد من الانتفاضات الأخرى ؟ إن تصورنا الوطني واضح وحتّى لو افترضنا أنه غير مقبول، يعني أنه لم يوجد وطن جزائري فهل لا يكون في مقدور 5 ملايين من الرجال أن يحدثوه؟"

نقد الدفاع (قريب من العلماء 20 مارس 1936)

"فرنسا ليست أنت، إنك رعية بسيطة خاضعة لأوامر الاستعمار ولصرامة قوانين الاستثناء وتتألم من بشاعة البلدية المختلطة ومن الحرمان من الحقوق الطبيعية ولكن ورغم كل هذا فأنت خاضع لكل الواجبات بما في ذلك أن تدفع نفسك للموت وأنت مجهول أو تكاد من طرف المجتمع الفرنسي، وأنت مجروح في كرامتك وفي عقيدتك الدينية. في الوقت الحاضر يا عباس ومهما كان الألم الذي أشعر به فإنني أقرّ أنني لست سوى رعية بسيطة لأنني أنادَى كذلك وأعامَل رسميا على ذلك الأساس."

النقد الشهير لابن باديس (الشهاب أفريل 1936)

"..إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ وفتشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمّة الجزائرية المسلمة متكونة وموجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا. ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ولها وحدتها الدينية واللغوية ولها ثقافتها الخاصّة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمّة في الدنيا. ثم إنّ هذه الأمّة الجزائرية الإسلامية ليست هي

فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت...الإندماج ولها وطن محدود معين... بحدوده الحالية المعروفة...

إن هذه الأمة الجزائرية المسلمة ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ذلك بل هي أمّة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها... ثم إن هذا الوطن الإسلامي صديق لفرنسا مخلص وإخلاصه إخلاص قلبي لا إخلاص ظاهري. يخلص لها إخلاص الصديق لصديقه لا إخلاص التابع لمتبوعه فهو في حالة السلام والأمن يطلب من فرنسا أن تحترم دينه ولغته..."

ميثاق مطالب الشعب الجزائري التي صوّت عليها المؤتمر الإسلامي

هذا الكراس مؤسس على توثيق واسع أي توثيق مستنبط من مصادر جادة وهو مدروس وتم تبنيه في أجزائه من طرف الشرائح الأكثر عمقا من السكان، فهذا الكراس هو من الآن فصاعدا ميثاق مطالب الشعب الجزائري المسلم.

المؤتمر يتبنى :

1- إلغاء كل القوانين الاستثنائية.

2- الارتباط الكامل بفرنسا مع إلغاء الدواليب الخاصة : التمثيل المالي والبلديات المختلطة والحكومة العامّة.

3- الإبقاء على القانون الشخصي/ مع إلغاء الإدارة القضائية الإسلامية في اتجاه عقلاني يتماشى مع روح الشرع الإسلامي (تقنين هذا الشرع).

عزل الكنيسة عن الدولة : تطبيق كل القوانين الخاصّة بهذا المبدإ الإرجاع الفوري لكل المباني الدينية للساكنة المسلمة التي يمكنها أن تتمتع بها وتستعملها بواسطة هيئة الشعائر الدينية المتكونة بصفة نظامية.

صيانة المباني الدينية ومن يخدمها من مداخيل أملاك الأوقاف.

إلغاء كل إجراءات الاستثناء المتعلقة باللغة العربية والتي ترمي إلى ترتيبها على أنها لغة أجنبية.

حرية تعليم اللغة العربية وحرية التعبير للصحافة العربية.

4 - مطلب ذو طابع اجتماعي : التعليم الإجباري بالنسبة لكل الأطفال من الجنسين ؛ البدء الفوري في ورشة لبرنامج واسع للبناءات المدرسية وللإسعاف : مستشفيات ومستوصفات تمريض وممرضات زائرات (إعادة تنظيم النظام الحالي)، مدفآت اقتصادية.

إنشاء صناديق بطالة لكل البطالين.

إدماج التعليمين : الأوربي والأهلي وتنمية الخدمات المدرسية.

5- مطالب ذات طابع اقتصادي :

1/ لعمل مساو أجرة مساوية.

2/ لاستحقاق مساو رتبة مساوية

3/ توزيع المساعدة التي تقدمها الميزانية الجزائرية لـ : الفلاحة والتجارة والصناعة والصناعة التقليدية، بصفة متناسبة مع الحاجات وبدون تمييز عرقي.

4/ إنشاء تعاونيات فلاحية ومراكز لتربية الفلاح.

5/ إيقاف المصادرات.

6/ توزيع الأراضي غير المستغلة بين الفلاحين وعمّال الفلاحة.

7/ إلغاء القانون الغابي.

6 - مطلب ذو طابع سياسي : الإعفاء عن كل الجنح السياسية ؛ هيئة انتخابية موحّدة لكل الانتخابات ؛ قابلية الانتخاب لكل الناخبين، الاقتراع العام والتمثيل في البرلمان.

الفصل السادس عشر

الحرب العالمية الثانية 1939-1945

لقد تعرضت الجزائر للصدمات المعاكسة للتقلبات الناتجة عن الحرب العالمية الثانية. لقد عرفت صعوبات في النقل وشعرت بهبة الحروب التحريرية للبلدان المحتلة من طرف الألمان. وأنجز الجزائريون وحدة وطنية حول البيان للمطالبة بالإصلاحات في إطار الوطن الجزائري ولكن آمالهم تحطمت مع مجازر مايو 1945.

السياق الاقتصادي والسياسي

إذا كانت محاصيل سنة 1939 ممتازة (24 مليون قنطار) فإنها كانت غير كافية في السنوات اللاّحقة ويمكن أن نقول إنها كانت كارثية في سنة 1945 (5 ملايين قنطار) إلى درجة أن الخبز صار مقنن التوزيع وبرزت المجاعة في بعض الدواوير. وقد قنن كذلك توزيع مواد أخرى وخاصّة السكر والقهوة والزيت. وقد تضررت الشرائح الفقيرة : الفلاحون والعمال والبطالون من غلاء المعيشة والسوق السوداء. وانجر عن نقص اليد العاملة توقف العديد من مشاريع تهيئة المساحات القابلة للرّي. كما تضررت الفلاحة من نقص الأدوات : نقص سكك المحاريث وكذلك قطع الغيار. كانت الصناعة ناقصة النمو في 1939 (70.000

عامل بما في ذلك عمال المناجم). تم التخلي عن مشاريع بناء معامل. وهكذا فإن الحرب قد ضاعفت خطورة الوضعية الاقتصادية للجزائريين لاسيما في الأرياف وإنما أيضا في المدن.

ما هو موقف الجزائريين أمام التجنيد؟ لقد تم التجنيد دون أن يكون هناك أحداث كبيرة. لقد تجند زعماء المنتخبين مثل فرحات عباس والدكتور بن جلول وقادة إدارة الأهالي في الجيش الفرنسي. فالأوائل قبلوا بالمحاربة مع فرنسا ولكن بالمطالبة بالإصلاحات. ولكن السواد الأعظم من الجزائريين كان لا يشعر باهتمامه بالنزاع. فذكرت تقارير الشرطة العديد من التحفظات وسوء الحالة الذهنية للجنود المجازين الذين يرجعون إلى الجزائر. ورفض مناضلون وطنيون التجند. وكانت الإدارة مستعدة إلى قمع أية معارضة سياسية. فتم إيقاف مصالي الحاج و26 من أصدقائه قادة حزب الشعب الجزائري وحكم عليهم مرّة أخرى في مارس 1940 بـ 123 سنة من الأشغال الشاقة و114 سنة من السجن و560 سنة من منع الإقامة (النفي). ومس القمع أيضا الحزب الشيوعي الذي مات أمينه قدور بلقايم في محتشد جنين رزق، والعلماء الذين وضع رئيسهم الجديد البشير الإبراهيمي في الإقامة المحروسة في آفلو.

أعاد حزب الشعب الجزائري تنظيمه في السرية. فأنشأ شبان خلايا في المؤسسات التعليمية وفي الثكنات. وفكرت عناصر نشيطة من لجنة العمل الثوري لشمال إفريقيا (CARNA) في ثورة مسلحة. وبعثت حملة من الكتابات الجدارية في مارس

1941. وفي فرنسا استعمل مناضلون وطنيون الجبهة الاجتماعية للعمل كغطاء لإنشاء إتحاد عمال شمال إفريقيا، ونشر شعارات حزب الشعب الجزائري وإعادة بنائه.

البيان

لقد سمح الإنزال الأمريكي في شمال إفريقيا، في نوفمبر 1942، بزيادة أنشطة الوطنيين. فتصريحات روزفيلت لصالح الشعوب المستعمرة وميثاق الأطلنطي الذي يتحدث عن حرية ممارسة الحكومة من طرف الشعوب التي منعت من ذلك بالقوة، كان لها أصداء إيجابية في الأوساط الوطنية.

اتصل جزائريون ومن بينهم فرحات عباس والدكتور سعدان وعسلة حسين بدبلوماسيين أمريكيين. وبعث شبان وطنيون خلايا في مدينة الجزائر ووهران وقسنطينة وتبسّة والمدية...، وكان الحديث يدور حول النظام". فانطلاقا من هذه الخلايا ولجان مساعدة المساجين الوطنيين. تكوّن حزب الشعب الجزائري الجديد. وفي هذا السياق بالذات قام فرحات عباس بمبادرة توجيه رسالة، في 20 ديسمبر 1942، إلى السلطات المسؤولة، يعني الحلفاء. كانت هذه الرسالة تطلب استدعاء ندوة للمنتخبين والممثلين المؤهلين للمنظمات الإسلامية قصْدَ ضبط الإصلاحات الضرورية، وهو شرط مسبق لمشاركة الجزائريين في المجهود الحربي. ورفضت هذه الرسالة من الإدارة الفرنسية التي لم تقبل تحكيم الحلفاء في المشكل الجزائري. وحينئذ وجه

عباس يوم 22 ديسمبر رسالة مماثلة للأولى ولكن في هذه المرة إلى السلطات الفرنسية. فبالاعتماد على دعم حزب الشعب الجزائري والعلماء، حرر عندئذ عباس البيان بتاريخ 12 فبراير 1943.

كان البيان عملا ظرفيا باعتبار حالة الحرب والتحالف بين المنتخبين المعتدلين والعلماء والوطنيين من حزب الشعب الجزائري.

يذكر البيان بتاريخ الجزائر ويبين فشل سياسة الإندماج ويقترح الوطنية والمواطنة كحل منطقي للمشكل الجزائري.

ومن ناحية أخرى فإنه يندّد بالاستعمار ويطالب بتطبيق حق الشعوب في تقرير مصيرها، ودستور جزائري ومنح الحريات الأساسية. بعدما وافق أغلبية المنتخبين الجزائريين على البيان، فقد تم ضبطه بملحق تم التصويت عليه من طرف الممثلين الماليين الجزائريين بتاريخ 26 مايو 1943 : سلامة التراب الجزائري واستقلالية سياسية للجزائر وأمّة ذات سيادة ودولة لها دستور تنجزه جمعية تأسيسية منتخبة بالاقتراع العام في نهاية الحرب. ويقترح على الفور، مساهمة الجزائر في الحكومة والإدارة والمساواة في المجالس المحلية بين الفرنسيين والجزائريين.

تم رفض البيان من طرف السلطات الفرنسية في مايو 1943. وصرّح دي غول وهو من أنصار السيادة الفرنسية على كل أجزاء الإمبراطورية في 12 ديسبر 1943 في قسنطينة منح إصلاحات

تجسدها أمرية 7 مارس 1944. وتمنح هذه الأمرية إلى المسلمين كل حقوق وواجبات الفرنسيين الأصليين وموسعا تمثيلهم في المجالس المحلية إلى الخمسين ويصبح اللامواطنون ناخبين ويمنح المواطنة لـ 65.285 جزائريا. كان هذا عودة إلى مشروع بلوم/فيوليت مع 7 سنوات من التأخر. وكانت هذه جوابا رسميا من السلطات الفرنسية على البيان وهي مدعومة من مجموع أحزاب المقاومة التي اتخذت موقفا مناهضا لأيّ شكل من الوطنية الجزائرية. فإن فرحات عباس، وعيا بموافقة الجماهير الشعبية ومتأكدا من دعم مصالي وبراهيمي أنشأ حينئذ تجمع "أصدقاء البيان والحرية".

أصدقاء البيان والحرية (AML)

تم إيداع القانون الأساسي لأصدقاء البيان والحرية بتاريخ 14 أفريل 1944. واستوحى برنامجه من بيان 10 فبراير 1943 وهذا يعني خاصّة الوقوف في وجه العنف الامبريالي في إفريقيا وآسيا، والعمل من أجل فكرة أمّة جزائرية ودستور لجمهورية مستقلة ومرتبطة بجمهورية فرنسية مجدّدة ومناهضة للاستعمار والامبريالية. كان هذا البرنامج نتيجة لتفاهم بين أنصار الاستقلال والعناصر المعتدلة القابلة لفكرة وطن جزائري.

لقد جمع أصدقاء البيان والحرية التيارات الثلاثة الرئيسية للشعب الجزائري : المنتخبون والعلماء ووطنيو حزب الشعب الجزائري الذين كانوا يشعرون كلهم بضرورة الوحدة وبضرورة

صورة لفرحات عباس



الاعتماد على الشعب قبل كل شيء. فوفر المنتخبون إطارات لفروع أصدقاء البيان والحرية وأعطى العلماء العقيدة وأعطاها حزب الشعب الجزائري الحركية الثورية لمناضليه. وتبرز العديد من الإشارات شهرة حزب الشعب الجزائر: كتابات بالقطران والفراشات على جدران المدن، وحملات مقاطعة وجريدة سرية "لاكسيون آلجيريان" وإعادة تكوين إتحادية الحزب... فحزب الشعب كان يعتمد على فروع أصدقاء البيان والحرية حيث أن الأغلبية من أعضائها كانت مكونة من مناضلين وطنيين وعلماء لتحسيس الجماهير الشعبية. وفي مارس 1945، كان لأصدقاء البيان والحرية 163 فرعًا والآلاف من المناضلين.

لقد حاربت الإدارة والأحزاب السياسية الفرنسية أصدقاء البيان والحريات. وكانت السلطات الفرنسية عاجزة على وجود حل سياسي. وفكر الحاكم العام الاشتراكي شاتينيو أن يفرق المعتدلين عن حزب الشعب الجزائري الذي اعتبر غير قابل للكسر ولكنه لم ينجح في ذلك لأنه منح بعض الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التي عارضها المعمرون. وتعرض أصدقاء البيان والحرية معارضة الأحزاب السياسية الفرنسية بما ف ذلك معارضة الشيوعيين الذين انتقدوا القادة الوطنيين وعيروهم بأشباه الوطنيين لأنهم ينادون باستقلال مستحيل.

فرغم كل الصعوبات التي تعرضت لأصدقاء البيان والحرية فإنَّهُمْ استطاعوا أن يجمعوا 500.000 مشترك. وأخذ حزب الشعب الجزائري مكانة تضاعفت أهميتها في تنظيم أصدقاء البيان والحرية. وفي مؤتمر مارس 1945، قد فرض تبني

شعاراته : "جنسية جزائرية" و"جمعية تأسيسية جزائرية ديمقراطية جمهورية" و"برلمان وحكومة جزائريتان" و"ألوان وطنية" و"مصالي الحاج قائد وطني".... إن هذا التصلب يفسّر الجو الانتفاضي الذي سبق نهاية الحرب.

مظاهرات 8 مايو 1945

نظم حزب الشعب الجزائري بمناسبة فاتح مايو 1945، استعراضات في المدن الرئيسية قصد المطالبة بتحرير مصالي وليظهروا للحلفاء وجود وإمكانيات حركة وطنية قادرة على تأطير الجماهير الشعبية. فالعديد من قادة حزب الشعب الجزائري المعروفين تم إيقافهم. ونَدد المعمرون والاتحادية العامة للعمال (C.G.T) والاشتراكيون والشيوعيون بشدّة بالوطنيين.

قرّر حزب الشعب الجزائري، بعدما شجعه نجاح الفاتح مايو، تنظيم مظاهرة كبرى بمناسبة عيد النصر وذلك برفع الألوان الوطنية واللاّفتات المكتوب عليها : "من أجل انعتاق الشعوب" و"حرروا مصالي" و"تحيا الجزائر حرّة مستقلة" و"تسقط الامبريالية". وكان على المظاهرات أن تكون سلمية. ففي المدن الرئيسية شارك الآلاف من الجزائريين في الاستعراضات. ففي المراكز التي سمحت فيها السلطات باندراج المظاهرات، بقيت الاستعراضات سلمية مثل البليدة والبرواقية وسيدي بلعباس. وفي المدن التي تدخلت فيها الشرطة كان هناك طلقات نارية

ومجروحين. ولكن في سطيف حيث قامت الشرطة بالاستفزازات وهذا ما حمل الجماهير الشعبية، وعلى وجه الخصوص الريفية على المقاومة والانتقام لأمواتها.

وكانت أحداث سطيف وقالمة إشارة للجهاد. فتشكلت مجموعات من الفلاحين وهاجموا قرى الاستعمار الاستيطاني. لم تكن ثورات جوع ولكن ثورات لها صفة الانشقاق تعلن عن انتفاضة شاملة. طلب ممثلو حزب الشعب الجزائري، الذين كانوا يجوبون المنطقة وبعد أن لاحظوا الحماس الشعبي، من القيادة المركزية لحزبهم اتخاذ إجراءات لمساعدة المنتفضين في الناحية القسنطينية. فأعطت القيادة الأمر بالانتفاضة العامّة وحددت اليوم المعلوم في ليلة 23 إلى 24 مايو. ولكن أمام ضخامة القمع وخضوع بعض القبائل تحتم على القيادة أن تعطي أمرا منافيا لتفادي مجزرة السكان. هذان القراران لم يفهمهما العديد من المناضلين بصفة جيدة. فالأمر المنافي لم يلحق بعض النواحي : بلاد القبائل وناحية سعيدة حيث واصلت بعض المجموعات المقاومة.

وفي المدن تعرض الجزائريون قبل كل شيء إلى قمع الشرطة والدرك. وقد تمت إعانة هذه القوات القمعية مليشيات مشكلة من الفرنسيين ومكلفة بحراسة النقاط الحساسة والتي قامت بإعدامات بدون محاكمة. وتدخل الجيش في المدن وقام بالحرب بكيفيات مختلفة ضدّ المشاتي فقام الطيران بقنبلة العديد من المنازل وقامت البحرية بقنبلة ناحية خراطة. وتحتم على آلاف الفلاحين الحضور إلى احتفالات مهينة نظمها

العساكر للاحتفاء بانتصاراتهم. تحدث العساكر عن 6000 إلى 8000 ميت من المسلمين وضبط المناضلون هذا العدد بـ 45.000. ومن بين الـ 5.560 جزائري الموقوفين، حكمت المحاكم العسكرية على 1319 شخصا (99 حكما بالإعدام، 64 حكما بالأشغال الشاقة مدى الحياة و329 حكما بالأشغال الشاقة لمدة معينة و250 تبرئة و577 من غير حكم).

كانت لانتفاضات مايو 1945 عواقب هامّة. فأوقف دي غول لجنة التحقيق المعينة من طرف الحكومة العامّة لأنه كان يريد أن يجعل الحلفاء يعتقدون أن ما جرى هو عمل بعض المشاغبين الذين لم يعجبهم هزيمة الألمان وليست حركة وطنية. فطالب المنتخبون الأوربيون بإيقافات وعقوبات أكثر مما وقع. وانتهز الشيوعيون الفرصة لإدانة وطنيي حزب الشعب الجزائري وأصدقاء البيان والحرية. ولكن عندما لاحظوا فيما بعد تأثير الوطنيين، فإنهم اتخذوا في أغسطس 1945 خطّة جديدة ؛ فأدانوا القادة الوطنيين ونددوا بالمؤامرة الفاشية للمعمرين وبعثوا حملة للعفو. ولكن أخطر خلاصة تمثلت في تفكك الوحدة المنجزة مع أصدقاء البيان والحرية : اعتبر فرحات عباس وأصدقاؤه أنهم قاموا بتحالف خطير مع حزب الشعب الجزائري وبعثوا حزبا جديدا : الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (UDMA) لتفادي تسرب عناصر حزب الشعب الجزائري (PPA). وعندما لم يستطع هذا الأخير أن يغير رأي عباس فإنه اكتفى بالعمل وحده. وبما أنه لم يستطع أن يصير من جديد حزبا قانونيا فإنه أعاد تنظيمه بصفة سرية وتسرب

في الكثير من المدرسات ومجموعات الكشافة والجمعيات الرياضية وأنشأ خلايا جديدة. فاستخلص المسؤولون النتيجة التالية : بالإضافة إلى المطالبة بالاستقلال، كان لابد من البحث على الطريق الذي ينبغي اتباعه وضرورة الالتجاء إلى حركة سرية قصد بداية العمل المسلح.

نصـــــوص

نظرة عامة عن سياسة استعمارية ترمي إلى تدجين العائلات الكبيرة والمرابطين

هناك مبدأ بدأ يفرض نفسه : "عدم ترك أي تفوق عقلي أو اجتماعي يظهر دون أن يتم امتصاصه أو إبطال تأثيره فورا بحيث لن تستطيع أية قوة حقيقية الدخول في المعارضة.

العائلات الكبيرة

إنها قانون دائم للسياسة الإسلامية : استعمال رجل يعني استنفاده. ذلك هو مصير القادة الكبار والعائلات الكبيرة ذلك الإقطاع شبه العسكري، شبه المرابطي الذي يخدمنا منذ عهد بيوجو. فأغلبهم سار إلى التدهور وخاصّة الذين كانوا مشهورين. والبعض الآخر مازال قائما وخاصّة نبلاء الأرياف البسطاء حيث مازالت القيادة فيهم تكاد تكون وراثية والذين دون أن يظهروا انتماءهم لنا بوضوح استطاعوا تحديد نشاطهم بمحيطهم الريفي. لا يمكن الكلام عن استرجاع أرسطوقراطية اندثر ت إذ يشكل ذلك خطأ فادحًا ليس علينا أن نربط مصيرنا بطبقة اجتماعية تفككت وصارت شيئا قديما في جزائر 1941. خاصّة أنه قد تشكل وقد شكلنا في مستوى الجماهير أسطورة من الأحقاد والبغض والذكريات الأليمة تجاه القادة الكبار.

ولكن عندما تكون هذه القوة موجودة، يعني قوة العائلات الكبيرة، يجب أن تبقى وتنمي إن أمكن ذلك. ينبغي استعمالهم

وترسيخ الشعور لديهم أننا مازلنا نحفظ في ذاكرتنا خدماتهم ودون أن نتركهم رغم ذلك يعتقدون أنهم يستطيعون فعل كل ما يريدون وأن الثورة الوطنية هي عودة بكل بساطة إلى نظام 1860.

ينبغي تعيين قايد من أبناء خيمة كبيرة إذا كانت هذه الخيمة مازالت محتفظة بنفوذها ؛ ولكن أن نفضل عليه ضابطًا قديما أو مالكا ريفيا عندما لم يبق للشريف إلاّ لقب أصله إلى جانب المساوي الخطيرة. لأن توظيف القياد الذين يستلهمون في أغلب الأوقات من الذكريات التاريخية، ينبغي توسيعه وتقويته. وقد يكون من الجدوى بمكان أن يستقي أكثر فأكثر من البرجوازية الريفية التي هي مدينة لنا بأمنها وبعقودها العقارية والتي لها فائدة حيوية في هيمنتنا".

المرابطون

في المرابطية قوة روحية يجب أن نستعملها بكثير من الحذر حتى لا نورطه ونستنفده فالمرابط بالنسبة لأتباعه يشكل رمزا للمعارضة وفي نفس الوقت راية دينية. ويفقد نفوذه كلما أكثر تردده علينا. فلا فائدة لنا في أن ندخله في السياسة (السياسة الموالية) وأن ندخله - كما حاولنا ذلك مع الأسف - في معارك يشتم منها رائحة إلهامنا. ونلاحظ أن المرابطين الذين بقوا سالمين (مثل بن تكوك وحملاوي) هم بالضبط الذين مكثوا بعيدين.

وعليه نلاحظ أن المرابطية الجزائرية مخلصة لنا في الجملة وعلينا أن ندعمها خفية (مزايا لطيفة، تعيين قياد لأغلب المرابطين يطلبون قيادات لروادهم)، وذلك دون أن نربط نشاطنا بصفة وثيقة مع نشاطهم ولامع أي نشاط آخر. علينا أن نستقطب كل الأشكال ولا يجب أن تستوعبنا أي واحدة. لا يمكننا أن نلصق مصيرنا بأحد الأحزاب التي تتنازل في الحلبة السياسية : إنهم لا يمثلون إلاّ مجموعات مؤقتة في تغيّر مستمر وربما لا يبقى منها أحد في جزائر الغد.

مدير الشؤون الإسلامية، أوغست بارك، 42، أرشيف آكس.

أمرية 7 مارس 1944

جسدت أمرية 7 مارس 1944 الإجراءات الجديدة التي تم تبنيها بالنسبة للجزائر. كان محتواها هاما فقد كانت تخول للمسلمين كل حقوق وواجبات الفرنسيين الأصليين وتفتح لهم الارتقاء إلى كل الوظائف المدنية والعسكرية وتوسع تمثيلهم في المجالس المحلية إلى الخمسين. ولتطبيق هذه القاعدة الجديدة على النيابات المالية، ألغت أمرية 15 سبتمبر 1945، هذه المؤسسة وعوضت مختلف الفروع بجمعية مالية مكوّنة من نواب اللجان المالية والمجالس العامة للعمالات الثلاث. كل المسلمين غير المواطنين، الذين بلغوا 21 سنة، صاروا من الآن فصاعدا ناخبين الشيء الذي يرفع عددهم إلى 1.500.000 تقريبا، أما المواطنة فإنها كانت مخصصة لستة عشر نوعا من الشخصيات : ضباط

قدماء وحاملوا شهادات (الأهلية على الأقل) وموظفون أو موظفون قدماء، أعضاء الغرف الاقتصادية، قادة من الأهالي (باشغا، وآغا، قايد) متحصلون على بعض العهدات السياسية أو أوسمة، يعني ما بين 85000 إلى 90.000 وبالفعل 65.285

رسالة 22 ديسمبر 1942 والبيان (12 فبراير 1943)

رسالة سلمت في 22 ديسمبر 1942 إلى الحكومة العامّة وإلى ممثلي الحلفاء، الولايات المتحدة وبريطانيا الكبرى :

يوجه الممثلون المسلمون الجزائريون باعتبار الأحداث الخطيرة التي اتخذت بلدهم مسرحا منذ 8 نوفمبر 1942، إلى السلطات الفرنسية الرسالة التالية :

"إن الحرب التي قلبت أوضاع القارات وأدمت فرنسا، حاملة راية الحضارة والثقافة، وصلت اليوم إلى الجزائر.

فإن كانت هذه الحرب كما صرح بذلك رئيس الولايات المتحدة، حرب تحرر الشعوب والأفراد بدون تمييز عرقي أو ديني فإن المسلمين الجزائريين يشتركون بكل قواهم وبكل تضحياتهم في هذه الحرب التحريرية.

إنهم سيضمنون بذلك انعتاقهم السياسي الخاصّ، في إطار فرنسي أساسًا، وفي نفس الوقت تحرير فرنسا الوطن الأم. ولكن ينبغي أن نذكّر بأن السكّان الذين يمثلونهم محرومون من الحقوق والحريات الأساسية التي يتمتع بها السكان الآخرون لهذا

البلد وذلك رغم التضحيات التي قدموها والوعود الشكلية والرسمية التي أعطيت لهم في العديد من المرات.

إن الرأي الإسلامي مضطرب في العمق. إنه يريد الاشتراك في مصير مشترك بكيفية أخرى غير هذه التضحيات. ينبغي حينئذ أن تبرز له، بإنجازات ملموسة وفورية، إرادة فرنسا في الإصلاح الصريح.

إن الممضين أسفله يطلبون لهذا الغرض الاستدعاء المستعجل لندوة تجمع المنتخبين والممثلين المؤهلين لكل المنظمات الإسلامية. ويكون موضوع هذه الندوة إنجاز قانون شخصي سياسي واقتصادي واجتماعي للمسلمين الجزائريين.

وبالفعل فإن القانون الشخصي المبني على العدالة الاجتماعية هو وحده القادر على إعطاء المسلمين في هذا البلد الوعي الكامل بواجباتهم الحالية.

مطالب البيان

إن الشعب الجزائري يعرض بوضوح مطالبة :

أ- إدانة وإلغاء الاستعمار يعني إلحاق الشعب الجزائري واستغلاله من طرف شعب آخر. إن هذا الاستعمار ليس إلا شكلا جماعيا من أشكال الاستعباد الفردي في القرون الوسطى. وهو بالتالي أحد الأسباب الرئيسية للنزاعات واشتعال الحروب بين الدول العظمى.

ب- التطبيق بالنسبة لكل البلدان، صغيرة كانت أو كبيرة حق الشعوب في تقرير مصيرها.

جـ- تزويد الجزائر بدستور خاص يضمن :

1) الحرية والمساواة المطلقتين بالنسبة لكل سكانها بدون تمييز جنسي أو ديني،

2) إلغاء الملكية الإقطاعية بإصلاح فلاحي كبير والحق في الرفاهية لأغلبية العمال الفلاحين.

3) الاعتراف بأن اللغة العربية على أنها اللغة الرسمية مثل اللغة الفرنسية.

4) التعليم المجاني والإجباري لكل الأطفال من الجنسين.

5) حرية العبادة بالنسبة لكل السكان وتطبيق مبدأ عزل الكنيسة عن الدولة بالنسبة لكل الأديان.

د- المشاركة الفورية والفعلية للمسلمين الجزائريين؛ في حكومة بلادهم كما فعلت ذلك حكومة جلالته البريطانية والجنرال كاترو في سوريا، المارشال بيتان والألمان في تونس. إن هذه الحكومة وحدها قادرة على تحقيق مشاركة الشعب في الكفاح المشترك وفي جو من الوحدة المعنوية الكاملة.

هـ- الإفراج عن كل المحكوم عليهم والمساجين السياسيين مهما كان الحزب الذي ينتمون إليه.

تصلب أصدقاء البيان والحرية في مؤتمر مارس 1945

خلال هذا المؤتمر أعطى حزب الشعب الجزائري الغلبة لمبادئه :

1 - الاعتراف بالجنسية الجزائرية.

2 - وضع دستور جزائري ديمقراطي وجمهوري.

3 - تعويض الجمعيات الجزائرية ببرلمان منتخب.

4 - تعويض الحكومة العامة بحكومة جزائرية

5 - الاعتراف بالألوان الجزائرية.

م. قداش، تاريخ الوطنية الجزائرية، ص 692.

ضحايا مايو 1945

يصعب تحديد عدد الضحايا. فتقرير توبير يلح على الخسائر الأوربية ولا يحدد خسائر المسلمين. ولم تستطع اللجنة القيام بتحقيقها بصفة كاملة في هذا الموضوع. لم تتحدث إلاّ عن 30 أو 40 شخصا سقطوا في سطيف تحت رصاص الشرطة والدرك. وذكر تصريح الجنرال دوفال : 500 إلى 600 أهلي تم قتلهم من طرف الجيش. ولم تذهب اللجنة إلى قالمة ولم تستطع إلا ذكر التأثر العامّ في الأوساط الإسلامية التي تَدّعي أن الأوربيين في قالمة قد مارسوا قمعا دمويا وانتقامات شخصية بإيقاف وإعدام 500 أو 700 شاب أهلي بدون تبصر في حين أن المعارك قد توقفت. وتحدثت الحكومة الفرنسية عن 1500 ميت مسلم

وتحدث المناضلون عن 6000 إلى 8000، وقالت الأوساط الأمريكية عن 35000 إلى 80.000. وتكلم المناضلون الجزائريون عن 45000 ضحية. وكانت التوقيفات كثيرة.

لقد تم تعداد 5560 في نوفمبر 1945 ومنهم 3.696 في ناحية قسنطينة و1359 في ناحية مدينة الجزائر و505 في الناحية الوهرانية. واعترف وزير الداخلية بالتوقيف القانوني لما يقرب من ألف شخص. وصرحت المحاكم العسكرية بـ1319 حكما منها 99 إعداما و64 حكما بالأشغال الشاقة المؤبدة و329 حكما بالأشغال العامّة لمدد (معينة) و250 تبرئة و577 من غير حكم. وفي سنة 1946، أثناء مناقشة في الجمعية العامة الاستشارية تم الحديث تقريبا على نفس المعطيات. فدفع الجزائريون ثمنًا باهضًا".

م.قداش، تاريخ الوطنية الجزائرية، ص.718.

الفصل السابع عشر

الحياة السياسية 1946-1951

فالوضع القانوني الممنوح في 1947 إلى الجزائر من طرف البرلمان الفرنسي رغم تحفظات النواب الجزائريين يكرس فشل سياسة الحوار التي بدأت في باريس مع فرنسا. فتم تعطيل تطبيقه من طرف الإدارة الجزائرية والممثلين الأوربيين : صار الغش في الانتخاب علمًا سياسيا نايجلانيا حقيقيا، وقمعًا وحشيًا متعدد الأشكال ورفض كل مقترحات الممثلين الجزائريين. وكانت الحياة السياسية الجزائرية في المستوى القانوني تحت هيمنة حزب الشعب الجزائري - والحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية وهو أول حزب سياسي يمثل الجماهير الشعبية الجزائرية وعلى المستوى السري. بالمنظمة الخاصة (O.S) المكلفة بتحضير النشاط المسلح والحصيلة في سنة 1951 مظلمة : الحياة السياسية متوقفة من جرّاء القمع ولم تقع الوحدة بين الأحزاب وتم اكتشاف المنظمة الخاصّة ما العمل ؟

المنتخبون الجزائريون غير مسموعين في باريس

لأول مرة استطاع الناخبون الجزائريون إرسال ممثلين منتخبين إلى باريس. ومع هذا فإن نوابهم لم يستطيعوا تحقيق مطالبهم.

وفي التشريعيات في أول تأسيسية في أكتوبر 1945، لم يساهم في الانتخابات إلا الشيوعيون والاشتراكيون والمستقلون الإداريون. ومشروع الإدماج المقترح من هؤلاء - مواطنة فرنسية مع بقاء قانون المسلم الخاص وإلغاء الحكومة العامة وإدارة مماثلة لإدارة فرنسا- لم يتم التصديق عليه.

وفي جوان 1946 وخلال الانتخاب على التأسيسية الثانية، رفض الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري الاتحاد مع الشيوعيين الذين حاولوا الاقتراب من الوطنيين واقترحوا برنامجا مشتركا : إدانة الإدماج والاعتراف بالخصوصية الجزائرية وانتخاب جمعية جزائرية بالاقتراع العام مع المساواة بين هيئتي الناخبين. وتمخض عن انتخابات 2 جوان 1946 النتائج التالية : 732.426 امتناعًا عن التصويت و445.174 للاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري و136.149 فقط للاشتراكيين والشيوعيين فكان للاتحاد الديمقراطي 9 نواب من 12. وإن لم يكن هناك غش كان بوسعه أن يكون انتصاره كاملا. لقد بينت هذه الانتخابات تقهقر الشيوعيين (53.396 صوتا في 1946 مقابل 135.357 في 1945). إن هذا الفشل اقتضى منهم القيام بنقد ذاتي جدّي، فكان بيانهم في جويليا 1946 يشكل منعرجا كبيرا في سياستهم : طلب إحداث فوري لجمعية وحكومة جزائريتين مع روابط فدرالية مقبولة بكل حرية مع الشعب الفرنسي. فقد اعترفوا للجزائر بالحق في الانفصال ولكن أضيف بكل حذر : "الحق في الطلاق لا يعني إجبارية الطلاق". شرع الشيوعيون في حملة لصالح الإفراج عن مصالي واقترحوا إنجاز

جبهة وطنية ديمقراطية جزائرية" واسعة. ولكن هذا لم يتوصل إلى إقناع الوطنيين الذين يتذكرون دائما إنتقادات الشيوعيين العنيفة في مايو 1945. إذا كان حزب الشعب الجزائري ينشط دائما في السرية، فإن نواب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري كانوا يقومون بمعركة كبيرة في المجلس الوطني ولكنهم فشلوا في محاولاتهم لقبول فكرة جمهورية جزائرية لها رايتها وحكومتها ومواطنتها الجزائرية وبرلمانها. لم تناقش الجمعية الوضع القانوني للجزائر ورجع نواب الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري إلى مدينة الجزائر بِخُفَّي حُنَيْن.

فحزب الشعب الجزائري بعد أن تقوى بالإفراج عن مصالي ومدى نفوذه، قرر أن يترشح وحده للانتخابات التشريعية في نوفمبر 1946 رغم محاولات الاتحاد المفتوحة من طرف الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري والحزب الشيوعي. كان حزب الشعب الجزائري يريد أن يرشح فكرة الأمة الجزائرية ومبدأ الاستقلال. وتقدمت القوائم الوطنية تحت راية الحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية. ورفضت الإدارة ترشيحات مصالي وخمس مناضلين آخرين. فرغم القمع والغش من طرف السلطات الاستعمارية، تحصلت الحركة من أجل انتصار الحريات والديمقراطية على 5 مقاعد والشيوعيون على مقعدين والباقي (8 نواب) منح للمترشحين الإداريين. وتحصل الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري على 4 مقاعد من 7 في انتخابات مجلس الجمهورية.

ناقشت الجمعية الوطنية مسألة الوضع القانوني للجزائر في أغسطس 1947. ولم يسجل البرلمان الفرنسي لا أطروحة حزب الشعب الجزائري -دستور جزائري ذو سيادة- ولا أطروحة الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري الفدرالية. وانتهز نوّاب الحركة من أجل انتصار الحريات والديمقراطية فرصة المناقشة في الجمعية الوطنية لإقامة محاكمة الاستعمار الفرنسي في الجزائر والتأكيد على أن "الجزائر لا تعترف بالأمر الواقع الذي أحدثه الاحتلال" وأنها "لا تعترف لفرنسا بحقها في إعطائنا وضعا قانونيا مهما كان". وبما أنّ الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ليس ممثلا في الجمعية الوطنية فإنه عرف بمشروعه الفدرالي عن طريق الأوساط السياسية الباريسية وبهذا فإنه طلق بصفة نِهَائية سياسته الإدماجية وهو يطالب باحترام الشخصية الجزائرية ويضمن للجزائر حقها في استقلالية التسيير في إطار الاتحاد الفرنسي. وفي الجزائر ورغم التصويت من طرف المجلس العام لقسنطينة الذي اتبعته بعض البلديات في مدينة الجزائر ووهران وعنابة وسطيف على لائحة ترفض الإدماج وتطلب بوضع قانوني تقدمي، فإن أوساط المعمرين رجعوا إلى معارضتهم الأبدية للإصلاحات لصالح الجزائريين وألحوا على ديمومة السيادة الفرنسية في الجزائر. وكان النجاح لأطروحتهم يوم 20 سبتمبر 1947، مع التصويت في الجمعية الوطنية على الوضع القانوني للجزائر بدون موافقة النواب المسلمين الإثني عشر (12).

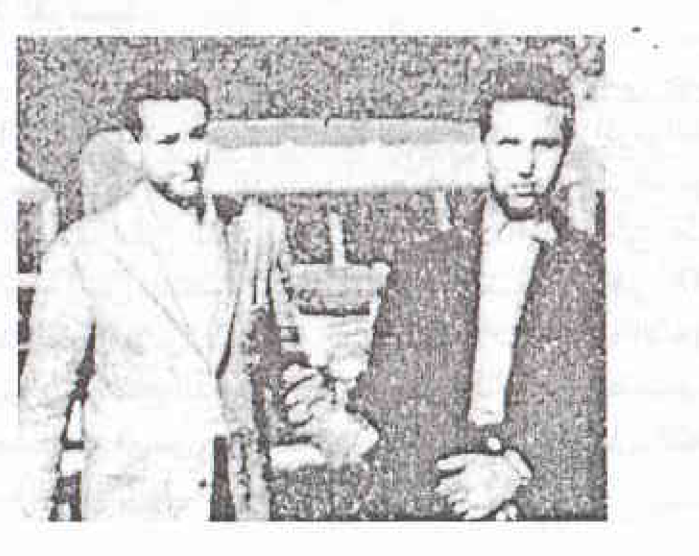
فالوضع القانوني الجديد يعتبر الجزائر مجموعة من العمالات الفرنسية، لها شخصيتها المدنية والاستقلالية المالية وتنظيما خاصّا. وتكلف جمعية جزائرية بالاتفاق مع الحاكم العام بتسيير المصالح الخاصة للجزائر. وفي هذا الوضع القانوني نجد بعض الإجراءات الليبرالية : مساواة بين كل المواطنين الفرنسيين، حق الانتخاب للجزائريين، إستقلالية الشعائر الدينية بالنسبة للإدارة وإلغاء النظام الخاص بأراضي الجنوب والبلديات المختلطة والاعتراف باللغة العربية على أنها إحدى لغات الاتحاد الفرنسي مع الوعد بتنظيم تعليمها في كل المراحل.

وإلى جانب هذه الوعود، بقيت بعض المظالم : التمييز بين المواطنين من الهيئة الأولى والمواطنين في الهيئة الثانية الذين هم أغلبية، وتكوين الجمعية من 60 للهيئة الأولى و60 للهيئة الثانية التي هي ستة إلى سبع مرات أكثر من الهيئة الأولى وهذا غير مقبول، والإبقاء على الحاكم العام المسؤول على أعماله أمام الحكومة الفرنسية.

فبمجرّد التصويت على هذا الوضع القانوني من طرف الجمعية الوطنية تمّ رفضه من طرف الرأي العام الجزائري الشيء الذي كرّس فشل الحوار الذي بدأ مع فرنسا من طرف نواب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري في 1946 ومن طرف الحركة من أجل انتصار الحريات والديمقراطية في 1947 وكرس كذلك إفلاس السياسة البرلمانية. كان على الأحزاب الجزائرية أن تستنتج الدروس من هذه الإخفاقات. وقد يتم هذا على وجه الخصوص من طرف الحركة من اجل انتصار الحريات والديمقراطية.

بلوزداد – آيت أحمد – بن بلـة





حزب الشعب الجزائري /الحركة من أجل انتصار الحريات والديمقراطية يهيمن على الحياة السياسية الجزائرية

عندما لم يأخذ البرلمان الفرنسي في الاعتبار المسألة الوطنية، تبنّى الوطنيون من حزب الشعب الجزائري /الحركة من أجل انتصار الحريات والديمقراطية ابتداء من مؤتمرهم الأول (فبراير 1947 استراتيجية جديدة : وهي العمل العسكري مع المنظمة الخاصة (O.S).

لقد تطلب تنظيم المنظمة الخاصة ستة أشهر بمناضلين غير مشهورين في حزب الشعب الجزائري وتم تجنيدهم من أجل احتمالهم الجسدي وشجاعتهم وتكوينهم الإيديولوجي والعسكري. لقد تم تغيير إدارة المنظّمة الخاصة عدة مرات وقد جمعت المنظمة بين 1000 و1500 رجل بعد أن تمّ تكوينهم العسكري نظريا وعمليا. فالبعض منهم كلف بمهام خطيرة : معارضة الغش في الانتخابات كما وقع ذلك في دشمية مثلا والهجوم على بريد وهران للحصول على الأموال لشراء السلاح....

وتنظمت الحركة من أجل انتصار الحريات والديمقراطية على أساس أن تكون حزبًا سياسيا شرعيا (أول مجلس وطني في سبتمبر 1947). فزود نفسه بلجنة مديرة وضبط هدفه وهو "تأسيسية جزائرية ذات سيادة" وقدرت بأن اتحاد الأحزاب لا يمكن أن ينجز إلا حول برنامجه الشيء الذي لم يقبله العلماء ولا الشيوعيون.

وهكذا قررت الحركة (MTLD) أن تترشح وحدها لانتخابات البلدية في أكتوبر 1947 مقابل مترشحي الاتحاد الديمقراطي (UDMA) والحزب الشيوعي. فاقترحت الحركة (MTLD) على الناخبين أن يختاروا بين النظام الاستعماري ووضعه القانوني للجزائر من جهة وبين الأمّة الجزائرية الموجهة بتأسيسية ذات سيادة من ناحية أخرى... وإن الشعب الذي كان يريد فكرة الأمة قد ضمن الانتصار للحركة، فاستولت الحركة على 110 بلدية ومنها بلديات المدن الكبرى وظهر على أنه الحزب الأقوى. وسجّل الاتحاد (UDMA) هذا الانتصار وذكّر بأنه كذلك يعمل من أجل "جمهورية جزائرية ديمقراطية واجتماعية بحكومتها وبرلمانها وعلمها" ولكنه رفض الاتحاد مع حزب الشعب الجزائري (PPA) والحركة (MTLD) لأن اغلب أعضائهما يعيشون في السرية. وهكذا تم استئناف النزاع بين الحركة (MTLD) والاتحاد (UDMA). وبعد الانتخابات البلدية استنتجت الإدارة خلاصات وهي أن الانتخابات الحرّة لا يمكن أن تكون إلاّ لصالح حزب الشعب/الحركة ومن هنا ضرورة الغش في الانتخابات وهو ما فعلته في انتخابات الجمعية الجزائرية في أفريل 1948. وكان نايجلان الحاكم العام الاشتراكي صانع العديد من عمليات الغش : إيقاف المترشحين الوطنيين (32 على 59) والإكثار من المترشحين الإداريين والتعاليم المرسولة إلى السلطات المحلية وعلى وجه الخصوص القياد ليحملوا الناخبين على الانتخاب الجيّد ومنع اجتماعات الوطنيين وصحافتهم ومكاتب الاقتراع المكونة في الغالب بصفة تعسفية والتي يرأسها في الغالب

فرنسيون وساعات الفتح والغلق غير محترمة والممثلون عن المترشحين لا يرخص لهم بمراقبة اندراج الاقتراع والصناديق في الغالب مملوءة مسبقا بأوراق المترشح الإداري وتصويت الأموات والغائبين وتدخل قوات الأمن للضغط على الناخبين وفرز الأصوات بدون حضور مراقبين...إن اسم نايجلان بقي رمزا للغش الانتخابي الذي استنكرته كل الأحزاب الجزائرية وحتى من طرف بعض الشخصيات الفرنسية. وكانت النتائج على الشكل التالي بالنسبة لغرفة الهيئة الثانية "غير موجودة" : (09) منتخبين من الحركة (MTLD) من بينهم (04) في السجن (عوض 57 مقعدا تم الحصول عليها في الواقع) وثمانية للاتحاد (UDMA). ثم انصبّ قمع وحشي على المناضلين الوطنيين وعلى وجه الخصوص حزب الشعب (PPA) والحركة (660) (MTLD) ملاحقة قضائية ومنها 404 منهم موقوف).

فرض الغش في الانتخابات والقمع على الأحزاب ألا تعتمد إلاّ على تنظيمها وحركيتها. وظهر حزب الشعب/الحركة على أنه الحزب الجزائري الأول والأكبر. وتمت إعادة تنظيمه بجدية : يخصص المَسْؤولون إنشاء لجان في مستوى المكتب السياسي، كل واحدة مكلفة إمّا بالمنتخبين أو بالشؤون النقابية أو الشؤون الدينية أو المنظمات الوطنية وتقسيم الجزائر إلى 11 ولاية و33 دائرة وقادة دائمين... واللجنة المركزية يتم اختيارها بالتفاهم والقيادة المسماة لجنة مديرة وفيما بعد مكتبا سياسيا يتم اختيارها من طرف مصالي، الزعيم والقائد الوطني ومن بعض القادة. وهيمنت شخصية مصالي المهابة على المنظمة. ورغم

لحول وبن خدّة





الانضباط التامّ في الحزب. لقد برزت بعض الأزمات منها الأزمة البربرية بعد انتخابات 1948 ؛ لقد لام مناضلون شباب على الإدارة بعض النقائص في المجال الإيديولوجي وألحوا على الأصول البربرية للسكان الجزائريين.

وفكر البعض في إنشاء حزب جديد، الحزب الشعبي القبائلي (P.P.K). وانتهت الأزمة البربرية في صيف 1949 وأبعدت العناصر البربرية النشيطة من الحزب. اعتمد حزب الشعب/الحركة (PPA/MTLD) على عدة منظمات جماهيرية تجمع العمال أو الشباب أو النساء. فشكل التجار فدرالية الخبازين أو الطباخين أو أصحاب الدكاكين أو الحلاقين، واستدعي عمال آخرون للانخراط في الاتحادية العامة للعمل (C.G.T). فكرت اللجنة النقابية للحزب التي ينشطها عيسات إدير في إنشاء مركزية نقابية دون أن يتوصل إلى ذلك.

إن طلبة حزب الشعب/الحركة (PPA/MTLD) استولوا على منظمة الطلبة المسلمين في باريس (الأمين محمد يزيد) في 1944 وفي مدينة الجزائر سنة 1946. وبعثوا في 1944 جمعية التلاميذ المسلمين في الثانويات الجزائرية. وكان الكشافة المسلمون الجزائريون وخاصّة منذ 1947 مشتلة حزب الشعب/الحركة. وتكلفت جمعية النساء المسلمات الجزائريات، المكونة في 1947 بترقية الفتيات والنساء وتقديم مساعدة للحزب : الدعاية ومساعدة عائلات المساجين السياسين.

عاد حزب الشعب/الحركة (PPA/MTLD) إلى الشعارات

التالية : "الكلمة للشعب" و"تأسيسية جزائرية ذات سيادة منتخبة بالاقتراع العام"، وبالتالي فإنه يطالب بالاستقلال. كانت الوطنية والديمقراطية موجودة والتي لا ينبغي أن نخلطها مع الوطنية القمعية ذات منبع امبريالي وهي في الغالب عنصرية ولا أن تخلط مع ما هو نوع من مناهضة الصليبية.

والديمقراطية تمنح نفس الحقوق لكل المواطنين الجزائريين وهي مبنية على الحرية وتفتح الرجال الكامل والتي تقتضي مشاركة الشعب في الحكومة وفي تسيير الشؤون العامة والمحلية. ولبلوغ هذه الأهداف، كان حزب الشعب/الحركة يرى أنه لابدّ من الكفاح بكل الوسائل القانونية : استعمال الصحافة ("الأمة الجزائرية" و"المغرب العربي" و"المنار") دون إهمال النشاط السري والعمل العسكري.

وكان لحزب الشعب/الحركة نشاط دولي. لقد أكد تضامنه المغاربي ومثل الجزائر وحده في لجنة تحرير المغرب العربي التي أسست في القاهرة من طرف الأحزاب الوطنية في شمال إفريقيا. وشارك في 1948 في لندن المؤتمر المناهض للامبريالية لشعوب آسيا وإفريقيا وانْخَرطَ أيضا في مؤتمر السلم للكتلة السوفياتية. لقد أسمع في كل مكان المطلب الوطني الجزائري الذي عرضهُ من ناحية أخرى وفي ثلاث مرات في نداءات إلى جمعية الأمم المتحدة.

ولم يستطع المنتخبون الوطنيون ترجيح مشاريعهم لأنهم لا يملكون الأغلبية لا في المجالس البلدية ولا في الجمعية الجزائرية. وإذا كان الاتحاد (UDMA) قد حَافظ على سياسته

المعتدلة رغم عدوانية المنتخبين الأوربيين، فإن الحركة (MTLD) قد صلبت موقفها وهي تظهر خاصّة على أنها غطاء شرعي لحركة ثورية. وقد نتج عن ذلك فشل الوحدة بين الحركة (MTLD) والإتحاد (UDMA) والجدل العقيم بين الجزائريين في 1948 وفي بداية 1949.

فالاتحاد الذي يأمل دائما في إقناع الرأي العام الفرنسي اختار المشاركة في الانتخابات عكس الحركة التي كانت تنادي بالامتناع. وعلى الأقل فإن الإتحاد (UDMA) ندد بالقمع الفظيع المسلط على مناضلي الحركة (MTLD). وفي محاولتهم للخروج من عزلتهم، نادى الشيوعيون الأحزاب الوطنية إلى التوحد معهم لتكوين جبهة وطنية ديمقراطية ولكنها لا تقبل الحياد بين الكتلتين وتكره سياسة لجنة التحرير في القاهرة فلم يستطيعوا أن يجلبوا لا الوطنيين من الحركة (MTLD) ولا مناضلي الإتحاد (UDMA):

وهكذا فإن النشاط السياسي الشرعي لم يعط نتائج ملموسة بالنسبة للجزائريين نظرا لرفض الإدارة والمعارضة العمياء من طرف الفرنسيين ومنتخبيهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى وبما أن الوحدة بين الأحزاب لم تتحقق، توجب على الجزائريين وجود طريق آخر. وقد فكر في ذلك مناضلون من حزب الشعب/الحركة. في بلاد القبائل يوجد خارجون عن القانون، "قطاع طرق من أجل الشرف" قد ردوا الفعل ضد مظالم الإدارة وخاصّة القياد، وكان هؤلاء يظهرون على أنهم وطنيون في عين السكان. فمر العديد من هؤلاء تحت إشراف حزب

الشعب/الحركة. وكانت المنظمة كبيرة في بلاد القبائل في ربيع 1947، حيث تم القضاء على العديد من عملاء الإدارة الفرنسية. وجرت أحداث عنيفة في القلعة (معسكر) وفي الأوراس. لقد أنعشت هذه الاضطرابات المنظمة الخاصّة (O.S).

كان اكتشاف المنظمة الخاصة (O.S) سببا في قمع عنيف. قامت الشرطة بالعديد من التوقيفات من بين أعضاء المنظمة الخاصة: (تقريبا 400 من بين 3000) والعديد من مناضلي الحركة (MTLD) ومنتخبيه. وصار السجن مدرسة حقيقية للوطنية. طلبت قيادة الحركة (MTLD) من المساجين نفي وجود المنظمة الخاصة السرية. قدرت القيادة بأنها مازالت غير جاهزة لنشاط مسلح، فحلّت المنظمة الخاصّة ووزعت مسؤوليها المطلوبين (من طرف السلطة) بين مختلف الولايات وفرنسا والقاهرة. في السجون أو في مناصبهم الجديدة أو في المنفى، كان قدماء المنظمة الخاصة يشكلون طليعة الوطنية الجزائرية: مناضلون ذوو خبرة ومحنكون ومستعدون للعمل المسلح.

نصـــــوص

مقتطف من نداء مصالي إلى جمعية الأمم (سبتمبر 1948)

فبعد أن ذكّر بتاريخ المقاومة الجزائرية أمام العدوان الفرنسي وثبت حصيلة الاستعمار وأعطى وصفا شاملا عن الوضعية الحالية، صرّح النداء إلى الأمم المتحدة بما يلي:

" - نظرا لأن الجزائر كانت تتمتع بسيادتها وكان لها علاقات ديبلوماسية واقتصادية مع القوات الأوربية وحتى مع أمريكا،

- نظرا لأنها في علاقاتها الديبلوماسية مع فرنسا قد تفضلت بمساعدة الثورة الفرنسية والإمبراطورية الأولى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عسكريا واقتصاديا وماليا،

- ونظرا لأن الاعتداء على السيادة الجزائرية لم يكن له أيّ مبرر إلاّ التوسع الاستعماري الذي فرضته الأزمات السياسية الداخلية في حكم شارل العاشر.

- ونظرًا لأن قرنا من الهيمنة لم يتمثل إلا في الاستيلاء على ثروات البلاد واستغلالها من طرف أقلية من الأجانب تحت حماية الجيش الفرنسي.

- ونظرًا لأن الشعب الجزائري نزعت منه أملاكه وأبْعِدَ عن إدارة شؤونه العامة الاقتصادية والإدارية والاجتماعية والثقافية وأخْضِعَ لنظام سياسي استثنائي وإلى خدمة أقلية تمسك اليوم بكلتى يديها هيمنة سياسية واقتصادية وعسكرية على الجزائر،

- ونظرًا لأن الشعب الجزائري لا يتمتع لا بحرية الصحافة ولا بحرية التجمع ولا الاجتماع ولا التحرك ويرى نفسه إلى غاية هذا اليوم محروما من أملاك الأوقاف والممارسة الحرة للشعائر الدينية،

- ونظرًا لأن الاعتداء ضد السيادة الجزائرية لم يكن إلاّ اغتصابا حرم الحكومة الجزائرية من الممارسة الحرة لحقوقها السيدة وهذا مخالف للمادتين الثانية والثالثة من ميثاق الأطلنطي.

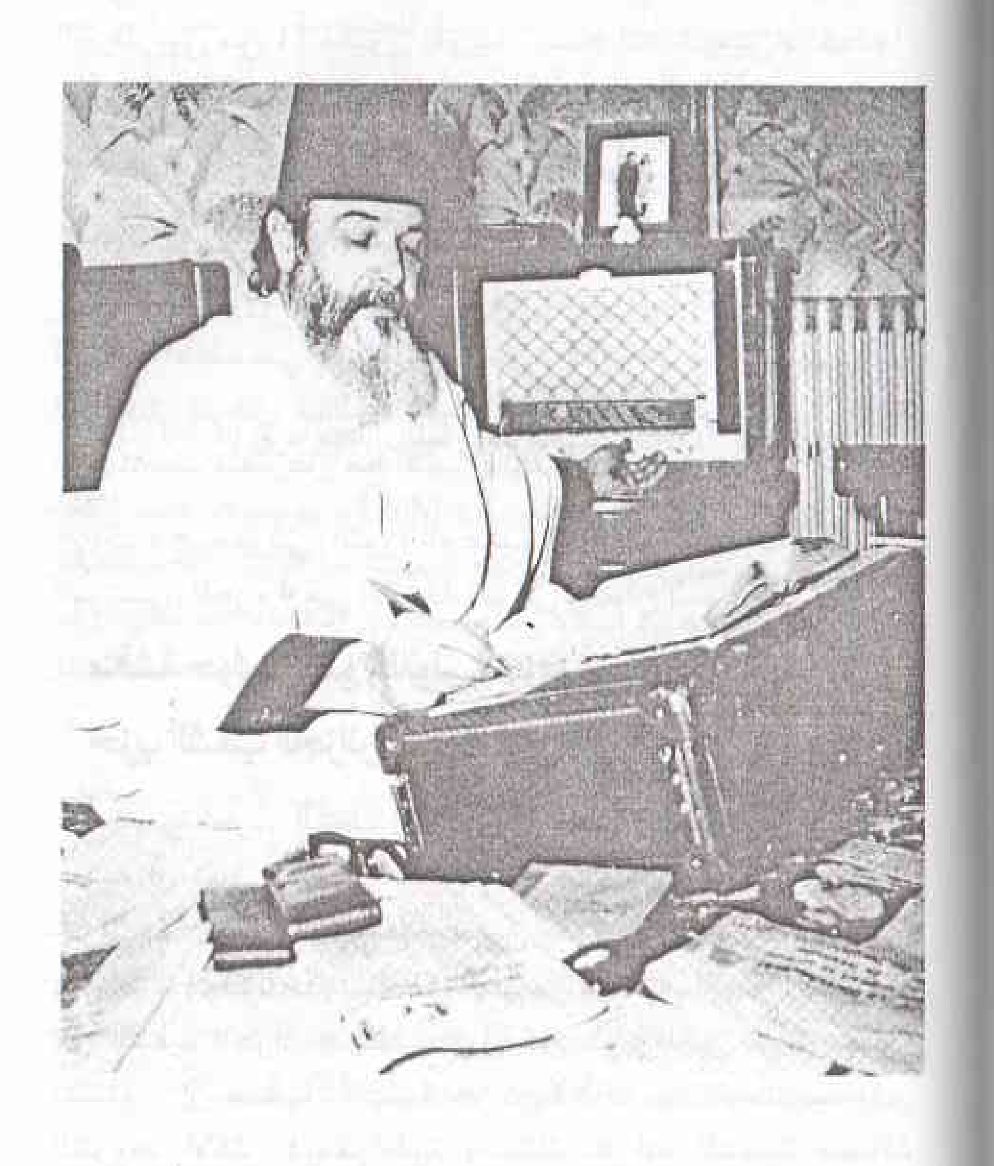
- ونظرًا لأن طرق الاستعمار المستعملة من طرف الامبريالية الفرنسية طيلة أكثر من قرن في الجزائر قد أدت إلى سحق الشعب الجزائري وهذا مخالف للمواد 73 و74 من ميثاق الأمم المتحدة،

- نظرًا لأن الشعب الجزائري قد برهن دائما في مطالبه على التفاهم والصبر، ونظرًا لأن الامبريالية الفرنسية قد طلب منها في العديد من المرّات أن تأخذ في الاعتبار تطور الشعب الجزائري وإعطاء الحق لطموحاته الشرعية، قد رَدَّ دائما بالقمع والاغتصاب،

- نظرًا لأن الجزائر ليست فرنسية لا في تاريخها ولا في موقعها الجغرافي ولا في لغتها ولا في دينها،

- نظرًا لأن الشعب الجزائري كافح دائما من أجل استقلاله وقاوم بكل الوسائل السّيّاسّة الإجرامية لمحو الشخصية الجزائرية والتخلي عنها.

صورة لمصالي الحاج



- نظرًا لأن الجزائر برزت في ثلاث عمالات فرنسية هو أمر شكلي باعتبار نظام هذه العمالات وباعتبار أن عدد 10 ملايين من الجزائريين من 11 مليون تقريبا، يسمح للجزائريين بالحصول على الأغلبية في كل المجالس، علما بأن هذه الحالة لم تتحقق.

- نظرًا لأن هذه التأكيدات والإدعاءات ليست إلاّ دعاية كاذبة من شأنها أن تضلل رأي الأمم المتحدة وحكمها.

فباعتبار كل ما سبق نطلب باسم الشعب الجزائري وتماشيا مع الميثاق الأطلنطي وتوصيات المواد 73 و74 من ميثاق الأمم المتحدة، تدخل منظمة الأمم المتحدة لإيجاد حلّ للنزاعات التي تجعلنا نتعارض مع الامبريالية."

ذكره ج.جوركي، الثورة الوطنية الجزائرية والحزب الشيوعي الفرنسي، الجزء 4 من الانتخابات إلى الكفاح المسلح.

مناقشة حول الوضع القانوني للجزائر وجهة نظر حزب الشعب الجزائري

بالنسبة لحزب الشعب (P.P.A) يقتضي المنطق الديمقراطي النزيه أن تعطى الكلمة للشعب الجزائري. إن جمعية تأسيسية جزائرية ذات سيادة ومنتخبة من طرف كل الجزائريين هي وحدها مخوّلة لتحديد النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي لأن الشعب الجزائري يطلب قبل كل شيء الحق في أن يزوّد بدستور. إن جمعية تأسيسية جزائرية ذات سيادة ومنتخبة وفق الشروط الأكثر ديمقراطية وممثلة للإرادة الشعبية مخوّلة

وحدها في أن تحسم في المشاكل التي تطرح للرأي العام الجزائري. ويلوم حزب الشعب (P.P.A) كل المشاريع لأنها تترك الدفاع الوطني والشؤون الخارجية للحكومة. "إن هذا التواطؤ ناتج عن احتقار السيادة الجزائرية والرغبة في المحافظة على المصالح القذرة لفرنسا الامبريالية." وحزب الشعب مقتنع بأن حكومة لا تملك جيشا وطنيا وليست لها علاقات خارجية هي معرضة ولا مراء في ذلك إلى فشل أليم وعجز حزين".

تصريح في الجمعية الوطنية، نائب حزب الشعب لمين دبّاغين.

وجهة نظر الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (UDMA)

المستشار العام من الاتحاد (UDMA)، بوصوف قدّم لائحة يطلب فيها وضعا ديمقراطيا مع جمعية جزائرية ذات سيادة في كل الأمور الداخلية للبلاد ومندمجة في الاتحاد الفرنسي. وفي الأخير صادق الاتحاد (UDMA) على اللائحة التي قدمها الممثل كومولي:

- "نرفض كل سياسة إدماجية قد تجاوزتها الأحداث ورفضها السكان المسلمون والدستور الفرنسي نفسه.

- ونرفض بنفس الشدة سياسة الانفصال التي من شأنها أن تثير في جو من اللاأمن عناصر السكان الجزائريين الواحد ضد الآخر أطلب وضعا قانونيا تقدميا يحترم الشخصية الجزائرية ويضمن الحق في استقلالية تسيير الجزائر في إطار الاتحاد الفرنسي".

تصريح لمين الدباغين (الاتحاد الديمقراطي) (MTLD)

هب أن فرنسا قد أنجزت العجب العجاب في ما تسميه بمستعمرتها الجزائر، هب أن كل الأكاذيب المشاعة لصالح الاستعمار تكون حقيقية، هب أن الشعب الجزائري، من وضعيته البئيسة فيما يضمنه تحت قانونه، صار بفضل الحربات الفرنسية الشعب الأصلح والشعب الأكثر ثقافة والأكثر ثراء...(احتجاجات حادّة في الوسط واليمين وعلى بعض المقاعد في اليسار)، فإن الجزائر أمّة".

وواصل لمين الدباغين بعد هذا : "وكذلك فإن الجزائر رغم كفاح بطولي قد خسرت سيادتها مثل تشيكوسلوفاكيا وبلونيا في حرب كانت بالنسبة لها مأساوية. فإننا لا نقبل أن تكون هذه هي نهاية السيادة. فإن الجزائر ستستعيد حريتها ثانية وترجع هي نفسها ونحن على يقين من ذلك لأنه ليس في العالم مثال كبلونيا التي تعود إلى الحياة من جديد... (انقطاعات جديدة على نفس المقاعد).

معارضة المنتخبين الأوربيين والتهديد بالانفصال

– في رسالة موجهة إلى وزير الخارجية بوياربانس، ومدير قديم في الحكومة العامّة ومعمر في بابا علي كان يصرح : "إذا ألحقت فرنسا العار بنفسها بالتخلي عنا، سيتحتم علينا أن نطلب أمام جمعية الأمم المتحدة حقنا كشعب متخلى عنه من طرف فرنسا وستكون أنت أيها السيد، وزير الشؤون الخارجية، من

يحاسب أمام مجلس الأمم المتحدة عن الأسباب التي دفعت فرنسا على خيانتنا".

– بارتود، رئيس الجمعية العامة في الجزائر العاصمة، الذي نشر رسالة ممضاة من 23 مستشارا عامّا، صرّح في باريس : "إذا أعطت الجمعية للجزائر وضعا قانونيا يخالف مصالح الاستعمار، فإن ممثلي الأقلية الأوربية لا يترددون في تحويل وجهتهم خارج الوطن الأم".

ويؤكد بورفود، مستشار الجمهورية : "الجزائر لا تشكل أمّة".

وصرّح جاك شوفاليي عندما كان مناصرًا للمعمرين : "إن أرض الجزائر هي أرضنا ؛ ونحن فيها في ديارنا، إنها أرض فرنسا. فمهما قيل ومهما فُعلَ ومهما قُرّرَ فإن الجزائريين الفرنسيين لن يغادروها أبدًا".

المنظمة الخاصة لحزب الشعب الجزائري (l'O.S)

"أرادت الحركة (MTLD) أن تجعل من المنظمة الخاصة (O.S) جهازًا عليه أن يحضر الثورة المسلحة. في مؤتمرها في فبراير 1947، اتّخذ قرار مبدأ إنشاء (l'O.S) ؛ وقد استلزم الأمر ستة أشهر لتأسيس البنيات وتكوين الخلايا الأساسية. وكان على رأس المنظمة الخاصّة أركان (اسم له معناه في تحضير الحرب) وعلى رأسه قائد وهو بلويزداد وهو مدرب وطني وقادة مناطق. عندما مرض بلويزداد سلّم مكانه لآيت احمد الذي تم تعويضه ببن بلّة في ديسمبر 1950، بعد "المؤامرة البربرية"

في اجتماع اللجنة المركزية المنعقدة في زدين في نهاية 1948، قدم آيت أحمد تقريرا صُودق عليه وكان يدين الانسداد الذي وصلت إليه الطريقة الشرعية وقدّم إجراءات خاصّة لتحضير الثورة. اقترح برنامجا للتكفل السياسي بالجماهير الشعبية القادرة وحدها على تحمل المحن الشديدة لنزاع طويل، ونشاط ديبلوماسي مكثف للحصول على التأييدات والأسلحة الضرورية وأخيرا تقوية المنظمة الخاصة (O.S). وضع رزنامة تسجل فيها الفترات لبداية العمل المسلح وتعيين لجنة من اللجنة المركزية لمتابعة تطبيق القرارات التي تؤدّي إلى حرب التحرير. اقترح وفد من المنظمة الخاصة على الوطنيين التونسيين والمغاربة توحيد الأهداف الاستراتيجية في البلدان الثلاثة. رفض التونسيون وفي نفس الوقت سمحوا لابن بلّة بالاتصال مع بعض النشطاء ؛ واعتبر المغاربة أن استراتيجية مشتركة لم يأت وقتها بعد.

أعادت المنظمة الخاصة تنظيم بنياتها : الأركان المكونة من أربعة رجال كُلّفوا بالاستراتيجية والمجلس الأعلى للجيوش الذي يضم قادة المناطق يكلف بالتنفيذ. كانت المنظمة الخاصّة جيدة البناء وكانت قوية بدعم الحركة (MTLD) وأمينها لحول حسين، وكانت ابتداء من 1949 تشكل أملا كبيرا للثورة الجزائرية. استطاعت المنظمة الخاصة استرجاع وشراء بعض الأسلحة والعتاد. قامت ببعض العمليات : إعدام خونة للقضية الوطنية ومجرم في خدمة الباشغا آيت علي وإثني عشر مليشيين في برج منايل، والهجوم على بريد وهران لإضافة أموال إلى كنز الحرب

ومحاولة تدمير نصب تذكاري دشنه نايجلان اعتبارا لكون ذلك العمل إنما هو تدنيس إذ كيف يتظاهر المسؤول عن القمع بتشريف واستخدام ماضٍ لبطل وطني جزائري. ولكن عمل المنظمة لم يؤدّ إلى انتفاضة عامة. عندما انتهت الستة أشهر المخصصة للتدريب والتعليم العسكري، توجّب القيام بفترة أخرى من ستة أشهر وأحيانا فترة ثالثة. وبما أن الأمر بالبدء في العمل العسكري لم يأت، بدأ اليأس يتسرّب إلى المناضلين.

تم اكتشاف المنظمة الخاصة في 1950 وتم إيقاف العديد من المناضلين فاختفى الذين استطاعوا الفرار في الجبال أو ذهبوا إلى فرنسا أو إلى القاهرة أو تم تعيينهم من طرف الحزب في مناطق غير منطقتهم".

م.قداش، النشاط المسلح والوطنيون الجزائريون.

الفصل الثامن عشر

نحو أول نوفمبر (1551-1954)

كانت فترة 1951-1954 هي فترة اكتمال نضج مشروع حرب التحرير الجزائرية التي وجدت بدايتها في مستوى الانسداد السياسي الذي أحدثه القمع الاستعماري وزامن خطورته أزمة الحزب الاستقلالي، حزب الشعب/الحركة (PPA/MTLD). استحال على الأحزاب الوطنية المتطرفة والمعتدلة أن توصل مطالبها في إطار شرعي وعمى السلطات والرأي العام الاستعماري المصممين على المحافظة على مزاياهم. ولا يستمعون لا إلى ممثلي الوطنيين ولا إلى الفرنسيين المستنيرين القلائل الذين كانوا يدينون تجاوزات الاستعمار.

صارت الحياة السياسية في ورطة؛ فالانتخابات دائما مغشوشة والمنتخبون الجزائريون مهمشون من طرف أغلبية المنتخبين الفرنسيين والقمع متعدد الأشكال ضد المناضلين الجزائريين وخاصّة المنتمون إلى حزب الشعب/الحركة (PPA/MTLD) وضدّ الصحافة ومنع المظاهرات السياسية العامة...ونضيف إلى هذه الوضعية الخطيرة جوّا من الحذر والشك والانتقادات التي لا تخدم الوحدة بين الوطنيين من حزب الشعب/الحركة (PPA/MTLD) المقتنعين بصحة برنامجهم الاستقلالي والمعتدلين من الاتحاد (UDMA) الذين كانوا متمسكين بالنشاط الشرعي والشيوعيين الذين لفظهم

الحزبان بسبب مواقفهم والسبب الحقيقي والمباشر للفاتح من نوفمبر يوجد في مستوى أزمة الحزب الاستقلالي (PPA/MTLD) ونشاطات قادته القدماء ومناضلي منظمته الخاصة (O.S). فأزمة حزب الشعب/الحركة بين أنصار مصالي وأنصار اللجنة المركزية تنبني أساسا على قضية توجه الحزب : النهج السياسي الذي صار إصلاحيا (بالمعنى القبيح) وغير فعال أمام القمع والنهج الثوري الذي ينبغي تحديده. وأمام هذه الأزمة حاول قدماء المنظمة الخاصّة الذين مازالوا أحرارًا والذين هم مخلصون لأهدافهم الأولى أن يحافظوا على وحدة الحزب ولكن أمام فشل هذه المحاولة فإنهم أخذوا المبادرة بتفجير الكفاح المسلح التحريري.

أزمة الحزب الاستقلالي (PPA/MTLD)

إن هذه الأزمة تَوَاجَهَ فيها أنصار مصالي الحاج مع أعضاء اللجنة المركزية. فبغض الطرف عن القضايا الشخصية التي لا مفر منها، إن لهذه الأزمة أسباب قديمة، فمن جهة هيبة مصالي الحاج المهيمن على الحزب، وهيبة ناتجة عن شهرة زعيم كان قبل كل شيء رمزا للوطنية منذ بداية نجم شمال إفريقيا، ثم إنه كان في كل الخطب وفي كل ما يكتب في صحافة الحزب المرجع الأول للكفاح من أجل الاستقلال ولأنه كان مدة سنوات طويلة سجينا أو منفيا شهيدا للقضية الوطنية. إن هذه الهيبة أدت إلى سلطة معنوية لا مراء فيها ولها وزنها في أغلب القرارات الهامّة للحزب. وقد يعتبر كفرا أن يتم الشك فيها. ومن

جهة أخرى ثمة قادة استطاعوا أن يصنعوا من حزب الشعب/الحركة (PPA/MTLD) حزبًا عصريا ومنظما يستعمل كل الوسائل، تجاوز الكلام، وتدخل في كل المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية مستعملا كل الوسائل وقابلا للنهج السّري في تحضير الكفاح المسلح المتبع من طرف المنظمة الخاصّة، ودخل في النهج السياسي الشرعي - تجمعات وانتخابات - وتحصل على بعض النجاحات ولكنه جلب صواعق الإدارة. إن ذلك القمع قد ضرب بقوة المناضلين وأدى إلى انسداد سياسي حاولنا تحليله. من هو مسؤول في الحزب عن هذا الانسداد؟ وقعت صدامات بين مصالي وبعض القادة وخاصّة مع الأمين العام لحول فيما يتعلق بتسيير الحزب ومع شوقي فيما يخص مشروع الوحدة من الاتحاد (UDMA). فالنتائج كانت فورية : استقالة لحول من منصبه في مارس 1951 وذهاب ثلاثة قادة : شوقي وشنتوف وعمراني في مايو 1951. وإلى مصالي الذي كان ذاهبا إلى مكة، طلبت منه القيادة أن يقوم بجولة في البلدان العربية الآسيوية. فقطع مصالي جولته بدون إخبار القيادة ورجع إلى فرنسا قصد متابعة أشغال منظمة الأمم المتحدة. وأثناء اجتماع اللجنة المركزية في مارس 1952، حكم على تقرير مصالي حول سفره إلى الشرق أنه غير مرض كما أن تحفظاته فيما يتعلق بالمؤتمر الوطني واتحاد شمال إفريقيا لم يكونا أيضا مرضيين في نظر اللجنة العضوة. وفي أفريل مايو 1952، قام مصالي بجولة دعائية في الجزائر رغم تحفظات القيادة التي كانت تخشى الخطب العنيفة واستفزازات الشرطة.

وبالفعل ففي الأصنام مات رجلان وجرح العديد من الأفراد. وتم إيقاف مصالي ووضع في الإقامة الجبرية في نيور. فنظم الحزب في أفريل 1953 مؤتمرا وضح خلاله أهداف سياسته - الديمقراطية والجمهورية والعدالة الاجتماعية والثقافة العربية الإسلامية - وعين أعضاء اللجنة المركزية الذين عينوا بن خدّة أمينا عامًا. ولكن في سبتمبر 1953، سحب مصالي الثقة من الأمين العام الجديد وطلب السلطات المطلقة لتقويم الحزب الشيء الذي تم رفضه من قبل اللجنة المركزية. وفي يناير 1954، سحب مصالي ثقته من كل القيادة وشكّل لجنة الانقاذ العمومي التي طلبت من أجهزة الحزب تجميد الأموال وقطع الصلة بالقيادة وألاّ يُعترف إلاّ بسلطة ممثلي مصالي مولاي مرباح ومزارنة. بقيت القاعدة مخلصة لمصالي الشيء الذي أدّى بأعضاء اللجنة المركزية إلى إعطائه موافقتهم لتنظيم مؤتمر. ولكن الخلاف تفاقم، لقد أخبر المصاليون المناضلين في فرنسا والجزائر بمآخذ مصالي. فاللجنة المركزية رأت سلطتها غير مقبولة وهي عاجزة وأثناء اجتماعه في مارس 1954 وتحت ضغط اللوائح الواردة من القسمات ومجموعات أنصار مصالي، سلمت لهذا الأخير مسؤولية إدارة الحزب مع الاحتفاظ بالتسيير المالي. وتخلى أعضاء اللجنة المركزية عن وظائفهم التنفيذية في الحزب. إن هذين الإجرائين أغضبا المصاليين.

وزاد الخلاف تفاقما وفشلت كل محاولات المصالحة. وفي جوان 1954 تراجعت اللجنة المركزية عن قرارها وسحبت السلطات الممنوحة لمصالي. وتوجهت الأزمة مع المؤتمرين

المنظمين من طرف المصاليين من جهة ومن جهة أخرى من طرف المركزيين نحو انقسام الحزب.

ففي المؤتمر الاستثنائي المنعقد في هورنو (13-15 جويليا 1954) من طرف المصاليين، قررت الجمعية حلّ اللجنة المركزية وإقصاء القادة الرئيسيين ومنهم بن خدّة ولحول وكوان وعبدالحميد فروخي، وعين مصالي رئيسا مدى الحياة وكلفه بأخذ كل القرارات الضرورية لتقويم الحزب. واتخذت الإجراءات من أجل عمل مسلح مستقبلي. وردّ المركزيون على ذلك بعقد مؤتمر استثنائي هم أيضا في مدينة الجزائر (13-16 أغسطس 1954). وقد أكد هذا المؤتمر الخط السياسي العام الذي أقرّه المؤتمر الثاني ؛ وقرّر أن يضع الحزب في حالة تأهّب للعمل إذا طرأت أحداث وطنية أو دولية تخلق ظروفا صالحة لكفاح مكثف. وأقصى المؤتمر مصالي ومزارنة ومولاي مرباح من كل الوظائف والمسؤوليات التي كانوا يشغلونها في الحزب.

لنختصر مآخذ هؤلاء وأولئك والانتقادات التي وصلت إلى انقسام الحزب الذي كان الناطق الرسمي الحقيقي للوطنية الجزائرية. قبل كل شيء نتناول مآخذ مصالي الذي يتهم اللجنة المركزية بأنها ابتعدت عن النهج الثوري وأنها تنادي بالنهج الإصلاحي (المستهجن) وأنها لم تقم بأعمال جماهيرية. وعلى المستوى الفردي قدر مصالي بأنه سجين القيادة ومبعد عن القرارات الهامّة. إن مآخذه تتناول كذلك مفهوم الوحدة البعيد عن المطالبة والاستقلال والتأسيسية ذات السيادة. وبالنسبة لمصالي فإن المركزيين قد انحرفوا عن النهج الثوري باعتماد

البيروقراطية والسياسة الانتخابية ووصلوا إلى التعاون مع الاستعمار الجديد خاصّة في مدينة الجزائر مع جاك شوفالي.

ومن جهتهم فإن أعضاء اللجنة المركزية يلومون مصالي على تسلطه وعلى نشاطيته الكلامية وعلى أنه غير واقعي وفوضوي. بالنسبة لهم، ليس مصالي لا ديمقراطيا ولا جمهوريا وأنّه لا يفرق بين المصالية والوطنية. يلام خاصّة على أنه لم يحسم في الأزمة في مستوى المؤتمر ولكن على أنه عرضها على الشارع ملحقًا بهذا أضرارًا بوحدة الحزب ومضعفًا بالتالي طاقته الكفاحية الشيء الذي يخدم في نهاية المطاف تلاعب الاستعمار. إن أغلبية مناضلي القاعدة كانت أكثر تعاطفا مع حجج مصالي الذي يعتبرونه ممثلا للنهج الثوري.

فعالية "الأوزان الثقيلة للمنظمة الخاصة" (O.S)

طلب مناضلو المنظمة الخاصة (O.S) وقادتها، الذين لم يتم توقيفهم، من الحزب أن يعيدوا تركيب المنظمة الخاصّة بالاعتماد على المناطق الجبلية: الأوراس وبلاد القبائل والونشريس حيث يسهل تأسيس قواعد المقاومة وتنظيم تكوين الإطارات العسكرية.

وعندما لم يتحصلوا على جواب الحزب قرر الناجون (من القمع) المنتسبون إلى المنظمة الخاصّة (O.S) إخفاء أسلحتهم وألاّ يدخلوا في المنظمة العناصر الهامّة غير المعروفة. والتحق باقي الأعضاء بالخلايا والمناصب السياسية التي عيّنت لهم.

البعض في الجزائر والبعض الآخر في الخارج. وأخذ بوضياف وديدوش مبادرة تجميع الأطر القديمة.

وفي مؤتمر حزب الشعب/الحركة في أفريل 1953، لم يستطع إلاّ رمضان عبد الملك طرح السؤال عن المنظمة الخاصة ولكن دون أن يقنع الحضور. وتفاقمت الأزمة بين المصاليين والمركزيين والتزم ديدوش وبوضياف ألاّ يتدخلوا في النزاع مع أي كان بشرط أن يحصر مصالي الخلاف في مستوى الإطارات السامين للحزب. ومع الأسف لقد أخبرت القاعدة سواء في الجزائر أو في فرنسا بالأزمة. وهكذا فإن الاتصالات بين إطارات المنظمة الخاصة قد أدت إلى إنشاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل (C.R.U.A) التي رأت النور في 23 مارس 1954 مع أربعة أعضاء (إثنان من O.S : بوضياف وبن بولعيد واثنان من اللجنة المركزية: دخلي وبوشبوبة). حاولت (C.R.U.A) قبل كل شيء أن تحافظ على وحدة الحزب وفكرت في تنظيم مؤتمر واسع بصفة ديمقراطية لانتخاب قيادة ثورية. وأكدت اللجنة (C.R.U.A) حيادها في النزاع بين المركزيين والمصاليين وأنشأت نشرية داخلية، "الوطني"، لتعميم أهدافها.

أما المصاليون الذين كانوا يعتقدون بأن إطارات المنظمة الخاصّة من جانبهم فإنهم رأوْ بعين غير راضية تأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل (C.R.U.A) لوجود مركزيّيْن فيها. أما أنصار اللجنة المركزية فإنهم كانوا بدورهم يظنون أنهم أقنعوا المتصلبين من المنظمة (O.S) بينما كان هؤلاء يريدون استعمال الوسائل المالية وتجهيزات الطباعة وأرشيف الحزب. صفقة الغبن

التي كانت لصالح إطارات المنظمة الخاصة (O.S) الذين نظموا مدّة الربيع كاملة جولات في الجزائر لربط العلاقة مع القدماء واسترجاع العديد من العناصر. وكانت النتيجة هي التالية : جمع أهم الإطارات القديمة وضبط العمل الذي ينبغي القيام به.

اجتماع الـ 22 :

انعقد الاجتماع في كلو سلامبي وضمّ 22 إطارًا. وأعطي بوضياف قائمة المشاركين : قبل كل شيء أسماء منظمي اللقاء : بوضياف وبن بولعيد وبن مهيدي وبطاط وديدوش ثم ممثلو مدينة الجزائر : بوعجاج ومرزوق بلوزداد ودريّش الذي تم اللقاء عنده. وممثلو البليدة وفيهم سويداني وبوشعيب وهما لاجئان في المنطقة. ولناحية وهران بوصوف ورمضان عبد الملك. وعن قسنطينة نجد مشاتي وحباشي وملاح والسعيد المسمى "لاموتا". وعن الشمال القسنطيني نجد زيغود وبن طوبال وبن عودة ومثل سوق أهراس باجي مختار وعن الجنوب القسنطيني لعمودي عبد القادر. كان الـ22 كلهم مناضلون في المنظمة الخاصّة وحزب الشعب الجزائري.

ترأسّ الاجتماع بن بولعيد مع بوضياف كمقرر رئيس بمساعدة بن مهيدي. فبعد دراسة التقارير التي تبرز تاريخ المنظمة الخاصّة والقمع الاستعماري وأزمة الحزب ونشاط اللجنة الثورية للوحدة والعمل (C.R.U.A)، قرر المشاركون اندلاع ثورة التحرير وانتخبوا بوضياف ممثلا وطنيا. وشكل هذا الأخير لجنة من خمس مسؤولين تجمع حوله بن بولعيد

وديدوش وبن مهيدي وبطاط. وكانت هذه اللجنة مكلفة بتطبيق قرارات الـ22.

تحضيرات الانتفاضة

قامت لجنة الخمسة بالاتصالات مع الإطارات في خارج البلاد ولقيت في سويسرا الممثلين عن القاهرة، فأعطى بن بلة موافقته. وتعهد ممثلا المركزيين لحول ويزيد أن يضعا تحت تصرف اللجنة الجزء الأكبر من أموال الحزب وقبلوا مبدأ حَلّ الحزب. ولكن هذا الوعد لم يحصل على قبول اللجنة المركزية. وبما أن وحدة الحزب لم تتحقق تفككت اللجنة الثورية (C.R.U.A). أمّا الثوار القبائل فقد اقتنعوا بالصفة الثورية لقرارات الـ22 والتحقوا بصفوفهم وعين كريم بلقاسم عضوا في لجنة الخمسة.

وحينئذ بدأت اللجنة في تحضير تفجير الانتفاضة. وبما أن أغلبية أعضاء اللجنة كانوا مناضلين سريين غير معروفين لدى الجمهور العريض، بحثت اللجنة من بين إطارات الحزب شخصية سياسية ممثلة ومعروفة. ولم تستطع اللجنة إقناع الشخصيات التي تمّ الاتصال بها حَيْثُ أنَّهمْ قدّروا بان العمل المعوّل عليه يعتبر مغامرة. فاعتمدت اللجنة على نفسها حينئذ وعلى الشعب وحررت تصريحا يضبط الهدف الرئيسي وهو الاستقلال الوطني :

1- استرجاع سيادة الدولة الجزائرية الديمقراطية والاجتماعية في إطار المبادئ الإسلامية.

2- احترام كل الحريات الأساسية بدون تمييز لا عرقي ولا ديني".

كان النداء متوجها إلى القاعدة ويدعو المناضلين إلى أخذ المبادرة من جديد. وعلى المستوى التنظيمي تم الإتفاق على مبدأين : اللامركزية وأولوية الداخل على الخارج. وتم اختيار جبهة التحرير الوطني إسما للمنظمة السياسية (FLN) وجيش التحرير الوطني إسما للمنظمة العسكرية. وقسمت الجزائر إلى ست مناطق. وعلى المستوى الاستراتيجي تم الإتفاق على ثلاثة مراحل. وتتميز المرحلة الأولى بتنصيب الجهاز السياسي والعسكري ؛ ويكون للمناضلين أعمال مثل : التعرف على الأرضية وتنظيم مراحل التنقل والمناطق التي يتم الإنسحاب فيها وجمع الأموال والأسلحة والأدوية. وعلى الجنود أن يناوشوا قوات الأعداء بالليل وتنظيم هجومات مفاجئة على المراكز المنعزلة. أمّا المرحلة الثانية فإنها تسعى إلى إرساء اللاّأمن والاضطراب العام : "كمائن وتخريب قناطر وسكك حديدية وطرقات ومحولات كهربائية وهجومات جريئة وكثيرة وإرهاب حضري ضد أعداء الثورة".

أما المرحلة الثالثة فإنها تصل إلى تكوين مناطق محررة ومحصنة، لا تستطيع سلطات العدو الاقتراب منها. كان على كل منطقة أن تموّل نفسها بوسائلها الخاصّة. وجاءت الأسلحة من الحصص التي تم شراؤها من ليبيا في 1947-1948 (ما يقرب من 300 قطعة إيطالية كانت مخزنة في وادي سوف ثم نقلت إلى الأوراس فيما بعد. أمّا مخزني مدينة الجزائر فلم يكن فيهما إلاّ

بعض القنابل وأربعة أو خمسة مسدسات). أمّا تاريخ الإندلاع فقد تم تحديده في بداية الأمر بتاريخ 15 أكتوبر وبعد أن وقعت تسربات للخبر حُوّلت إلى الفاتح من نوفمبر.

لقد كان تحضيرا سريعا والوسائل كانت محدودة وكان الجوّ السياسي غامضا وهي كلها أفعال وأوضاع قد تسمح بالإعتقاد أننا في بداية مغامرة خطيرة إلاّ أن إرادة قدماء المنظمة الخاصّة ونضج شعب متمرس على الكفاح في الحركة الوطنية حوّلوا هذه البداية إلى حرب تحرير حقيقية.

صورة لأهم القادة التاريخيين للأفلان (FLN)



نصـــــوص

بعض مآخذ مصالي على أعضاء اللجنة المركزية

"بدون أن أذهب إلى التفاصيل يجب علي أن أقول لكم بأن حركتنا الوطنية تمر بأزمة ليست عديمة الخطورة. فمنذ أكثر من ثلاث سنوات وأنا أكافح ضمن الحزب وبالسكوت وبواسطة النهج السلمي لأحافظ على الحركة الوطنية من انزلاقها في المغامرة والتخلي عن المبادئ الثورية.

وهكذا ومنذ تلك الفترة نشأت سياسة السهولة والتواطؤ وبيروقراطية حقيقية مع موظفيها وبشواتها وشواشها في الحزب. ويجب أن أقول كذلك أنني منذ سنتين وأنا في نيور لم تتم استشارتي لا على سير الحزب وعلى الأحداث الخطيرة التي جرت في شمال إفريقيا.

وفيما يخصني لقد وجدت الكثير لأقوله. إن الجبهة الجزائرية كانت كارثة، والسياسة الإنتخابية معتمدة على السهولة والتواطؤ. فغيابنا على المستوى الدولي والسكوت على الذكرى في فرنسا وأحداث 14 جويليا وغياب الإتحادية في إضطرابات شهر أغسطس وفي المناقشات الكبرى لمشكلة جماعية الدفاع الأوربي (C.E.D) التي أدمجت فيها الجزائر، كلها أحداث تستحق النظر فيها بجدية لتحديد المسؤوليات وكذلك لنستخلص منها التعاليم.

في بوزريعة وفي نيور استقبلت كثيرا من المناضلين الذين جاؤوا ليخبروني بدهشتهم من عدم مبالاة حزبنا بمشاكل تونس

والمغرب. وبالفعل لم نفعل شيئا إيجابيا لإبراز تضامننا مع الشعبين المغربي والتونسي اللذين مازلا يواجهان الإمبريالية الفرنسية.

ومن ناحية أخرى وبعد سهولة سياسة الجبهة الجزائرية التي دامت ما يقرب من ثلاث سنوات: بدأت البيروقراطية تنهمك بخفة مذهلة نحو مؤتمر وطني بتخليها عن خطها السياسي ومبادئها الثورية ودون أن تأخذ في الاعتبار تجارب التوحدات التي مازالت كلها حديثة. لا سيما لم يتم فعل أيّ شيء من كل هذا ولكن لاحظنا أن منتخبينا في المجلس البلدي لمدينة الجزائر لم يرفعوا أيّ احتجاج بحجة أنهم لا يريدون إزعاج سياسة الإصلاحات الجارية والمقررة من طرف شيخ البلدية جاك شوفاليي.

نوع من "لائحة الثقة المصوت عليها من قبل مناضلي القاعدة

نحن الممضون أسفله، أعضاء قسمة تلمسان، المجتمعون بتاريخ 4 مارس 1954 في جلسة استثنائية للنظر في الخلاف القائم بين القائد الوطني مصالي الحاج والقيادة الحالية، اتخذنا القرارات التالية:

1- نمنح الثقة الكاملة لمصالي الحاج، قائد الحركة الوطنية،

2- نسحب كل الثقة من القيادة،

3- نطالب باستقالة الأمين العام الحالي،

4- نطلب تغيير القيادة الحالية بمفوضية عليها أن تضمن فورا تسيير الشؤون العادية للحزب وتحضير مؤتمر وطني حرّ".

نشرية أخبار المصاليين (أفريل 1954)

انتقادات أعضاء اللجنة المركزية ضد مصالي

كان الطلب الذي تقدم به مصالي للحصول على "السلطات المطلقة" في سبتمبر 1953 هو نقطة البداية للنزاع.

فبينما كان الحزب في تصاعد كامل بفضل الدفعة التي أعطاها له مؤتمر أفريل 1953، وبينما بدأ يستعيد المبادرة السياسية التي ضيعها منذ زمان، وجه مصالي بحجة انحراف إصلاحي مزعوم إلى اللجنة المركزية طلبًا يريد من خلاله "السلطات المطلقة" وصرّح بأنه يسحب ثقته من الأمين العام الذي لم يتجاوز شهرين في الوظيفة. إن هذا الطلب والاتهام بالانحراف المصاحب له كانا موجهين للقيادة. ثم هناك رسائل شخصية ومنشورات صادرة عن "لجنة انقاذ وطنية" أنشأها ومبعوثون عنه أرْسَلَهُمْ في كل مكان. كل هذه الأشياء أدخلت المناضلين في نهج الكارثة والعصيان. وقد أخذ هذا العمل الانقسامي بسرعة أهمية كبرى.

إن المفوضية المؤقتة التي نَصّبها وعين لقيادتها مزارنة ومولاي مرباح والتي عليها، حسب عبارات اللجنة المركزية، أن تحضر المؤتمر وتضمن تسيير الشؤون العادية، بدأت بإقصاء منظم - بواسطة عدد من الإجراءات العقابية - كل المعارضات.

وأنهى مصالي ومزارنة عملهما التهديمي والإنقسامي بتنظيم اجتماع انقسامي في بلجيكا من 13 إلى 15 جويليا 1954 أسمّوه مؤتمرا استثنائيا بعد أن رفضا الامتثال لقرارات اللجنة المركزية.

وبهذا تم الانقسام. وخرجت جماعة المصاليين من الحزب. ورغبة منه في إعطاء ما سماه بـ"ثورة العقول السياسية" فإن مصالي كان يلوم على القيادة انزلاقها نحو الإصلاحية دون أن يقدّم أيّ دليل على ذلك.

كان يكتفي بإلقاء الشعارات والعبارات كيفما اتفق له ذلك ليحاول أن يجعل الناس تعتقد بأن الحزب قد انحرف. وكان يتبنّى مواقف ديماغوجية لحاجة "في نفس يعقوب" وكان قد أعطى صفة الإصلاحية بكل بساطة للواقعية الثورية التي ميّزت قرارات المؤتمر الثاني والذي ما زال ينشط اللجنة المركزية، إلى سياسة توطيد وتوسيع قوات الحزب وإلى تشييد البنيات الضرورية لنجاح وتكثيف كفاحنا وإلى عمل التكوين والتحضير الجيد وإلى البحث عن وحدة متماسكة لكل الطاقات السليمة للأمّة. أراد مصالي أن يوجهها بالعنف الكلامي والاضطراب من أجل الاضطراب والعنصرية والمغامرة.

إن ثلاثة أرباع انتقادات مصالي كانت حول سياسة الانجازات البلدية التي قام بها منتخبونا وخاصّة في مدينة الجزائر. ولكنه اليوم يقبل أن بعض المنتخبين المنتمين إلى قضيته يتابعون، في مدينة الجزائر ذاتها، نفس السياسة، ماذا يعني هذا إن لم يكن أن تلك الانتقادات لم تكن إلاّ أسبابا ليبرر موقفه ويخفي بذلك دوافعه الحقيقية.

وفي الحقيقة، إن النزاع كانت أسبابه العميقة هي مسألة القيادة والمنهجية. كان مصالي يريد أن يؤسس لسلطته الفردية ويجعل من الحزب ملكيته الخاصّة التي يستطيع استعمالها كما يحلو له وقد توصل اليوم إلى مبتغاه لأن جمعية هورنو قد صوتت له على الرئاسة مدى الحياة. وانطلاقا من هذا فإن كل مواقف مصالي تفسر بوضوح. إن العدوانية التي كان يظهرها دائما نحو كل المحاولات لتجديد منهجية العمل والقيادة، كانت تنطلق من خشيته أن يرى سلطاته محدودة باعتبار توزيع الأعمال والمسؤوليات. إنه ضد العمل النظري الرامي إلى تأسيس مذهب دقيق يسمح ببعث الكفاح على قواعد أكثر عملية وعقلانية لأنه يخشى أن تتجاوزه الأمور. إنه ضد الوحدة الوطنية خشية أن يتضرر نفوذه. إن هذه الخشية المرضية التي صارت عنده مركب نقص يمكنها كذلك أن تشرح أنه صرّح في وقت ما أنه ضدّ وحدة شمال إفريقيا بحجة أن بورقيبة وعلال الفاسي إصلاحيان".

مقتطفات من تصريح لأعضاء من لجنة المركزيين في الأمّة، 3 سبتمبر 1954.

اجتماع الـ 22 (في 25 جوان 1954)

"ترأس الجلسة بن بولعيد. وفيما يخصني كنت أقدم التقرير الذي أنجز خلال الاجتماعات التحضيرية من طرف كل المجموعة، وكان من حين لآخر يساعدني بن مهيدي وديدوش.

إن النقاط التي تمت إثارتها هي التالية :

- تاريخ المنظمة الخاصّة منذ إنشائها إلى غاية حلها ؛

- حصيلة القمع والوشاية والموقف الإنهزامي لقيادة الحزب ؛

- العمل الذي قام به قدماء المنظمة الخاصة (O.S) بين 1950 و1954 ؛

- أزمة الحزب وأسبابها العميقة يعني النزاع بين الخط الإصلاحي والقيادة والمطامح الثورية للقاعدة وكانت نتيجة الأزمة الانقسام وعدم الفعالية ؛

- شرح موقفنا في اللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) بالنسبة للأزمة والمركزيين ؛

- بناء على هذه الوضعية وعلى وجود حرب التحرير في تونس وفي المغرب، ماذا كان علينا أن نفعل؟ وانتهى التقرير بهذه الكلمات : "نحن قدماء المنظمة الخاصة (O.S)، يجب علينا أن نتشاور ونقرر المستقبل".

وخصصت جلسة ما بعد الزوال إلى مناقشة التقرير التي جر ت في جو صريح وأخويّ. وبرز موقفان : الأول متمثل أساسا في العناصر التي يبحث عليها الاستعمار والذين يقترحون الدّخول فورا في العمل وهو الوسيلة الوحيدة لتجاوز الوضعية الكارثية لا سيما للحزب ولكن بالنسبة للحركة الثورية في مجموعها. والتوجه الثاني، ودون التراجع على ضرورة العمل، كان يعتبر أن وقت تفجير الثورة لم يأت بعد. وكان تبادل الحجج

قاسيا جداً. وتمّ اتخاذ القرار بعد التدخل المثير للمشاعر الذي قام به سويداني بوجمعة الذي انتقد المتقاعسين بقوله :

"نعم أم لا، هل نحو ثوريون ؟ وحينئذ ماذا ننتظر للقيام بهذه الثورة إن كنا صادقين مع أنفسنا ؟"

وأدانت اللائحة التي تم تبنيها بكل وضوح انقسام الحزب والذين قاموا به. وأعلنت إرادة مجموعة من الإطارات "تضييق انعكاسات الأزمة" وتخليص "الحركة الوطنية الجزائرية من الانهيار". وقررت تفجير الانتفاضة المسلحة، على أنها الوسيلة الوحيدة لتجاوز الخلافات الداخلية وتحرير الجزائر". وانتهت بالجملة : "ويكلف الـ 22 المسؤول الوطني الذي يخرجه الاقتراع أن يعيّن قيادة تكون مهمتها تطبيق قرارات هذه اللائحة".

محمد بوضياف، الجريدة، رقم 15، نوفمبر/ديسمبر 1954.

مقتطف من إعلان جبهة التحرير الوطني (أول نوفمبر 1954)

"الهدف: الاستقلال الوطني بـ :

1- استرجاع الدولة الجزائرية الديموقراطية والاجتماعية ذات السيادة في إطار المبادئ الإسلامية.

2- احترام كل الحريات الأساسية بدون تمييز لا عرقي ولا ديني.

الأهداف الداخلية :

1- تدويل القضية الجزائرية.

2- إنجاز وحدة شمال إفريقيا في إطارها الطبيعي العربي-الإسلامي.

3- وفي إطار ميثاق الأمم المتحدة، نؤكد مودتنا الفاعلة تجاه كل الأمم التي تدعم نشاطنا التحرري.

أرضية الحوار

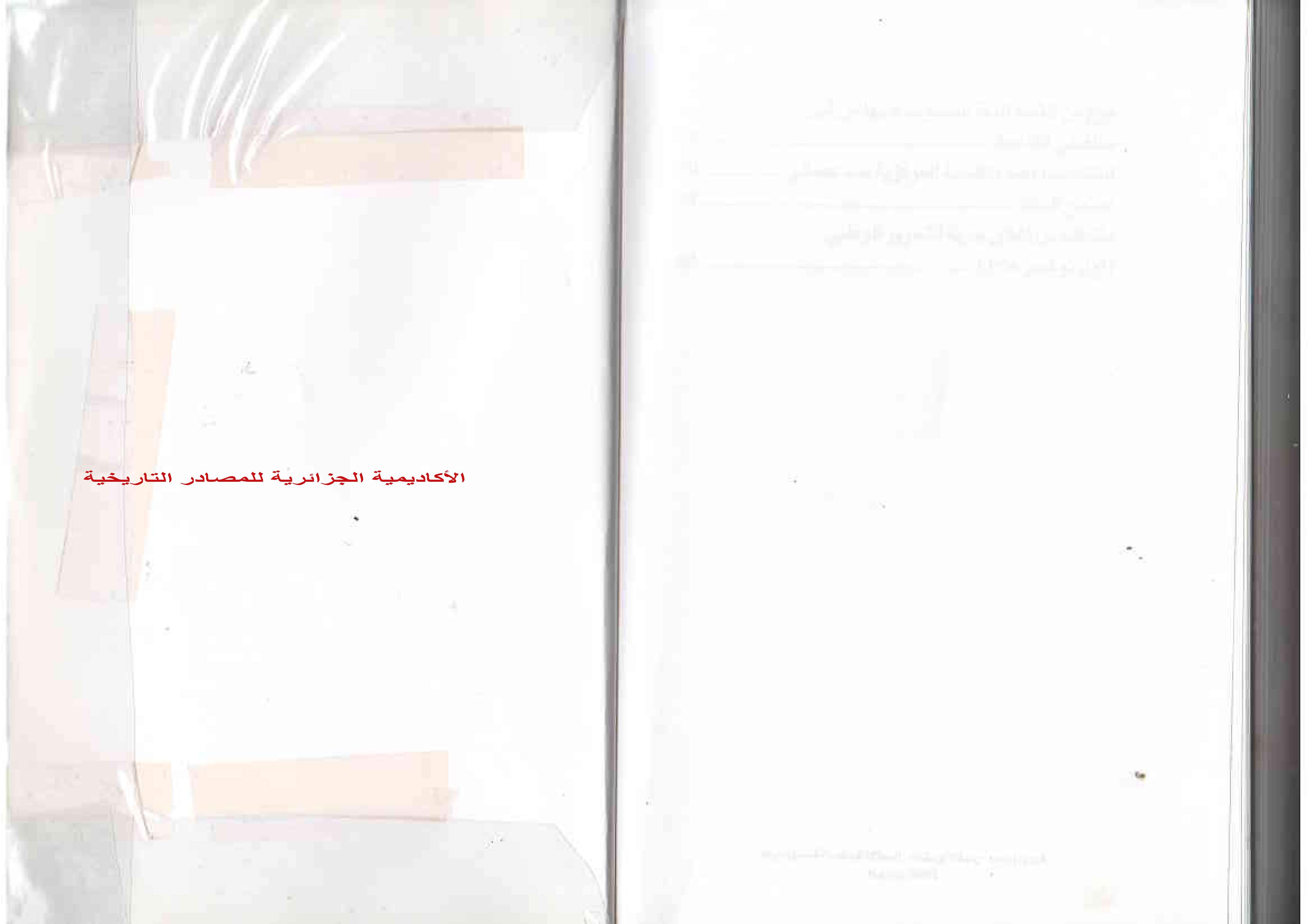
1- فتح المفاوضات مع الممثلين المأذون لهم من الشعب الجزائري على أساس الإعتراف بالسيادة الجزائرية الواحدة والتي لا تتجزأ.

2- إحداث جو من الثقة بتحرير كل الموقوفين السياسيين ورفع كل الإجراءات الاستثنائية وتعطيل كل المتابعات ضد القوات المحاربة.

3- الاعتراف بالجنسية الجزائرية عبر تصريح رسمي يلغي كل القرارات والمراسيم والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضا فرنسية إنكارًا للتاريخ والجغرافيا واللغة والدين تقاليد الشعب الجزائري".

فهرس الموضوعات

طبع المؤسسة الوطنية للإتصال، النشر والإشهار- وحدة رويبة
الجزائر 2008



جزائر الجزائريين

تاريخ الجزائر 1830-1954

ما يقرب من عشرة آلاف جزائري رفضوا البقاء في مدينة محتلة وتركوا ممتلاكاتهم والتجأوا إلى المدن الداخلية.
أمام الخطر، اجتمع ممثلو القبائل يوم 23 جويليا في برج تمنفوست، غرب رأس ماتيفو وقرروا رَدَّ الفعل على احتلال مدينة الجزائر بالمقاومة بدون هوادة ضد الفرنسيين. وأرسل محافظون إلى كل مناطق الجزائر للإعلان عن بدء الجهاد.
بقيت الجزائر الجزائرية حيّة سواء في الجزائر التي كانت مستقلة والتي كانت المقاومة فيها تكافح إلى غاية الإنهاك أو في الجزائر المحتلة حيث العقيدة الإسلامية والوطنية كانت تدعم كل أشكال المقاومة السياسية.

الأكاديمية الجزائرية للمصادر التاريخية


ISBN : 978-9947-21-386-5
dépôt légale : 1289-2008
conception: N.Tebti Rabhi